الطبعة الخامسة

نور عبد المجيد

أنا شهيرة

الحكاية الأولى

رواية

الدار المصرية اللبنانية


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

أنا شهيرة

الحكاية الأولى

عبد المجيد، نور .
أنا شهيرة/ نور عبد المجيد . ـ ط5. ـ
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2013.
400 ص؛ 20 سم.
تدمك : 4 - 789 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان . 813
رقم الإيداع : 2012/ 21393

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى : صفر 1434 هـ يناير 2013 م



أنا شهيرة

نور عبد المجيد

الحكاية الأولى

الدار المصرية اللبنانية

تنويه هام

أي تشابه في أسماء الأشخاص أو الشركات أو المنتجات الطبية في كلا جزءَيْ الرواية هو محض صدفة لا أكثر ؛ لذا لزم التنويه !!

نور عبد المجيد

1

إلى « نور » و « كريم » ..
إلى من علمتهما الحب والصدق والحنان ..
ولا أعلم هل يغفران لي عندما يدركان أنها
ذنوب وخطايا لا تغتفر !!!

إلى « شرفة » مهجورة تئن في القلب:
يعبرون ويعزفون الألحان كثيراً لكن
ما استحق سكناكِ أحد بعد !!!

أنا شهيرة..

هل ابتسمتِ وأنتِ تقرئينها كما فعلت يوم قلتها لك في تلك المرة الوحيدة التي التقينا فيها؟! هل تراكِ تقطِّبين الآن حاجبيك، تحاولين أن تتذكري متى التقينا؟!

ليست القصة أن أذكرك بلقائنا البعيد، أو أن تبتسمي أو تقطبي حاجبيك.. أبدًا..

القصة هي أن أضع أنا قصتي بين يديكِ.. أن ألقيها عن صدري بين أصابعك، التي ضمت كفي يومًا في حنان كبير رغم أننا التقينا وافترقنا غرباء!!

ترى هل تكرهين حنوك عليَّ بعد أن تنتهي من قراءتها، أم تراكِ تركضين وتأتين إلى هذا البيت الصغير، الذي أقبع فيه وحدي إلى جوار الشرفة أنتظر حضورك أو حضور الموت؟!

من منكما يأتيني أولًا؟!

أيضًا ليست هذه هي القصة..

لا أنا ولا أنتِ بحنانك أو قسوتك.. بعقلك أو ثوراتك نملك أن نحدد من منكما يطرق الباب أولًا.. لم اخترتك أنتِ بالتحديد لأكتب إليك؟ لأني أحب ما تكتبين.. لأني قرأت كل ما نشرتِ.. أو لأني أبحث عن امرأة أعترف لها بكل شيء.. لأننا التقينا يومًا أم لأن لقاءنا كان هدية زوجي بعد سجن الأعوام؟!

لا أعلم.. أنا في هذه اللحظات الفاصلة من حياتي علمتني الأيام أننا مهما علمنا ومهما تعلمنا يبقى ما نجهله دومًا أكبر..

كأني في رهان أحمق مع نفسي.. أنت أم الموت؟!

هل أصابك الملل وقذفتِ بالأوراق بعيدًا؟!

آه كم أتمنى لو تفعلين فإن فعلتها ما طرق بابي سوى الموت.. ولكن هل حقًّا أنا أريد الموت.. أم أنني، ككل الجبناء والمجرمين، أريد الخروج إلى الحياة من جديد.

مازلت في السادسة والثلاثين.. مازلت جميلة بل أكثر جمالًا وإثارة مما كنت عليه وأنا في العشرين من عمري.. مازال شعري غزيرًا يرقص على كتفي وحول أطراف وجهي بخصلاته الثائرة المجعدة.. مازال شعري يثير حولي النظرات.. مازال كقدري لا أملك الهرب منه ولا أقوى على الخروج به!!

مازلت دومًا أجمعه فوق رأسي.. هو في لون حبة مارون أصيلة، دون خط واحد أبيض.. ثائر دون قضية..

مازالت عيناي واسعتين مشروطتين في اتساع كبير .. بلونهما الرمادي الهادئ المثير.. مازالتا جميلتين، لكن زاد عمق حزنهما واتسعت مساحة الألم فيهما.. أنفي الدقيق مازال يقف فوق شفاه مستديرة مكتنزة.. شفاه ابتلعت وتبتلع جيوشًا من الدمع المالح رغم صباها..

نعم مازلت شابة جميلة كيوم رأيتني وربما أكثر بهاء وأناقة..

مسحات الحزن العميقة التي يرسمها القدر على بعض الوجوه قد تزيدها بهاء لا انكسارًا!!

رغم هذا فأنا منذ حضوري هنا، وأنا أبحث عن هذا الجمال في مرآتي فلا أرى سوى عجوزٍ لا تقل بشاعة عن ساحرات قصص الأطفال القديمة.

مازلت في السادسة والثلاثين.. شابة ولكن هل يستحق الشباب الحياة فقط لأنهم مازالوا صبية؟!

أيكما يأتيني أولًا؟! أنتِ أم الموت؟!

أيكما أريد؟! أيكما أستحق حقًّا؟! ومن ذا الذي يفصل ويقرر؟! من الذي يحكم؟! من ذا الذي يملك أن يصدر حكم الإعدام أو قرار العفو والرحمة؟!

وحياة ابني ورحمة أبي أنا لا أعلم أيهما أريد حقًّا.. لكني أستحلفك برب الأرض والسماء.. برب الحمقى والعقلاء.. إله الحانين والقساة الذين

أحببتهم، والذين أتوا بي إلى هذه الدار الطاهرة الصغيرة.

أقسم لك وأقسم عليك إن سبقك الموت فلا تلومي نفسك يومًا.. ثقي أنكِ إن لم تحضري سأغفو بين ذراعيه وأنا أبتسم.. سأغفو بين ذراعي الموت، وأنا أعلم أنك يومًا ستقرئين..

بل ربما كنت أتمنى ألا تحضري لأبتسم وأنا أموت..

آه سيدتي في أيام قليلة نسيت كيف تبدو الابتسامة.. وكيف تبتسم الشفاه؟!

طويلة هي هذه المقدمة..ولكن أليس هذا هو حال كل من لا يعلمون كيف يبدءون..

* * * * *

مدحت عبد الرحمن.. قد لا تعرفين هذا الاسم لكن يعرفه الكثيرون.. عشرات وربما مئات الأسماء البراقة والشخصيات المتألقة تتلمذوا على يدي مدحت عبد الرحمن، مدير مدرسة الطبري الثانوية للأولاد بحي مصر الجديدة.

قال عنه وزير التربية والتعليم في حفل تكريمه يومًا: «لو كان في مدارس مصر عشرة رجال مثله لأصبحت مصر غير مصر ورجالها غير رجالها»..

في الخامسة، ينهض من فراشه ليؤدي صلاة الفجر، ويقرأ بعض الآيات القرآنية في المسجد المجاور لبيتنا في شارع محمد فريد، ثم يعود ليدخل غرفتي ويخرج منها ويدي بين كفيه لنجلس ثلاثتنا، أنا وهو وأمي «راوية»، حول مائدة الإفطار نأكل ونتحدث ويروي كل منا ما سيفعله..

كنت دومًا أنا التي تبدأ.. سأذهب إلى المدرسة وفي المدرسة سأتحدث إلى صفية وهناء ومها، وأبدًا لن أتحدث إلى ماجدة ومروة ورشا.. في الحادية عشرة سأؤدي اختبارًا، وفي الثانية عشرة ونصف سأؤدي الصلاة أيًّا كانت «الحصة» التي يأتي فيها موعد الصلاة.

عندما اقتربت من نهايات المرحلة الثانوية، بدأت أحاديثي تتلون بلون الصبا والأنوثة، وأصبح يتخللها قصص عن شاب يلاحقني أو آخر يحاول الحديث معي، بعد أن أرسل لي ورقة بها رقم هاتفه..

هكذا ببساطة أحكي كل شيء ومدحت عبد الرحمن والدي ناظر الطبري الثانوية يستمع ودومًا ينظر إلى وجه أمي وبين عينيه ابتسامة هادئة تبتلع الخوف، الذي يشق صدر وجهها وهي تسمعني.. أتحدث عن ملابس علا الضيقة، أو عن قلم أحمر الشفاه الذي خبأته ماجدة بين كتبها لتضع مسحة منه في حصة الرياضيات لأنها معجبة بأستاذها..

أمي - رحمها الله - تتلون بشرتها بالذعر والقلق.. وحده هو يبتسم في صفاء قائلًا:

لا تخافي يا راوية.. ابنتك تحفظ القرآن.. والقرآن سيحفظها!!

تسعة عشر عامًا، كان عمري يوم رحلت أمي عنا في هدوء..

تسعة عشر عامًا كنت أزداد فيها جمالًا وعقلًا وخوفًا من الله وخوفًا على كرامة واسم والدي.

علمني خوف الله.. علمني أنني أعلى وأجمل من أن يعبث بقلبي أو جسدي رجل..

علمني أنني أبدًا لست شهيرة.. لكني دومًا شهيرة مدحت عبد الرحمن..

علمني ذاك الرجل ثلاثة أشياء حببت بها وأظنها اليوم وحدها من قتلتني.. علمني الحب والعدل والكرامة!!

فلنعد إلى عامي التاسع عشر حيث كنت طالبة في كلية الصيدلة.. كان أمل أمي أن أتخرج منها، وأن تقوم هي وأبي بشراء صيدلية يطلقون عليها اسم الدكتورة شهيرة، وتمنيت لو أحقق لهما الحلم.. لكني كنت أعلم أنه حلم صعب كصعوبة كل الأشياء البسيطة في حياة الأنقياء!!

مدحت عبد الرحمن لا يملك سوى مرتبه من وزارة التربية والتعليم، وسيارة صغيرة لا سعر لها في سوق السيارات..

دخل والدي كان بالكاد يكفي مصروفات الحياة ونفقات تعليمي وكتبي ومراجعي..

لو صلبوه أو مزقوه ألف ألف قطعة ما كان ليترك راوية تطلب ميراثها، الذي استولى عليه شقيقها الوحيد..

لم أسمعه يشكو يومًا ولم أر أحدًا يدخل بيته دون أن يكرمه ويحسن ضيافته، وإن كان معنى هذا أن تخلو مائدتنا من أشياء كثيرة لأيام طويلة بعدها..

صعبًا كان الحلم أم سهلًا.. يبقى دومًا في قلوب الأنقياء منتصبًا كالخطايا؛ لهذا بقي الحلم في قلوبنا جميعًا وعلى ألسنتنا كل صباح وكل مساء.. مساحة الصيدلية.. من يعمل بها؟! ماذا نبيع فيها؟ وكيف نخصص جزءًا ثابتًا من أدويتها ودخلها لكل من نعرف أنهم بحاجة إلى الدواء ولا يملكون ثمنه؟!

نتحدث ونحلم وتسكت الكلمات عندما تقودنا إلى السؤال الكبير عن التكلفة المادية لهذا الحلم.. عندها يصمت الحديث، وتنظر أمي رحمها الله

إلى والدي في رجاء وخوف، كأنها تذكره أن بإمكانها أن تطلب حقًّا هو لها، ويبتسم هو في حنان رافعًا كفه الأبيض الكبير، كأنه يأمرها أن تبقى الكلمات حبيسة العيون..

في مرات قليلة كان يقول بصوته الحازم الهادئ:

مازال عندي قطعة الأرض تلك، ومازال بإمكاني بيعها ، فلتنهي شهيرة الجامعة وكل الأمور تصبح كما نريد..

كانت أمي وكنت معها نعلم أن قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها والدي في محافظة الشرقية تحمل عبق أمه وتحتضن رفات أبيه.. كانت تعلم أنه أبدًا لن يبيعها ، وأنه إن فعل قد يموت حزنًا عليها ، لكن لا أنا ولا أمي ولا حتى والدي بكل علمه وحكمته نعلم أن كل شيء.. كل شيء في لحظة قد يباع ويشترى..

يوم ماتت أمي كان يومًا ككل الأيام.. كان صباحًا أشرقت فيه الشمس وتعالت فيه أبواق السيارات، ونهض فيه ما يقارب الألف طالب من أسرّة منازلهم ليستعدوا للذهاب إلى مدرسة الطبري الثانوية.. وحده أبي ما ذهب يومها.. وحدي أنا ما ذهبت يومها إلى كلية الصيدلة في جامعة عين شمس..

وحدنا أنا وهو لم نر الشمس، التي أشرقت ذاك الصباح ولم نتدفأ بها رغم تأججها..

مازلت أذكر جيدًا كيف كنت أرتدي بيجاما وردية وأفتح عيني وأغلقها في تململ، أسأل لماذا تأخر والدي في إيقاظي.. لا أحب أبدًا أن أفتح عينيّ إلا على عينيه الرماديتين وبشرته البيضاء.. لا أحب أن أترك غرفتي إلا وكفي بين أصابعه.. تململت في فراشي كثيرًا، وأنا أسأل هل تأخر في المسجد أم تراه يشاكس أمي، وهما يعدان معًا طعام الإفطار؟! هل تراه أحضر صحنًا من الفول، ويقوم بإعداد «تحبيشته السرية» كما يدعوها؟!

حين طال انتظاري بدأ القلق يتسرب إلى أوصالي، وأنا أرقب الشمس تحتل في غرفتي مساحة أكبر من المساحة التي تحتلها قبل دخول والدي كل يوم.. قررت أن أنهض وأخرج إليهما لأعاتبهما، وقبل أن تلمس قدمي أرض الغرفة.. رأيته يدخل في هدوء، وقلت صائحة:

حضرة الناظر.. تأخرت كثيرًا..

اقترب الناظر من فراشي في هدوء.. كان رأسه منكسًا وكانت خطواته ضعيفة لكنها ثابتة.. جلس على فراشي في هدوء لم أفهمه.. حتى مد كفه الأبيض بعد لحظات، يمسح به على وجهي في حنانه الكبير، وامتدت أصابعه ترفع شعري الغزير، تحاول الوقوف به خلف أذني الصغيرة البيضاء..

سرت رعشة في أوصالي.. كانت دهشة كبيرة تقف على حدقتي عيني حتى كدت أشعر أن الشمس غابت، وأن غيومًا كثيفة في لحظة سكنت قلبي وغرفتي..

نظرت إليه كأني أسأل ونظر في عيني كأنه يجيب..

أقسم بالله أنه لم يخبرني وأني ما قلت كلمة.. كأنه قال وكأني سمعت.. وضعت رأسي على صدره، وفي حزن كبير، وبصوت يتهدج بالدمع، قال:

- «ما عدنا ثلاثة.. أصبحنا اثنين»..

كيف لم أركض؟ كيف لم أسأل أو أصرخ؟ بل كيف علمت قبل أن يقول؟! لا أعلم..

تكورت فجأة على صدر مدحت عبد الرحمن كأني قطّة صغيرة، وأحكم هو ذراعيه حولي في هدوء وقوة، وعاد يقول:

- لم تكن الأرض مكانًا لها.. من مثلها لا تطول على الأرض إقامته.. السماء تناديهم.. كل الأطياب أو معظمهم رحلتهم على الأرض قصيرة.. كل الأطياب حقًّا لا يطيلون البقاء.. قالها حبيبي يومًا، وأكدتها رحلتي مع الأيام والأقدار..

إن سبقكِ الموت في الحضور.. هل يعني هذا أني من الأطياب؟ أشك في هذا كثيرًا..

رحلت راوية في هدوء، وفي ذاك اليوم امتلأ البيت الصغير بعشرات العشرات.. معلمين.. طلبة.. موظفين من الإدارة التعليمية.. لم ينتظر أحد ليلة العزاء التي تقرر إقامتها في المسجد المجاور.. الجميع حضروا.. الجميع كانوا حولي وحول حضرة الناظر..

جنازة أمي كانت تظاهرة حب كبيرة لأبي، حتى بعض أولياء الأمور حضروا.. رأيت بعيني الكثيرين يبكونها وهم حتى لا يعرفونها.. بكوها حبًّا في زوجها وحزنًا على حزنه ودمعه.

لكن وبعد انتهاء الجنازة وليلة العزاء الكبيرة.. بعد دمعات الحب وعروض المساعدة ودعوات الرحمة والصبر، ذهب كلٌّ إلى طريق، وعدنا أنا وهو وحدنا..

لم نجد راوية لتبتسم في وجهه أو وجهي.. لم تعدّ لنا وجبة العشاء، ولم تحمل ملابسي التي ألقيها على الأرض كل يوم، قبل ذهابي إلى الجامعة لأجدها عند عودتي مطوية في حنان على حافة فراشي.. وجدتها ملقاة على الأرض كما تركتها، انحنيت ألتقطها، ودمعات كثيرة تسقط على من كانت بها وبي تهتم.. يوم حدث هذا وضعت جسدي داخل البيجاما التي ما وجدت من يلتقطها سواي، ورفعت رأسي في كبرياء.

هناك أمور كثيرة يجب أن أعتادها.. هناك أمور كثيرة يجب أن أتعلمها وأحيا معها..

عندما ينقص شخص من بيت ما، تزداد الأحزان وأيضًا المهام والدروس التي يتعلمها من بقي بعده في الدار..

خرجت يومها من غرفة والدي لأجده يجلس في صالة البيت، ينظر بعينيه إلى حيث اعتادت أمي الجلوس بجلبابها الزاهي الطويل، والتقطت بعيني عينيه وهو يبحث عن مسبحتها الوردية ذات المائة حبة، وأمسك بها بين أصابعه لتسقط من عينيه دمعة، نظر بعدها في وجهي قائلًا:

- أما أخبرتك؟! أصبحنا اثنين!!

* * * * *

الحزن كالتجاعيد.. حين يقرر أحدهما سكنى قلب أو روح أو وجه إنسان، يتسلل في هدوء.. يذوب في أنسجة الجلد قطعة قطعة..

الحزن كالتجاعيد وكلاهما كالسرطان.. خلية واحدة صغيرة قد لا نشعر بها إلا وهي خلايا كثيرة، تغزو الأعضاء؛ لنعلم ونعلن أننا مصابون به.

أول خلية حزن سكنت روحي.. أول خيط من خيوط التجاعيد سكن وجه أيامي.. أول مسحة ألم على جلد أيامي وأيام والدي كان ذاك اليوم.. شيء ما في قلوبنا تغير.. شيء ما في صدورنا تكسّر.. شيء صغير جدًا لو حاولنا أن نمسك به.. لو حاولنا أن نعرفه ما استطعنا.. لكنه كان كحبة مطر صغيرة سقطت على حقل كبير.. لا نحن نراها ولا هي ترويه.. لكنها بداية لطوفان آت.. طوفان اسمه الحزن..

بعد رحيل أمي أصبح في وجه والدي خط نحيل لا يراه أحد.. خط يقابله آخر أكثر نحولة على وجهي حتى أنا نفسي لا أكاد أراه.. خط يتلوه خط، وبعد أعوام تتوالى فيها الخطوط ندرك ذات يوم أن السعادة لا تسكن وجوهًا رسمت عليها الأقدار لوحات الأحزان الكبيرة!!

أصبحت في صوتي نغمة هادئة خفيضة.. أصبحت في وجهي مسحة حانية وفي عيني طلّة ساكنة..

قد يسميها الجهلاء رقة.. وقد يطلق عليها السذج حنانًا لكنها شجن ورؤية، يدركها من لا يعبرون فوق الأحزان بسرعة.. يدركها من تترك الآلام على أرواحهم بصمات خفية وبعيدة..

بتلك الرؤية وتلك البصيرة، بدأت حياتي وحياة مدحت عبد الرحمن بعد رحيل راوية عنا..

عاد والدي يذهب إلى المدرسة كل صباح ليعمل بالنقاء والضمير ذاته.. ليدخل المنزل قبل عودتي من الجامعة ويعد طعام الغداء الذي غالبًا ما يجده نصف مجهز قبل خروجي إلى الجامعة.. يعود ليطهوه، ثم يقوم بطي الملابس، التي غالبًا ما أكون قمت بغسلها وتركها على تلك الحبال النظيفة المتدلية أمام شرفة غرفتي..

أعود في الخامسة أو السادسة من جامعتي، كما كنت أعود أيام كانت أمي معنا لأفتح باب البيت وألقي بكتبي وأوراقي في غرفتي، ثم أعد المائدة لأخرج بمدحت من غرفته كما كانت رحمها الله تفعل، وكما هو دومًا يفعل معي كل صباح..

نخرج معًا لنتناول طعام غدائنا ونتحدث، وأنطلق أنا أحكي عن كل ما يحدث في الحرم الجامعي بالحرارة ذاتها والاندفاع ذاته وأيضًا بالنغمة الشجية ذاتها، التي قد لا يشعر بها أحد سوانا.. النغمة التي ورثناها من رحيل راوية عن أيامنا..

في الشهور الأولى لرحيل أمي كانت هذه الجارة أو تلك تطرق بابنا في بعض الأحيان، تحمل صحنًا ساخنًا لوجبة، يعلمن أنني وحضرة الناظر نحبها ولا نملك الوقت لطهيها، أو صحنًا من الحلوى يصعب على من هي في مثل سني إعداده.. كنت ألتقط تلك الصحون في ابتسامة كبيرة وعبارات شكر صادقة.. ولكن ما وضعنا صحنًا جاءنا يومًا إلا وتبادلنا نظرة حزينة يترحم هو بعدها على أمي، وأبتلع أنا دمعاتي وأشيد بكرم جيراننا وطيبتهم..

وحدنا من نختار بماذا نشعر.. وحدنا من نقرر كيف نأخذ وكيف نعطي..

أذكر جيدًا أنه، وفي أول مرة جاءت إحدى جاراتنا، تحمل لنا وجبة غداء ساخنة بعد رحيل أمي.. أذكر أنني بكيت في عصبية، وحين ربت أبي على رأسي، في حنان، قلت في ثورة إننا أصبحنا موضع شفقة وإحسان.. أخبرته أنني سأتعلم إعداد كل شيء كما كانت أمي تصنعه.. شعرت يومها أن كبريائي وكبرياء مدحت عبد الرحمن لا ترضى بلقيمات الطعام تلك، ولا يجب أن تقبلها.. لم يقاطعني والدي يومها.. ظل يتابعني بعينيه وابتسامتهما الكسيرة حتى سكت دمعي وهدأت ثورتي.. أمسك بكفي بعدها بين كفه.. وبعد لحظات من الصمت أخبرني أنني قد أكون على حق، وأن جيراننا قد يتعاملون معنا بشيء من الرثاء وكثير من الشفقة.. لكن مع رثائهم وإشفاقهم هناك أيضًا حبهم لنا ولها.. هناك شعورهم بالعرفان لجميلها ومواقفها الرائعة معهم.. أخبرني أن عبق ذكرى أمي مازال يعطر بيت كل عائلة تسكن العمارة الصغيرة، التي نسكنها والتي ولدت أنا على أرضها.. هناك حب وذكريات تدعوهم أن يفعلوا ما فعلوه..

وضع والدي ذاك المنديل الأبيض على الصحون التي أحضرتها جارتنا.. وبعد أن قام بتغطيتها، نظر في عيني وقال إن كنت أرى طعامهم

شفقة، فعليّ أن أعيده حتى لا يجرح كرامتي وكبريائي.. أما إن أنا شممت فيه رائحة الحب، فلنأكله ونحن نبتسم..

أخبرني أن الشفقة والرثاء موجودان.. لكن الحب والحنان أيضًا معهما.. وحدي أختار أيهما أشعر به، وأيهما أشتم رائحته..

في هدوء مددت يدي لأبتعد بقطعة القماش البيضاء وأطويها بعيدًا، ومددت كفي أضع به بعضًا من طعام جيراننا في صحن أبي وصحني وأنا أبتسم..

لو كان مدحت عبد الرحمن هنا اليوم، ما أظنني كتبت إليك حرفًا.. ولكن من لي بعده سوى البحث عن امرأة التقيتها مرة، وتحسست في عينيها شيئًا من حنانه وحكمته؟

* * * * *

حياتنا في شارع محمد فريد كانت رائعة رغم بساطتها.. نحن نسكن حيًّا راقيًا وعمارتنا الصغيرة هي الوحيدة التي تقف إلى جوار جامع الفتح الشهير.. كانت حياتنا فيها حياة ثرية رغم أننا ما كنا أثرياء.. نحن من تلك الطبقة، التي نزفتها الثورة وخلفها الانفتاح، وكل الظروف السياسية التي طحنت الملايين..

في عامي الأخير بكلية الصيدلة، عاد الحلم يدق ضلوعي ورأسي.. حلم صيدليتنا القديم..

أصبحت أتحدث كل يوم مع زملائي عن الصيدليات.. عن رأسمالها وتكلفتها، وفي كل مرة أفتح فمي في ذهول لأن ما يطرق أذني هو أرقام كبيرة عدد أصفارها يفوق كل خيالات شهيرة ووالدها حضره الناظر المحترم، الذي تنحني له الرؤوس تقديرًا وإجلالًا.

في عامي الأخير في الكلية علمت أن الحلم ليس إلا كابوسًا كبيرًا قد يزهق روح آمالنا، ليس في الصيدلية فحسب، بل ربما في المستقبل بأكمله..

تحول حلم الصيدلية إلى هاجس، أضمه مع وسادتي إلى ذراعي كل ليلة لأبكي، وأنا أشعر أنني سأعجز عن تحقيق حلم أبي وأمي..

وحده حلمهما كان يعنيني.. كان بإمكاني أن أكتفي بتفوقي وتقديراتي التي تضمن لي الالتحاق بهيئة تدريس الكلية حال تخرجي، لكن هو حلمها وحلمه..

وبدأت قصة الصيدلية تنسج خيوطًا جديدة على لوحة الحزن التي اكتملت خطوطها منذ أيام.

في عام الجامعة الأخير كنت أتخيل أمي وروحها، وهي تقف إلى جواري ونحن نشتري الصيدلية ونشتري لوازمها.. كنت أرى كفها الصغيرة في كفي صباح الافتتاح؛ حيث ترتدي ذاك «التايير» الأزرق الأنيق الذي اشتراه لها والدي قبل رحيلها بأسابيع؛ لتذهب به إلى زفاف ابنة أحد كبار موجهي اللغة الفرنسية.. كنت أراها تضمني في فرحة وأنا أفتتح صيدلية الأحلام، ثم فجأة أراها وأنا مفتوحة الأعين تبكي في حرقة لأنها سمعت معي تلك الأرقام المجنونة.

عشت أيامًا وأسابيع أراها تزورني كل مساء، وتهمس بصوتها الحاني الدامع في أذني تذكرني أن لها ميراثًا وأن لي فيه نصيبًا.. كنت أسمعها تخبرني أن الحق في السماء لا يرضى أن يضيع الإنسان حقه على الأرض.. كنت أراها ترفع يدها لتتدلى مسبحتها الوردية، وهي ترجوني أن أدافع عن حقي.. كانت راوية كل ليلة تهمس في أذني أن مدحت مخطئ، وأن السكوت عن الحق خطأ والتنازل عن الحق ليس أبدًا فضيلة..

ربما كان عقلي الباطن هو الذي يرسمها لي ويُسمعني صوتها وكلماتها.. لكنني أقنعت نفسي أنها رسالة من السماء.. رسالة تخبرني أن ميراث أمي هو حق لها.. حق كان يجب أن تطالب به، وإن هي لم تفعل إرضاء لزوجها.. فهو اليوم حق لي أحتاجه، ويجب أن أتمسك به وأطالب به، حتى إن لم أكن بحاجة إليه..

اتخذت قراري.. سأذهب إلى الشرقية.. إلى خالي الذي كان يزورنا مرة أو مرتين كل عام، ولم أره يومًا بعد وفاة أمي.. سأذهب إلى خالي عثمان عبد التواب القرنشاوي أحد أغنى أثرياء الشرقية، وأطالب بنصيب أمي، الذي أعرف أنه ملايين، ورغم هذا فهو قطرة في نهر ثرائه وممتلكاته..

كان قراري الأول الكبير في حياتي، ويبدو أن قراراتي جميعها لا تجلب سوى الألم والضياع..

قررت الذهاب إلى كفر القرنشاوي، الذي أطلقوا عليه هذا الاسم نسبة إلى عائلة أمي وأجدادها..

قررت الذهاب وكان أمامي أحد خيارين: إما أن أخبر والدي قبل ذهابي، أو أن أذهب دون إخباره وأعود إليه لأضع في كفه شيئًا يحمل ذاك العدد الكبير من الأصفار، التي تحقق لنا كل الأحلام..

قد نكون أذكياء ونحصل على درجات كبيرة في المدرسة والجامعة.. درجات تجعل كليات القمة تفتح لنا ذراعيها، وتجعل رؤوس أساتذتها تنحني لذكائنا وتفوقنا، لكن يبقى الشباب دومًا ساذجين وأبرياء..

مازلت أذكر كيف كتمت خبر ذهابي إلى الشرقية عن والدي ذاك الصباح البعيد، واكتفيت بضمه إلى صدري في حنان، قبل أن يخرج إلى عمله، وقلت هامسة في أذنيه إني سأعود اليوم متأخرة، لكن سأخرج له عندها من جيبي شيئًا يفرحه.

كان في عيني حماس وإيمان بأن خالي سيأخذني بين ذراعيه.. بل كنت أشعر أني أكاد أعلم كلمات الجمل التي سينطقها.. كنت أسمع صوته يخبرني أن ميراث أمي محفوظ في حساب خاص، وأنه طوال هذه الأعوام كان يكتوي به.. لكنه يخشى أن يتحدث لأنه يعلم أن والدي يجرحه أن تأخذ أمي أو أنا شيئًا منه؛ لأن هذا قد يكون إعلانا لعجز والدي عن توفير ما نريده وما نحلم به..

كان في عيني ثقة وإيمان أو سذاجة، يراها من هم في عقل وعمر مدحت عبد الرحمن، كان في عيني أيضًا شيء كالخجل لأني أخفي عنه وجهتي وخط سيري، ولأن والدي رجل اعتاد التسلل إلى أعين الطلبة والمعلمين ليخرج منها بتقاريره وقراراته، فلقد رأى ذاك الصباح في عيني كل ما حاولت إخفاءه، لهذا ابتعد بجسدي قليلًا عن ذراعيه ونظر في عيني نظرة طويلة فاحصة قال بعدها في حزم:

- شهيرة.. ماذا ستفعلين اليوم؟!

أصابني الذعر لحظتها وأيضًا شعرت بالفخر.. انتفض جسدي انتفاضة صغيرة، أحاول أن أهرب بعيني من عينيه، حتى لا يرى فيهما طريق الشرقية، وأيضًا شعرت بالسعادة لأن له عيونًا ترى رأسي، وأيضًا لأن رأسي حقل مفتوح، لا يخطئ طريقه ذاك الرجل الجليل.

أغمضت عيني وابتسمت في حنان، أرمي بجسدي مرة أخرى، بين ذراعيه قائلة:

- سأفعل شيئًا جميلًا.. سترى..

بعد أن ضمني اتجه نحو باب البيت، وقبل أن يغلقه استدار يعاود النظر في وجهي قائلًا:

- شهيرة عبد الرحمن لا تفعل إلا الصواب..

مضى هو يومها إلى طريقه.. طريق التربية والتعليم.. ذاك الطريق الذي صنع فيه رجالًا وأرسى قواعد ومبادئ، ووقفت وحدي في غرفتي أنتقي ملابسي التي أذهب بها إلى خالي، وأعود من عنده في المساء أحمل نصيبي في ميراث أمي؛ لأحقق حلمها وحلم رجل العلم والكرامة..

مازلت أذكر أني لم أرتد أحد بنطلونات الجينز، التي أرتديها في الجامعة كل صباح.. أنا أعلم أني في الطريق إلى الشرقية، وللشرقية ورجالها تقاليد.. ارتديت يومها جوب واسعة من القطن، تقف قبل نهاية ساقي البيضاء بحوالي عشرة سنتيمترات، وارتديت قميصًا من القطن الأزرق له أكمام طويلة.. رفعت شعري فوق رأسي لتسقط منه خصلات قصيرة على أطراف وجهي، كأنها ترقص وأنا أتحرك في سعادة..

نعم.. كنت سعيدة وأنا أضع بعض النقود الإضافية في حقيبتي لأشتري بها علبة من الشوكولا قبل ذهابي إلى الشرقية..

ابتسمت في وجه وجهي أمام المرآة، كأني أخبر من أراها أن ما تفعله هو الصواب، وأن مدحت عبد الرحمن إن غضب سأخبره بزيارات راوية لي كل مساء..

سأخبره أنني أنا من طالبت بميراث أمها، وهو حق لا يجب أن ينكره عليَّ وأنه إن اختار هو أن يكون الزوج الذي منع زوجته عن المطالبة بميراثها فيجب أن يكون الأب العادل، الذي يترك ابنته تقرر أن تتحدث أو تصمت.

كان وجهي متوردًا بعظمة القرار.. حانيًا بحلم اللقاء.. حالمًا بلحظة العودة إلى البيت، حيث أقف أمام المرآة وأخرج من حقيبة يدي البيضاء ذاك الشيك الذي يحمل الأصفار الكبيرة.

كان في وجهي قوة وإصرار يسميه الحمقى حماس الشباب، ويعرف العقلاء أنه السذاجة والغباء!!

* * * * *

كم كان عمري يومها وأنا أجلس إلى جوار نافذة القطار، واضعة علبة الشوكولا التي اشتريتها على ركبتي ؟! كنت في عامي الثاني والعشرين وكان على وجهي ابتسامة عريضة في اتساع الحقول، التي كان القطار يركض إلى جوارها ليتوقف بعد ساعة تقريبًا في الزقازيق؛ حيث هبطت أنا إلى أرضها أبحث عن وسيلة أخرى أصل بها إلى كفر القرنشاوية.. عندما صعدت إلى إحدى تلك السيارات التي تشبه الميكروباص، علمت أن كل من كانوا فيها مثلي متجهون إلى كفر أحلامي وكفر أمي وأجدادها..

الفارق الوحيد بيننا أنهم كانوا يعلمون ما سيحدث لهم هناك بينما كنت وحدي أنا لا أعلم شيئًا.

نظر السائق إلى وجهي محاولًا الوصول إلى عيني، التي كنت أخبئها وأخبئ بريقها خلف سواد نظارتي الشمسية، وسألني أين أريد الذهاب بالتحديد.

شهق في دهشة عندما أخبرته أنني أحاول الوصول إلى بيت خالي عثمان القرنشاوي، عاد يسألني كيف لم يرسل لي خالي إحدى سياراته أو على الأقل أحد العاملين في دائرة زراعته؛ ليصطحبني إلى العزبة التي يقيم فيها، عندما أخبرته أنها مفاجأة ولا أحد هناك يعلم نبأ قدومي هز رأسه ثم نكسها لحظة قائلًا:

- سأوصلك إلى مدخل العزبة وعليك التصرف بعدها..

أخبرته أني سأمشي حتى أصل إلى مقر سكناه حيث نظر الرجل إليَّ في تشكك كبير، وسألني في تردد إن كنت أعلم أن أرض خالي تقترب من ألف فدان..

لم أجب لكنني قفزت من سيارته في نشاط وفرحة، أحمل علبة الحلوى.. لا يهمني عدد فدادين خالي.. سأركض حتى أصل إليه وأرتمي بين ذراعيه، ثم أعود إلى والدي بنصيب أمي ونصيبي في أرض أجدادها.

على مدخل العزبة، كانت هناك عشرات السيارات الصغيرة التي جلست في إحداها، أتلفت حولي في ذهول.. ظننت زمنًا أن ما تراه عيني لم يعد له وجود في أرض مصر.. لكن أرض خالي قالت إن شيئًا لم ينته.. مساحات خضراء واسعة مزروعة بالفاكهة والخضر، يركض عليها مزارعون ونساء وأطفال، منهم من يزرع ومنهم من يحرث أو يسقي..

بيت خالي كان كبيرًا كالقصور.. لكنه يحمل عبق الريف وبساطة ألوانه.. عندما وقف بي السائق أمام باب البيت هبط من السيارة ليصيح مناديًا من يصحبني إلى داخل «السرايا» كما دعاها.

ظهرت امرأة في الخمسين من عمرها تقريبًا، لتنظر إلى وجهي في ترحاب وتسأل لزيارة من بالتحديد من سكان البيت جئت، عندما أجبتها أنني جئت أزور خالي عثمان.. ضمتني إلى صدرها وصاحت:

- أنت ابنة السيدة راوية؟ ابنة الغالية؟!

ترقرقت عيناي بالدمع وأنا بين ذراعيها، وأخذت أقول في شجن كبير:

- نعم.. أنا ابنة راوية عبد التواب!!

* * * * *

في لحظات أصبحت في البهو الكبير.. وبعد لحظات ظهرت «سيدة» زوجة خالي لتضمني هي الأخرى في حنان، تخللته دمعات كثيرة وترحمات صادقة على أمي الطيبة..

هدأت أنفاسي وأنا أجلس على أحد مقاعد البيت المذهبة والمزركشة في ثراء، رأيته يفتقر إلى الأناقة، وضعت علبة الحلوى التي رافقتني رحلتي الطويلة على طاولة رخامية مستطيلة، واستدارت «سيدة» تخبرني أنها ذاهبة تخبر خالي بحضوري.

إلى جواري كانت ابنة خالي الصغيرة «وردة»، التي لم أرها طوال حياتي والتي لم أصدق أن خالي ينجب فتاة في عمرها، عندما سألتها في أي عام دراسي هي، أجابت في حياء أنها في الشهادة الإعدادية.. كانت كالطفلة رقيقة جميلة، وأخذت تثرثر بكل ما سمعته من قصص عن أمي وعن جدي وعن كل ما أعرف وما لا أعرف.. حدثتني عن أخيها المهندس الزراعي وزوجته وأبنائه.. أخبرتني عن أخيها الدكتور إبراهيم الطبيب البيطري، وكم تحبه وكيف يسكنون جميعًا هذه الدار الكبيرة.. شعرت أنني أعرفها.. شعرت بسذاجة الشباب ونقاء السرائر القديمة أنني أحبها، وأن عروقي تهفو إلى عروقها.

جلسنا ما يقارب الساعة نتبادل الأحاديث والذكريات.. ساعة تقريبًا نسيت فيها تأخر خالي عن الظهور.. لكنني أفقت وأنا أراه يدخل من الباب ذاته الذي دخلت أنا منه، وهو يصيح:

- شهيرة، كيف تحضرين دون أن أعلم، وأرسل لك من يستقبلك؟

ألقيت بنفسي بين ذراعيه في لهفة، وضمني خالي، ثم عاد ينظر حوله صائحًا في غضب قائلًا:

- وردة.. اذهبي وأخبريهم بإعداد طعام الغداء.. أحضري زوجة أخيك لنتناول الغداء جميعًا مع شهيرة..

قبل أن أفتح فمي بكلمة.. كانت وردة تهرول على سلالم البيت ورأيت ابنيْ خالي يدخلان من باب البيت، وهما يتقدمان نحوي في سكون، وعاد خالي عثمان يصيح:

- شهيرة.. الدكتورة شهيرة ابنة عمتك يا عادل.. دكتور إبراهيم هذه هي شهيرة، التي لم تطأ قدمها البلد، منذ كانت طفلة عمرها أعوام..

كان كلٌّ من عادل وإبراهيم يرتديان جلابيب رمادية اللون، تقف على أجسادهم في أناقة جلباب خالي، وعلى وجوههم كانت الابتسامة ذاتها الودودة المفتوحة الذراعين، مع شيء من التحفظ والتردد الذي قررت تفسيره بالخجل من كوني شابة، أقف بينهم للمرة الأولى.

في لحظة شعرت أني غاضبة من والدي.. شعرت أني أحمّل مدحت عبد الرحمن وكبرياءه العنيدة ذنب حرماني من كل هذا الحب والترحاب، وبدأت ابتسامتي تتسع وأنفاسي تهدأ وتطمئن، وأنا أجلس إلى جوار خالي على أريكة مذهبة كبيرة، جلس عادل وإبراهيم بعد جلوسنا.. جلسا على مقعدين مقابلين للأريكة، وفي عتاب نظرت إلى وجه عادل الباسم وسألتهم كيف لا يقومون بزيارتنا؟ كيف لم أر وردة مرة واحدة ولا أعلم وجودها؟! استدرت أنظر إلى وجه خالي أبحث فيه عن إجابة؛ حيث ربت بكفه الكبير على فخذي النائم إلى جواره وهو يقول:

- الأصغر هو من يزور ويبادر بزيارة الأكبر يا دكتورة!!

عاد يصيح وهو يتعجل إنهاء الطعام، وعاد يسألني بابتسامته العريضة هل حقًّا سأتخرج هذا العام؟!

شعرت بالخجل عندما سألني كأني تذكرت ما جئت من أجله، وكيف سيعلم خالي أني ما حضرت لأراه أو أرى أبناءه، وفكرت أن أقضي اليوم معهم وأعود دون أن أفصح عن سبب حضوري.. شعرت لحظتها أن وجودي بينهم وبين أحضان ترحابهم الكبير أغلى من كل شيء وأغلى حتى من حلم العمر.. لكنني عدت أتذكر والدي الذي ينتظر الخبر السار.. تذكرت زيارات أمي المسائية.. تذكرت كيف يجب أن أقشع الغمامة التي تسكن عيون والدي.. رأيت في تلك اللحظة وجه أبي وهو يمسك بين أصابعه الشيك، الذي سيمنحه لي خالي بميراث أمي وتدمع عيناه كأنه يعتذر عن كل ظنونه وترفعه عن زيارة خالي أو اصطحابنا أنا وأمي إلى كفر القرنشاوية.. شعرت أن الهدية التي سأعود بها إلى والدي ليست ميراث أمي، لكنها حكم براءة خالي ونقائه..

رأيت بعيوني المفتوحة والدي وهو معي نزور خالي بعد أيام.. رأيت والدي بصدقه وعدله يعتذر عن ظنونه القديمة، وعاد صوت خالي يسألني

في أي شيء أنا شاردة..
اقتربت بجسدي من خالي ووضعت رأسي على صدره كأني أعتذر عن أبي قائلة:
- اشتقت إليك.. رائع أن تكون بين أهلك..
قبل أن يضمني، ظهرت وردة الصغيرة آنذاك وخلفها زوجة عادل وأبناؤه، وأقبلت معهم زوجة خالي، وهي تعلن في خوف أن الطعام سيكون جاهزًا بعد لحظات، في لحظة وجدتني محاطة بقبيلة كبيرة، كل أفرادها ينظرون إلى وجهي في حب وترحاب..
عاد خالي يسألني عن الصيدلية، وأخبرته عن الأسعار والتكاليف ورحلات البحث التي خصصت لها في عام تخرجي وقتًا كبيرًا، ومد خالي كفه الكبير داخل جلبابه؛ ليخرج دفتر شيكاته الذي كان يخرجه دومًا لأمي في كل مرة يزورها، عارضًا مساعدته لها، وكانت رحمها الله دومًا تعود بيده في صمت رافضة أي مساعدة..
بعد لحظة، كتب فيها على دفتر شيكاته، قال ليصمت الجميع ونحن نسمعه:
- ربع مليون جنيه هدية خالك..
سقط قلبي بين ضلوعي، وأنا أراه يضع الشيك في يدي، وخيَّم الصمت على كل من كان يجلس، حتى ظننتهم يسمعون جميعًا صوت دقات قلبي ودبيبه، نظرت إلى الورقة الصغيرة التي وضعها بين أصابعي، وتجولت بعينيّ على كل الوجوه، وما رأيت سوى كف أمي وهي دومًا تعود بيد خالي بعيدًا عنها، وابتسمت في حنان قائلة:
- لا أستطيع أن أقبل مبلغًا كهذا كهدية أبدًا..
وبعفوية أمي رحمها الله ونقائها سمعت زوجة خالي تقول:
- الخال والد يا شهيرة.. راوية كانت..
وقبل أن تكمل، قاطعتها قائلة في صدق:
- لا أستطيع.. لكن بإمكاني أن آخذه كدفعة من ميراث أمي رحمها الله.
هل تسرعت فيما قلت؟ هل أخطأت عندما ذكرت الميراث؟!
لا أعلم.. ما أعلمه وأذكره أن غضبًا كبيرًا اجتاح وجه خالي.. ما أعلمه أن لحظة صغيرة جدًّا تفصل بين أن تعلم أو لا تعلم.. لكننا لحظة نعبرها دومًا لنعلم كم نحن حمقى وأغبياء..
التقط خالي الورقة الصغيرة وألقى بها في هدوء على الطاولة الرخامية المستطيلة، ثم التفت ينظر إلى وجهي في ثبات وجمود، لا أدري كيف أو متى تكونا، وبابتسامة صغيرة ساخرة قال:
- شهيرة.. ليس لأمك نصيب في الأرض.. الفدادين ملك لي وحدي أنا وأبنائي..
قد أكون عندها عبرت اللحظة الفاصلة، وقد أكون سمعت الكلمات البسيطة الواضحة.. لكن أنا حقًّا لم أفهم.. وفي بلاهة كبيرة سألته:
- أنا لا أعرف شيئًا عن الأرض.. لا أعرف شيئًا عن الفدادين.. ما أعلمه أن جدي رحمه الله كان له ممتلكات، وأنك أنت وأمي فقط من يرثها.. ما أعلمه أن أمي لم تتسلم نصيبها حتى ماتت.
انبرى صوت عادل ابن خالي الأكبر يقول في هدوء:
- عمتي رحمها الله لا ترث.. هل تريدين أن أحضر لك إعلام الوراثة.. عبد التواب القرنشاوي لا وريث له سوى أبي..
وعدت أردد في بلاهة قائلة:
- أليست أمي أختك.. أليست ابنته؟!
قال خالي في هدوء:
- في كل شيء إلا الميراث.. النقود أمامك.. هدية من خالك.. خذيها.. من صيدلية واحدة قد تفتحين سلسلة صيدليات.. لا ترفضيها.. أمك لا إرث لها.. اسمها غير مذكور في إعلام الوراثة..

لا أدري من أين جاءت تلك الدمعة التي شعرت بها ترقص بين جفوني.. لكن ما أدريه أنها أشعلت نارًا بين أضلعي.. نارًا جعلتني أنهض عن مكاني، وأنا أردد في صوت مكتوم:

- ظلم.. هذا تزوير.. تزوير في أوراق رسمية..

نهض خالي، وهو يمسك بذراعي قائلًا:

- لنأكل..

في لحظة رأيتهم جميعًا ينهضون.. رأيتهم جميعًا يختفون بعيدًا عن عيني.. وحده خالي يمسك بذراعي، ووحدي عيناي تتحركان في جنون، وتلك الدمعة ترقص كأنها تقاوم السقوط؛ حتى لا تلتقطها قسوة عيني خالي وعائلته..

كيف أفقت ومتى أفقت.. لا أعلم؟! ما أذكره الآن أن زوجة خالي وحدها تقدمت نحوي وانحنت تلتقط ذاك الشيك الملقى على الطاولة، ومدت به أصابعها نحو يدي الطليقة قائلة في صوت يرجف أَلَمًا وخوفًا:

- شهيرة أرجوك أن تأخذيه.. إن شئت أن تعتبريه..

قاطعها خالي في حزم يقول:

- هدية.. أو مساعدة أقدمها لابنة شقيقتي رحمها الله.. لا شيء آخر..

هناك رصاصات تقتل.. وهناك رصاصات تدوي في رأسك لتعود بك إلى الأرض.. عادت بي تلك الرصاصات التي أطلقها خالي من بين شفتيه إلى الأرض.. إلى الحقيقة.

نفضت ذراعي من بين يديه، قائلة في هدوء:

- هدية غير مقبولة ومعونة مرفوضة.. يا خال!!

* * * * *

كل ما أذكره عند رحلة عودتي إلى القاهرة أني سألت المرأة التي تجلس على المقعد المجاور في القطار إن كان طريق العودة من الزقازيق يختلف عن طريق الذهاب إليها..

السيدة ابتسمت في دهشة، وهي تسألني كيف يمكن أن يختلف الطريق إن كان قضيب القطار هو نفسه، والحقول هي نفسها؟!

أدركت يومها في رحلة عودتي أننا حقًّا لا نرى ما هو أمام أعيننا، بل نحن دومًا نرى ما هو داخلنا، وأن أعيننا لا تبصر.. لكنها تترجم ما يدور في خلجات أرواحنا، ولكن نحن ننسى!

كانت بداخلي ثورة ورغبة كبيرة في الاقتصاص من خالي.. كنت أفكر كيف أنتقم منه وأذيقه طعم الظلم.. كنت أتمنى لو يعلم كيف تحولت الحقول الخضراء في عيني إلى حرائق ودخان أسود كثيف..

نسيت الصيدلية.. بل في لحظة شعرت أنها أتفه من أن أفكر فيها.. الأمر الجلل هو أن يظن خالي أن مدحت عبد الرحمن أو ابنته يقفان ببابه لطلب المساعدة أو ليتسولا الهدايا..

الأمر الجلل حقًّا كما أراه اليوم.. هو أننا ننسى أن للسماء عيونًا وآذانًا، وشريعة تقتص من الظلمة..ونحن بسذاجتنا نعتقد أننا وحدنا من يجب أن يطيح برؤوس من ظلمونا، جاهلين أننا عند لحظة الانتقام قد ننتشي..لكن الندم يطيح برؤوسنا بعدها..

لو عدت وعادت بي الأيام لرأيت حقول الطريق في عودتي.. لضممت علبة الحلوى التي رفضت أن أتركها لخالي، وعدت بها إلى والدي في سعادة.. وقبلت رأسه معتذرة عن ذهابي دون علمه، وعن جهلي بحكمة قراره، وجلست معه نحتسي كوبين من القهوة، تاركين الأمر لمن بيده الأمر كله.. لكن أبدًا الأيام لا تعود.. العمر وحده ثمن الحكمة والبصيرة..

عدت في ذاك اليوم لأقف أمام مرآتي في ذهول، وأنا أرى خطوطًا جديدة ترتسم في عيني.. خطوطًا نسجت بها قرارين.. مدحت عبد الرحمن لن يعلم بزيارة الصباح، وأنا لن أنسى ما صنعه خالي، إن كنت لن أنتقم منه إكرامًا لروح أمي، فلن أدع يومًا أحدًا آخر يسلبني حقًّا من حقوقي، دون أن أسلبه أنا أيضًا ما يتحطم له قلبه وتئن له روحه..

عند جلوسنا أمام شاشة التليفزيون ككل ليلة، كنت أعلم أن والدي كان يرقبني من آن لآخر، كأنه يرى الخطوط التي رسمتها رحلة الصباح.. عندما طال الانتظار قال في حنان:

- هل عدت بجيب خاو يا شهيرة، أم أن ما تخبئينه لا يسعد؟!

كيف رفعت وجهي في وجهه ونظرت في عينيه.. أنا حقًّا لا أذكر.. ما أذكره جيدًا أنني شعرت أنه رأى في عيني كل شيء.. رأى الحقول في طريق ذهابي ورآها في طريق عودتي.. رأى دمعات «سيدة»، وانتفض مثلي وهو يسمع تصدّق خالي عليه وعلى وحيدته بما أسماه معونة أو هدية..

تمامًا كيوم موت راوية لا هو سأل ولا أنا أجبت!!

في لحظة، نهضت من مقعدي البعيد وذهبت إلى جواره على أريكتنا، التي اعتاد الجلوس عليها إلى جوار راوية، ألقيت برأسي على صدره، وبكيت بكاء حارًّا مريرًا، أقص عليه كل ما كان وحدث..

صرخت :

- هم مزورون ويجب أن نضعهم في السجن لينالوا عقابهم..

ضمني ذاك الرجل الحاني، وقال في عتاب:

- لماذا نصر على السير في الدروب المسدودة؟! لماذا لا نصدق أبدًا مِّن عادوا منها وأخبرونا أنها مسدودة؟! يا ابنتي لو كان في طريق خالك رجاء أما كان من الأولى أن أذهب أنا إليه منذ أعوام، وفي حياة عينها رحمها الله؟ من نسجن يا شهيرة؟ نضع خالك في السجن؟! نشهر بشقيق راوية.. شقيقها الذي اقتسم معها بطنًا وصدرًا وبيتًا وعمرًا؟!

قلت من بين دمعاتي:

- هو حق لنا..

أرخى مدحت عينيه الرماديتين الحانيتين قائلًا:

- الحق لدى الحق.. شهيرة.. هذا اليوم لم يكن.. انسه يا ابنتي.. انسه تمامًا.. هناك أيام في عمرنا يجب أن ننساها لنستطيع أن نحيا بعدها.. حتى لا تصبح حياتنا بعدها هي الموت..

أنا اليوم أتذكر كلمات والدي.. كلمات نسيتها يوم كان يجب أن أذكرها..

بكيت على صدره وهدأت.. كان قراري ألا أخبره .. كبيرة هي قرارات صبانا.. ودومًا تنتهي كفقاعات صغيرة تنفجر وتتلاشى، قبل حتى أن تلمسها أصابعنا!!

* * * * *

كانت الشهور تركض واختبارات التخرج تلوِّح بكفوفها الثقيلة.. لكني بقيت شهيرة عبد الرحمن.. أصبحت رأسي ملقاة بين صفحات الكتب وأوراق الملازم والمذكرات، ورغم هذا أيضًا بقيت أنثى.. بقيت زوجة أبي وأمه التي تستيقظ كل صباح؛ لتطمئن على إفطاره، وتعد غداءه وتسامره وترقبه في تشكك الزوجات وفضولهن.

علمت أنه يعد لبيع قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها.. الأرض التي كنت أعلم أنها وليده الثاني، الذي يقضي بين ذراعيه إجازاته السنوية.

علمت أنه يريد شراء حلمي بدم حلمه.. يوم تأكدت مما كان والدي يعد له.. أغلقت كتبي وجلست على مكتبي أحدق في فراغ الغرفة في ألم وخوف.

ما الصواب؟! أن يشتري أو ألا يبيع.. أن يرى صيدلية شهيرة عبد الرحمن ويفتتحها معي، ويقضي فيها وقته بعد خروجه القريب على المعاش وبلوغه سن التقاعد، وأن يشعر أنه حقق الحلم وأن عثمان عبد التواب أبدًا لم يذله.. أم أن الصواب أن نحتفظ بقطعة الأرض التي هي ماضيه وطفولته ورفات صباه؟!

ما الصواب؟! أن نبيع الماضي لنشتري الغد، أم أن نترك الغد ليد القدر ونحتفظ بالماضي الذي نملكه؟!

ساعات طويلة قضيتها أفكر وأتخيل سعادته بتحقيق الحلم.. وساعات أخرى قضيتها وأنا أتخيل انكساره وحزنه لحظة ينحني ليوقع عقد بيع الأرض والتاريخ..

أيهما أفضل؟ أن نشتري السعادة أم ألا نتألم؟!

كان الاختيار صعبًا فكلاهما مخلوط بدم الآخر..

إن كانت السعادة في الصيدلية، فالألم في بيع الأرض هو الثمن.. السعادة لا تولد إلا من رحم الألم!!

* * * * *

كان اليوم الأخير في اختبارات العام الأخير يومًا له عبق، مازلت أستطيع استعادته ببساطة.. كان يومًا جميلًا.. كنت فيه سعيدة، وقبل خروجي من باب الكلية استوقفني الدكتور إبراهيم الصاوي أحد أكبر وأشهر أساتذتنا ينظر إلى وجهي في سعادة صائحًا:

- ستعودين إلينا.. سأعتمد قرار تعيينك معيدة في القسم يا شهيرة.. أليس كذلك؟!

ابتسمت في صفاء.. كلمات الدكتور الصاوي في حد ذاتها شهادة تخرج وبدرجة امتياز.. الصاوي لا يعلن إعجابه بأحد من الطلبة إلا إن كان نابغة.. في خجل وسعادة قلت:

- أنا التي يشرفها أن تعود لأزداد من علمك..

مازلت أذكر كيف وضع كفه على كتفي في قوة قائلًا:

- اذهبي واستمتعي بالإجازة.. الصاوي لن يتركك.. وحده سيشرف على عملك، حتى تنالي الدكتوراه وتصبحي زميلة لا تلميذة..

انطلقت إلى المنزل لأخبر والدي بأن آخر امتحاناتي كأولها.. جميعها مطمئن، وأن وحيدته فعلت ما وعدت، وقريبًا ستصبح معيدة في صيدلة عين شمس.. كنت أعلم أن والدي في ذاك الوقت مشغول بأمرين لا ثالث لهما: إنهاء إجراءات خروجه على المعاش وبلوغه سن التقاعد، والأمر الأكبر هو الصيدلية وبيع الأرض الصغيرة، التي خرج منها، وإليها يتمنى أن يعود، وفيها أوصى بدفنه يوم يموت..

كنت في تلك الأيام أتمنى لو أخبره أن حلم الصيدلية بإمكانه الانتظار حتى انتهائي من الحصول على درجة الماجستير والدكتوراه.. لكني كنت أعلم أنه لن يقبل التنازل عن ذاك الحلم.. حلم الصيدلية.. ليس من أجلي وحدي.. هو حلم قديم له هو وأمي..

كان والدي دومًا يردد أن الأقدار وحدها هي التي شاءت أن يتأخر في الإنجاب حتى أخرج أنا إلى الدنيا في موعد رسمته الأقدار، تمهيدًا لتخرجي في العام الذي يبلغ فيه سن التقاعد..

كان دومًا يقول إن القدر يريد له ولي أن نبدأ حياة عملية جديدة معًا.. أنا وهو.. هو بعد خروجه من سلك التعليم، وأنا بعد تخرجي منه.

كنت حقًّا أشعر أنه على حق.. هذا الرجل الذي اعتاد أن يدير مدرسة ومعلمين وطلبة.. ليس كثيرًا أبدًا عليه بعد كل التفاني والوفاء أن يخرج إلى صيدلية صغيرة، يديرها هو وابنته ما بقي له من العمر، ولكن يبقى السؤال.. كيف نفعلها؟!

مدحت عبد الرحمن دومًا على حق.. ما ترسمه الأقدار وحدها تقوله..

إن كانت الأقدار هي التي شاءت أن يكون عام تخرجي هو ذاته عام خروجه على التقاعد، فهي أيضًا تكفلت بإتمام الدائرة ونسج خيوطها..

بعد أسابيع من تقاعده، وقبل إعلان تخرجي والتحاقي بالعمل في الجامعة.. جاء ذاك اليوم، الذي عاد فيه والدي في الثامنة مساء إلى المنزل، وعلى وجهه ابتسامة أنارت كل ما أظلمته أعوام الألم وفراق راوية..

دخل يومها وهو يحمل في يده علبة من الحلويات الشرقية، التي أحبها، وهو يصيح أننا سنحتفل احتفالًا كبيرًا، بعد أن ينتهي من صلاته..

حاولت كثيرًا أن أستوضحه الأمر.. لكنه ضمني إلى صدره في حنان وقبلني أكثر من عشر قبلات على وجهي، ثم تركني مختفيًا داخل غرفته وهو يصيح:

- أعدي لنا الصحون وكوبين من الشاي «الإيرل جراي»، وحاولي أن تخمني حتى أعلم إن كنت حقًّا ستُقبلين في الجامعة، أم سيرفضونك لانخفاض مستوى ذكائك!!

أعددت الصحون وكوبي «الإيرل جراي»، وأخذت ألتقط بعضًا من قطع البقلاوة التي أحضرها، وأنا أحاول حقًّا أن أستخدم ذكائي.. هل باع الأرض؟! لكن وإن باعها بثمن كبير لن يكون أبدًا بهذه السعادة التي أراها.. هل وجد صيدلية؟! وإن فعل.. ما كان أيضًا ليكون سعيدًا مادمنا لا نملك ما يغطي ثمن المكان والتجهيزات.. لماذا هو سعيد إلى هذا الحد؟!

ظهر مدحت عبد الرحمن والتقط كوب الشاي ليرتشف منه رشفة قائلًا في مرح:

- أين نصيبي في بقلاوة الفستق؟!

مددت يدي نحوه بصحن صغير عليه قطع البقلاوة، قائلة في هدوء:

- يبدو أنهم لن يقبلوا بي كمعيدة في كلية الصيدلة.. أعترف أني لا أخمن!! يبدو أن ذكائي حقًّا دون المستوى..

ذاك الحبيب نظر في وجهي قائلًا:

- إن خانك الذكاء، فلن تخذلك رحمة الله.. شهيرة سنشتري الصيدلية..

نظرت إلى وجهه في ألم ليكمل بسرعة:

- لن نبيع الأرض.. سنشتري دون أن نبيع!! ألم أقل لك رحمة الله لا تخذل الصابرين!!

* * * * *

كان والدي سعيدًا لأنه لن يبيع أرضه، وفي الوقت نفسه سيشتري حلمه ويحققه.. ترى لو كان يعلم أن الصيدلية هي التي وضعتني على أول الطريق الذي أجلس الآن في منتهاه بهذا الخزي والألم عاجزةً، حتى عن طلب رحمة الله، هل كان سيسعد ويتمسك بها إلى ذاك الحد؟!

مازلت أرى عينيه تضحكان، وهو يحكي ويسألني إن كنت أذكر السيدة توحيدة جارتنا التي تسكن في أحد الشوارع الخلفية لمنزلنا، حيث ابتسمت أنا عندها.. نعم أذكر توحيدة عبد القادر.. صديقة أمي التي كانت تحرص على زيارتها من آن إلى آخر.. توحيدة التي لها ابن واحد، مات أبوه، وهو في السادسة من العمر ونذرت هي عمرها لتربيته، هو وأخته الوحيدة شاهيناز. نظرت إلى والدي، أسأله ما علاقة توحيدة عبد القادر، التي كانت بالكاد تنفق على تربية أبنائها ، بتحقيق حلم الصيدلية، دون بيع أو شراء..

أخبرني يومها أن زياد الأشقر وحيدها، تخرج هو الآخر من كلية الصيدلة منذ عامين، وأنه سيعمل معنا في الصيدلية التي سنفتتحها قريبًا.. نظر في عيني، وهو مازال يبتسم قائلًا:

- السيدة أحسنت تربية أبنائها.. زياد أصبح صيدليًّا وشاهيناز معلمة على خلق في مدرستي.. توحيدة هانم كادت تطير من السعادة، عندما أخبرتها أن زياد سيصبح الضلع الثالث، معك ومعي في الصيدلية يا شهيرة.. عانت كثيرًا، كانت دومًا توصي أمك أن تعتني بهما إن هي رحلت.. تعرفين قصتها مع مرض الصرع منذ أعوام.. شاهيناز أيضًا منذ التحقت بالعمل في مدرستي، وهي تتمنى لو يجد زياد عملًا في صيدلية تحسن تقديره..

اقتربت من والدي يومها، وأمسكت بيده قائلة:

- أيها المتقاعد المتذاكي.. أذكر توحيدة وأعلم تفانيها في تربية أبنائها.. ولا أمانع أن يعمل زياد معنا، وأعلم أيضًا أنك من سعى لإلحاق شاهيناز للعمل معك في الطبري، ولكن الصيدلية.. من أين نأتي بها؟ وكيف نحتفظ بالأرض؟!

أجاب في هدوء:

شاهيناز هي ومعلمو المدرسة أقاموا حفلًا لتكريمي بعد خروجي إلى المعاش، في الحفل جلست إلى جواري، تسألني عما أفعله.. عندما أخبرتها أنارت لي طريق الحل.. قالت لي إن أحد تلامذتي أصبح رئيس قسم الائتمان ببنك HSBC، وأنها التقته منذ أيام في إحدى المناسبات.. أخبرتني أنه مازال يذكرني بالخير.. يقسم بحياتي، وأني مازلت قدوته.. شاهيناز يا شهيرة شجعتني على الذهاب إليه.. وذهبت..

مضى يكمل ويحكي كيف ذهب إلى مدير الائتمان بالبنك وكيف خرج يستقبله بنفسه، وكيف رفض حتى أن يجلس خلف مكتبه في وجود والدي.. أخبرني كيف قص عليه والدي القصة، وكيف سهل له إجراءات قرض يأخذه والدي بضمان قطعة الأرض، التي يملكها، وكيف تعهد له أن يستلم القرض بشروط ميسرة في أقل من شهر، وكيف أصبح كل شيء في لحظة ميسرًا.. نستلم القرض ونتوجه لتوقيع عقد إيجار الصيدلية، التي أخبره عنها زياد..

رفعت حاجبيّ في دهشة.. كان يتحرك وأنا لا أعلم.. التقى زياد.. وزياد بحث عن صيدلية، ووجد له مكانًا معروضًا للإيجار ، وذهب والدي إلى البنك والتقى تلميذه والأوراق في مرحلة الاستعلام.. وفي خلال شهر سنحصل على القرض ونحرر عقد الإيجار، وزياد سيعمل معنا في الصيدلية.. كل هذا وأنا لا أعلم.. وفي النهاية يحمل إليّ صحنًا من الحلويات الشرقية الفاخرة ويجلس أمامي ليحكي القصة..

- أين كنت أنا؟!

ابتسم قائلًا:

- كنت في الجامعة تؤدين اختباراتك..

وعدت أسأله:

- بهذه البساطة ؟!

وعاد يقول:

- نعم.. بهذه البساطة.. ألن تسألي أين تقع الصيدلية؟!

قبل أن أسأله، التقط آخر قطعة بقلاوة، ووضعها في فمي قائلًا:

- في شارع نخلة المطيعي، وغدًا نذهب أنا وأنت وزياد لرؤيتها.. إن أعجبتنا، ذهبنا إلى مالك العقار، وطلبنا منه أن يمهلنا شهرًا حتى انتهاء إجراءات القرض..

ابتلعت قطعة البقلاوة المسكرة، وقلت ضاحكة:

- وقد نجد مالك العقار تلميذًا لك هو الآخر، وربما صديقًا لزياد أو أخته ويسلمنا الصيدلية قبل استلام القرض.. أنا لا أصدق..

هو كان يصدق.. كان يثق أن ما تسعى الأقدار لإتمامه لا يقف في طريقه شيء..

وكان.. ذهبنا إلى رؤية الصيدلية، وذهب معنا زياد الأشقر، ووقفت أصافحه وأنا أرقب ابتسامته الهادئة ووجهه الوسيم.. هو الآخر كان سعيدًا هانئًا بوجوده مع والدي.. وحدي كنت أتحرك في ذهول.. المكان كان جميلًا كبيرًا تقارب مساحته400م، ورغم أن المبلغ المطلوب كان كبيرًا، إلا أنه كان أيضًا معقولًا في حالة إتمام قصة القرض.. كان زياد يتحرك في المكان بخفة، ويقترح مكان كل شيء، وعندما رآني أرقبه بدهشة أخبرني في استحياء أنه حضر إلى هذا المكان مرات كثيرة، وهو يحلم أن يقيم فيه صيدلية.. ورغم يقينه باستحالة الحلم، إلا أنه بقي يرسم كل ركن فيها، وقف يشير بيده موضحًا أرفف الدواء وركن الأجهزة وركن مستلزمات الأطفال وركن أدوات التجميل النسائية مرددًا أسماء لشركات، يعرفها من خلال عمله في صيدليات كثيرة منذ تخرجه.. شركات تقوم بتوريد أدوية، دون قبض ثمنها، وشركات تمدنا بعربات الأطفال ومقاعد السيارات، وأخرى تمدنا بالعطور وأدوات التجميل. بل مازلت أذكر أنه قال إن بإمكانه أن يعرض عطور إحدى الشركات العالمية؛ لنكون وحدنا من نفعل، حيث يعرف وكيلها في مصر، وقد تعهد له بألا يسمح بعرضها في صيدلية أخرى لمدة عام..

زياد الأشقر كان حلمه هو الآخر أن يحقق حلم الصيدلية، وشعرت أنني حقًّا أتمنى لو تسير الأمور كما يراها والدي ويراها زياد.. الأحلام عندما تكون كبيرة صادقة، تتمنى أن تحققها حتى إن لم تكن طرفًا فيها.. فكيف إذًا بهذا الحلم، وهو حلمي وحلم أمي وأبي وحلم زياد وحلم أمه أيضًا؟

هل كان حلمًا أم كان كابوسًا؟! لا أدري..

تلك الصيدلية لو لم تكن ما عرفت زياد، ولا التقيت رؤوف، ولا التقيتُكِ أنتِ أيضًا يومًا، ولا جلست اليوم أنزف لك حروفًا على السطور..

لو لم تكن تلك الصيدلية ما كانت قصتي، وما كانت بدايتها ولا نهايتي، التي لا أعرفها ولا أجد شيئًا غير الموت أفضل منه لها خاتمة!!

* * * * *

حصل والدي على القرض.. وأنا تخرجت، تم اعتماد تعييني معيدة في قسم الدكتور إبراهيم الصاوي، وأيضًا حررنا عقد إيجار الصيدلية لمدة خمسة أعوام تجدد تلقائيًا.. أصبحنا أنا وزياد ووالدي نتحرك في نشاط كبير..

ديكورات الصيدلية وتجهيزاتها وأيضًا دروس تعلم قيادة السيارات؛ حيث أخبرني والدي أنه سيمنحني سيارته الصغيرة، ويشتري هو بجزء من القرض سيارة أحد أصدقائه.. أخبرني أنه أبدًا لن يرضى أن تذهب الدكتورة شهيرة عبد الرحمن إلى الجامعة أو تحضر إلى الصيدلية، إلا وهي تقود سيارتها الخاصة..

كل شيء كان رائعًا يسير كما لم نحلم به يومًا.. الحالمون الثلاثة.. أحلامهم تتحقق كأن يد القدر كانت معنا، تفتح لنا الأبواب وتحرر الأوراق التي ننثني أنا ووالدي لنوقعها في سعادة كبرى..

توحيدة والدة زياد دعتنا إلى العشاء، ورأيت شاهيناز هي وزوجها، وسمعت توحيدة تحكي عن أمي وتترحم عليها في ألم كبير، كأنها لا تصدق أن أمي التي كانت توصيها بأبنائها ماتت، وهي مريضة الصرع مازالت تحيا، ونحن - أنا ووالدي - نجلس معها في بيتها نتناول طعام العشاء..

والدة زياد أمسكت بيدي عندما كان هو مشغولًا بالحديث مع والدي وأخبرتني أن قدري وقدر عائلتي أن نمد لهم دومًا يد المساعدة.. تلك المسكينة قالت إن والدتي كانت دومًا تساندها، وتعرض عليها كل ما تستطيع..

سألت توحيدة كيف لم أرها يومًا في بيتنا، وكيف لا أعرف شاهيناز أو زياد أو ألتقيهما من قبل؟!

والدة زياد الأشقر قالت إن شاهيناز تكبرني بخمسة أعوام، وزياد يكبرني بعامين وهي نادرًا ما تخرج وحدها؛ خشية أن تفاجئها نوبة صرع، وأنها عاشت العمر هنا بين جدران هذا البيت، تدعو الله أن يتخرج ابنها لتتمكن شاهيناز من الزواج، ويتزوج هو لتجد من يرعاها ويبقى معها في البيت..

أحببت السيدة وأحببت أبناءها، تذكرت أمي، وكيف كانت حقًّا لها في كل بيت قلب يحبها وآخر يدعو لها..

صاح زياد يناديني وصاحت شاهيناز هي الأخرى تتحدث وتسأل عن موعد افتتاح الصيدلية، وتبادل الحالمون الثلاثة نظرة قلنا بعدها إن الموعد اقترب جدًّا..

الحالمون الثلاثة أبي وزياد وأنا!!

* * * * *

كان صباحًا رائعًا ذاك الصباح الذي افتتحنا فيه الصيدلية، بدت في عيني يومها أكثر أناقة من كل صيدليات مصر.

لافتتها البيضاء المحفور عليها اسمي واسم والدي كانت، في عيني، أكثر بهاء من لوحات اللوفر الباريسي، والذي حلمت دومًا بدخوله والتجوال فيه.

في السادسة مساء كان والدي يجلس على أحد المقاعد القليلة يقرأ في كتاب الله الكريم قبل حضور القليلين الذين دعوناهم، وكنت أنا أرقبه في حنان، وفي سكون تام كانت صور طفولتي تمر أمام عيني.

على كل قنينة دواء تقف عليها عيني، كنت أرى طيف ابتسامة راوية أمي رحمها الله.. كنت أبتسم لها ابتسامة صغيرة، كأني أعدها أن أعمل في الصيدلية، وفي الجامعة بكل ما استطعت من قوة وإصرار لأسدد قرض البنك ولأحقق حلمها وحلم هذا الرجل، الذي يقرأ الآيات القرآنية في خشوع ورجاء.

مازلت أذكر جيدًا كيف دخل الدكتور زياد في السادسة والنصف ليكون معنا، وفي عينيه ذاك الامتنان الكبير لثقة والدي فيه، ووقفنا نحن الثلاثة نستقبل من دعوناهم وباقات زهرهم التي اصطفت في أناقة على جنبات الصيدلية.. ترى هل خطر برأس والدي أو رأس زياد أو رأسي أنا ما تخبئه لنا الأيام؟! أبدًا!! كان كل رأس منا مشغولًا بأحلامه، وبما يمكن أن يقدمه هو ليحقق الأحلام.. كانت الصور بيضاء حالمة نقية لكن في رأسي كانت هناك صورة واحدة قاتمة، تطل كل حين وآخر.. صورة لرجل كريه صفع أحلامي وسخر من نقائها وبساطتها..

في ذلك اليوم كانت صورة خالي عثمان تلوح أمام عيني كثيرًا.. كنت أتمنى لو أجد طريقة أخبره بها أن حلمنا تحقق، وأنه ما كسرنا، وأنني سأبقى العمر أبحث عن طريقة أكسره بها كيوم كسرني في بيته، وأنا أحمل الحلوى إليه.

في نهاية اليوم وبعد انقضاء الليلة، ودعنا زياد بعد أن أعاد والدي عليه خطة توزيع العمل بيننا.. هو وزياد صباحًا في الصيدلية، وأنا في الجامعة إن كانت عندي محاضرات.. وأنا ووالدي أو أنا وزياد في المساء مع عامل الصيدلية، وافترقنا بعد أن أغلقنا الصيدلية في طريقنا إلى شارع محمد فريد، وأنا أجلس إلى جوار والدي في سيارته الصغيرة.. ضغط على كفي ليعيدني من صور رأسي، التي كانت ترقص بين طهارة أمي وخبث خالي لأسمعه يقول في حنان:

- بقي أن أزورك في بيتك أو يزور صيدليتنا زوج شهيرة عبد الرحمن.

ابتسمت ابتسامة صغيرة لا معنى لها، كأنني لم أفهم ما يعنيه إلا أنه عاد يقول في صفاء:

- شهيرة.. أما آن الأوان؟!

لكل شيء حقًّا أوان.. حمقى نحن إن ظننا أننا نختار أو نكتب بأصابعنا التواريخ والأحداث.. نحن فقط نحلم ونعمل وننتظر..

كان عام الصيدلية الأول رائعًا.. مدحت عبد الرحمن تألق كتألقه في مدرسة الطبري.. يتابع شركات ومصانع الأدوية، ويتابع حسابات الصيدلية.. زياد كان يتحرك بحماس كأنه شريك فيها، وكانت كل اختياراته لقسم «الكوزمتك» الصغير اختيارات ناجحة، حتى أنني كنت كثيرًا ما أضحك وأنا أخبره أنه لابد وأن يكون «زئر نساء» كبيرًا ليعلم ما تحبه الفتيات وما تفضله النساء من أدوات التجميل والعطور.

عدد زائرات الصيدلية من الفتيات أصبح حقًّا كبيرًا، وغالبًا ما يقتصر على فترة تواجده هو بالصيدلية، ورغم وسامة زياد ورقته مع الفتيات والنساء إلا أن والدي أو أنا لم نشعر يومًا أنه يخرج في تعامله معهن عن حدود الأدب أو الاحترام.

هو فقط يُشعر كل امرأة تشتري عطرًا أو مستحضر تجميل أنه يريدها أن تشعر أن قروشها أحدثت تغييرًا، تحبه في مظهرها وأنوثتها.

كان الأشقر دومًا على وجهه الأسمر الهادئ ابتسامة صابرة هادئة، تطول حتى الساعة مع كل امرأة منهن، وكان أيضًا جادًّا في تعامله مع كل حالة تدخل بحثًا عن دواء، أو تطلب معونة في تشخيص ألم ما، أو البحث عن مسكن ما..

في عام واحد، أصبحت الصيدلية من أكبر وأشهر صيدليات مصر الجديدة، وبدأنا جميعًا نشعر بالطمأنينة، ونحن ندفع أقساطًا إضافية لقرض البنك حتى قبل حلول أجلها.

في الجامعة كنت أعمل أيضًا في صبر ونجاح، كسبت ثقة كل أساتذة القسم، وشعرت في أحيان كثيرة أنني لو لم أكن أنثى لكنت مدحت آخر في تعامله وتقييمه وقراراته مع كل طلبة صيدلة عين شمس.

بعد العام الأول لافتتاح الصيدلية، كنت قد بلغت من العمر الرابعة والعشرين من العمر، وكنت حتى ذاك الوقت بلا رجل.. بلا حب وبلا حتى أحلام نسائية واضحة..

يوم سألني والدي عن زياد الأشقر، وإن كنت حقًّا أقبله كزوج شهقت في دهشة كبرى.. لم أشهق من سؤال والدي، أو إن كان هو صاحب الفكرة، أو أن زياد قد ألمح له بشيء ما.. لكنني شهقت تلك الشهقة الكبرى لأنني حتى ذاك الوقت وذاك العمر والشباب لم أشعر أبدًا أنني أنثى، وأن كل أنثى لابد لها يومًا من رجل.. ولكن ألم أقل إن لكل شيء أوانًا، ونحن أبدًا لا نختار التواريخ ولا نضعها إلى جوار الأحداث الكبيرة في أيام حياتنا..

ضحكت بعد شهقتي تلك، وضممت والدي إلى ذراعي أخبره أن زياد شريك عمل وأخ وصديق، وأننا إن فكرنا في شيء آخر قد نخسر كل الأشياء التي بنيناها، وكل النجاحات التي وصلنا إليها..

ترى لماذا تأكل الدهشة كل الرجال والنساء إن وجدوا فتاة جميلة ناجحة، لا تحيا قصة حب، أو يسكن أصبعها محبس زواج أو خطوبة؟!

لا أعلم!! هي عادة عربية لا أفهمها.. بين الشهور والشهور، كانت هناك دومًا وجوه في الجامعة، تلمح عن رغبة في زواج أو أصوات تدق هاتف والدي أو هاتف منزلنا؛ لتعلن عن رغبة في زيارة لخطبة أو تعارف.. أغلقت ذاك الباب تمامًا.. أغلقته كأنني كنت أشعر أن الحب والزواج كالميلاد والموت لا أحد أبدًا يملك أن يكتب تاريخ اللحظة، التي يطرقان فيها الأبواب ليغيرا مع حضورهما ما سبق، وما سيأتي من شكل حياتنا وأيامنا!!

في العام الثالث من عمر الصيدلية وقبل مناقشة رسالة الماجستير كانت كل الصور قد هدأت في رأس ثلاثتنا، واشترى كل منا أنا وزياد ومن نصيبنا في دخل الصيدلية سيارة بالتقسيط.. حتى تلميحات مدحت عبد الرحمن بأهمية زياد وأخلاق زياد واهتمامه بي كامرأة أصبحت أكثر وضوحًا، وتوالى ظهورها حتى أنني بدأت أرقب وجه زياد وعينيه، وأتسلل بأذني إلى جميع مكالماته الهاتفية، التي يجريها من هاتفه عند وجودنا في الصيدلية معًا..

كنت أبحث عن رائحة قصة حب أو حتى علاقة شاب في وسامته ونجاحه بأي فتاة؛ لأثبت بها لوالدي خطأ تكهناته عن حب زياد لي.. لكنني لم أجد أبدًا.. لا علاقة حب في حياته وأيضًا لا نظرة في عينيه أو كلمة عابرة يلقيها في أذني، تقول إنه حقًّا يحبني أو يحلم بالزواج مني.. لكن يوم تحدد تاريخ مناقشة رسالة الماجستير، علمت وللمرة التي لا أذكر عددها أن سنوات العمر وخطوط التجاعيد التي كانت على وجه والدي ما ارتسموا هباء، بل هي جميعًا أخاديد حكمة وخنادق فراسة لا يستهان بهما.

في ذاك اليوم الذي حصلت فيه على درجة الماجستير من كلية الصيدلة جامعة عين شمس، وبعد ساعات المناقشة الطويلة، وبعد أن صفق الحاضرون وهنأوا وقبّلوا وودعوا علمت أن مدحت عبد الرحمن كان على حق، وأن زياد الأشقر يهواني بحق!!

حين انفض الجميع، وذهب كل إلى طريق، وفي طريقي إلى سيارة والدي التي حضرنا بها إلى الجامعة.. طلب مني زياد أن أقبل دعوته على العشاء، وقبل أن أفكر أو أجيب، ضحك والدي وهو يقول:

- زياد.. أنت تعلم كيف تتمم الأمور في الصيدلية وفي الحياة.. هذه الليلة وهذه الفرحة لن يتممها سوى دعوة هذه الجميلة إلى العشاء!

ابتسمت أنا في صفاء وأخبرتهما في مرح أنني أنا التي ستدعوهما إلى أي مكان يشاءان، وأن هذه الدعوة هي أقل ما أقدمه لهما، عرفانًا بوقوفهما إلى جواري، حتى حصولي على الماجستير، وأنني أغريهما بدعوتي لتحملي وتحمل تقصيري الآتي عندما أبدأ في الإعداد للدكتوراه.

اعتذر والدي وقال إنه متعب ولا يحلم بشيء سوى فراشه، ورفعت وجهي إلى وجه زياد الذي كان يمسك بباب السيارة بين أصابعه لأرى - وللمرة الأولى وفي إضاءة موقف السيارات الخافتة - بريق عينيه الحاد يلمع بشيء نعرفه ونشعر به، حتى إن لم يسكن قلوبنا أو يتجول بين أضلعنا من قبل..

مازلت أرى عيني زياد، وهي تنظر في عيني كأنها ترجوني أن أقبل الدعوة، وأذهب إلى تناول العشاء معه.

كان رجاء عينيه مخلوطًا بشيء له صوت، يصيح في فرحة وفي حنان لم أرهما يومًا من قبل، وتلعثمت فجأة وأنا أبتعد بعيني عن وجهه، دخل والدي إلى سيارته، وهو يقول كأنه يساعد زياد على أمر، رآه هو الآخر وعاش هذه الأعوام يتمناه:

- لا تؤخرها.. الأستاذة لديها عمل في الصباح، وأنت أيضًا يا زياد.. لا إجازات!!

أغلق زياد الباب في هدوء لينطلق والدي بعيدًا، واقترب مني ليقول:

- هل قبلت الدعوة؟!

آه يا زياد.. ماذا فعلت أنا بك؟ وماذا فعلت بك وبي الأيام؟!

كنا نجلس على مقاعد أحد مطاعم فندق «السلام»، عندما انطلق يتحدث في نقاء عن سعادته بحصولي على الماجستير، وعن سعادته الكبرى بأنه أصبح يشعر حقًّا أن والدي هو والده.. كان يتحدث في انطلاق وهدوء عن كل ما ينقصنا، وما يخطط لإحضاره إلى الصيدلية في الشهور القادمة.. كان يتحدث عن عشرات الحالات، التي نصرف لها الدواء ونرسله إلى منازلها بالمجان، وأنها بعد أن كانت تخصم من حسابي وحساب والدي فقط أصبح حسابها يقسم على ثلاثة، رغم أن حصة زياد من الصيدلية تحسب فقط من قسم التجميل والمستحضرات النسائية.. كنت أرقبه في فرح وحنان كأنني أخته الكبرى، رغم أنني أصغره بعامين.. لكن منذ وفاة أمي، وأنا أشعر أنني دومًا أم لكل الرجال، وكيف لا أكون، وأنا الشابة الوحيدة على هذه الأرض التي أصبحت أمًّا لأبيها؟!

سمعت زياد يقول في عفوية:

- شهيرة.. لن أهدأ حتى تحصلي على الدكتوراه، وحتى نسدد قرض البنك، ونفتح فروعًا أخرى لصيدلية شهيرة عبد الرحمن!!

نظرت إليه في ذهول، وأنا أشعر أن دمعة ترقرقت في عيني لأقول في صوت مبحوح:

- زياد.. أين أحلامك لنفسك؟

بلا تفكير، رفع زياد عينيه الواسعتين ليقول:

- أنت أغلى منها عندي!

صدقت زياد عندما قالها وسمعها زياد عندما باح لي بها، وسكتنا كلانا في ذهول.. كأنه ذهل لأنه قالها، وكأنني ذهلت وأنا أسمعها، بعد لحظات طويلة من الصمت وعيناي ملقيتان على الصحن الموجود أمامي، رفعت رأسي لأنظر إليه، وأجده يرقبني في وجل وأسف ورجاء لا حدود لها، وعدت أرخي عيني إلى صحني من جديد، ثم مددت أصابعي أمسك بالشوكة وأعبث في محتوياته..

مدحت عبد الرحمن على حق دومًا.. زياد يحبني.. يعمل من أجلي، ويحلم من أجلي، رأيت كفه تقترب من كفي الأخرى، وتسقط عليها في حنان.. كانت كفه باردة.. لكن صوته كان دافئًا حانيا، وهو يقول:

- آسف يا شهيرة!

بلا خجل.. بلا حرج.. وهل تخجل الأمهات من أطفالهن؟! رفعت رأسي ونظرت إلى عينيه اللتين اشتعلتا برجاء كبير قائلة:

- زياد.. أنت تحبني؟!

أرخى عينيه كأنهما سقطتا رغمًا عنه بين جفنيهما، وأطلق آهة صغيرة من صدره وقال:

- أما كنت حقًّا تعلمين؟!

بصوت الأم الحاني التي تشرح لصغيرها، تحذره من الوقوع في خطأ التهام قطعة حلوى، تراها غير ملائمة له.. مضيت في ذاك الوقت أتحدث وأشرح كيف أنني حقًّا أراه مثل مدحت.. أراهما أبنائي وأصدقائي.. وبصدق كبير أخبرته أنني حتى لا أشعر أنني أنثى.. فتحت له قلبي، أخبره أنني أضحك كثيرًا من كل امرأة تشتري إصبع أحمر شفاه، أو تشعل النار في قلب ساعات من وقتها؛ لتختار مستحضر تجميل أو حذاءً له كعب عال..

أخبرت زياد أنني حتى تلك اللحظة، لم أجلس يومًا على مقعد مصفف شعر، وأن شعري المجموع فوق رأسي دومًا لم أسمع يومًا نداء شعرة واحدة منه بأن أطلق سراحها على كتفي، أو على كتفي رجل.. تحدثت كثيرًا وكنت مثله أسمع نفسي في دهشة كبيرة.. نحن أحيانًا نعلم

الحقائق، ونتعامل بها ومعها.. لكن تصيبنا الدهشة إن سمعنا تفاصيلها حروفًا وكلمات حتى إن خرجت هذه الحروف من شفاهنا نحن..

في لحظة، توقفت عن الحديث عن جفاف أنوثتي، وعن أمومتي له ولوالدي..

توقفت عن الحديث عن الدكتوراه وعن النجاح وعن القرض والمشاريع التي يجب أن تمضي في طريقها.. توقفت فجأة، بعد أن طال سماع زياد وسماعي لقصص تصحر عروقي، وصحت في صوت خفيض مجروح، وأنا أنظر في عينيه كأنني أستغيث قائلة:

- هل أنا مريضة؟!

ابتسم هو لحظتها في حنان ليقول:

- أنت أنثى كاملة.. أنت زهرة يا شهيرة، لكن ما آن أوان ربيعها بعد!!

قاد الحديث بعدها في هدوء إلى مشكلة كبرى، كانت تشغل رؤوسنا شهورًا طويلة عن دواء الصرع، الذي تتعاطاه أمه..

عاد زياد يخبرني أنه أجرى الكثير من الاتصالات، ودخل على موقع شركة الأدوية المنتجة للدواء، وأنه حاول الوصول إلى تحديد موعد للقائهم.. لكنه فشل، ثم عاد يرفع رأسه كأنه تذكر شيئًا مهمًّا ليقول:

شهيرة.. الدكتور إبراهيم الصاوي هو أقرب أصدقاء توفيق عبد الجواد رئيس مجلس إدارة الشركة.. اطلبي من الدكتور إبراهيم أن يحدد لك موعدًا مع توفيق عبد الجواد.

كنت أعلم أهمية الموضوع وأهمية الدواء لكثير من مرضى الصرع وفعالية هذا الدواء في تسكين آلامهم.. لكن بساطة سعره جعلت صيدليات كثيرة تحجبه عن البيع، ووحدها هذه الشركة تقوم بتصنيعه وتوزيعه.

قلت، وأنا أضع قضمة من اللحم في فمي:

- سأحادث الدكتور إبراهيم، ونذهب إلى لقاء توفيق عبد الجواد معًا..

انتهت الليلة وعلى باب بيتنا في شارع محمد فريد، وقفت أشكر زياد على دعوته الرائعة، وحاولت أن أعتذر له عن قصة هواه.. لكنه أمسك بيدي قائلًا في حزم لا أنساه:

- شهيرة.. سننسى كل ما دار بيننا.. كله.. لم أقل لك شيئًا، ولم أسمع منك شيئًا.. ما سيبقى من ليلتنا هذه.. شيئان لا ثالث لهما: سعادتنا بحصولك على الماجستير، وتصميمنا على حل مشكلة دواء الصرع، ولقاء مسئولي الشركة.

عاد ينظر في عيني، وقد غاب عن عينيه ذاك البريق، الذي كان مشتعلًا منذ ساعات، ليقول في حزم أكبر:

- لا شيء آخر دار بيننا.. لا شيء!

* * * * *

كان يوم الأحد الموافق التاسع من يناير.. نعم.. مازلت أذكر التاريخ جيدًا.. وكيف أنساه وهو التاريخ الذي سبق حدث عمري الأكبر بيوم واحد فقط!!

الأحد، التاسع من يناير، يوم إجازة زياد الأسبوعية.. كنت وحدي في الصيدلية عندما رأيته يدخلها كأنه ضابط شرطة يقتحم وكر مخدرات.. كان كل جسده ينتفض.. كان مندفعًا كقذيفة هاون عتيقة، وتركت العميل الذي كنت أتحدث إليه لأخرج من مكاني، وأنا أسأله في لهفة عن سر حضوره وسر انفعاله، صاح كأنه يبكي قائلًا:

- ألم أقل لك.. هناك شيء ما يدور في هذه الشركة.. شهيرة.. وصلتني نتيجة معامل NATACAR المركزية، نحن نمنح المرضى قطع حلوى لا دواء.. قطع حلوى يا شهيرة.. قطع حلوى ملونة لمرضى الصرع!

أمسكت بيد زياد لأبتعد به عن عيون رواد الصيدلية، التي اتجهت جميعها نحوه، وقلت وأنا ألتقط كفه المرتعشة:

- لنخرج من هنا..

خرجت بزياد لأجلس إلى جواره في سيارته؛ حيث انطلق يحكي في غضب عن قصة أقراص دواء «إيتاتول» الذي تستخدمه أمه ومئات المرضى، ممن يعانون من مرض الصرع، وكيف أنه وجد حالتها تتدهور رغم انتظامها في استخدام الدواء، وكيف أن كثيرين من رواد الصيدلية بدأوا يضطرون في الشهور الأخيرة لشراء البديل المستورد «تيجرتول» للدواء، رغم فارق السعر الكبير.. أخبرني زياد أن كثيرًا من مرضى الصرع يخبرونه أن أطباءهم كانوا يطلبون منهم شراء الدواء المستورد في الفترة الأخيرة، بعد أن لاحظ معظمهم تدهور الحالة الصحية لمرضاهم، قال إنه لجأ إلى صديقة له ولي تعمل في معمل تحاليل NATACAR الرئيسية، وأنه عاد لتوه من عندها بنتيجة تحليل الدواء.. المادة الفعالة فيه تقترب من الصفر..

عدت أحاول تهدئة زياد.. لكني كنت أكثر منه حزنا وغضبًا.. الأحرار للأدوية شركة قديمة، واسمها حقًّا من الأسماء اللامعة التي لها تاريخ عريق في صناعة الأدوية.. ما الذي حدث؟! والأهم ما الذي يحدث لمرضى لا ذنب لهم، قد تضيع حياتهم، وهم يظنون أنهم يتداوون.

مددت يدي ألتقط هاتف زياد الصغير من يده، وكان أول شيء فعلته أنني حادثت والدي محادثة قصيرة، شرحت له فيها الأمر باختصار، وبعد أن أغلقت معه الخط.. نظرت إلى زياد قائلة:

- زياد.. من اليوم لن نصرف هذا الدواء لمريض.. سنمنح كل من يدخلون الصيدلية دواء التيجرتول البديل المستورد، وبسعر المنتج المحلي نفسه، أنا وبابا سنتحمل الفارق.

وقاطعني زياد قائلًا:

- أنا معكم يا شهيرة، لكن نحن لسنا صيدليات مصر بأكملها..

عدت ألتقط الهاتف من يدي زياد، وطلبت رقم الدكتور إبراهيم، أستاذي في الكلية، وبعد أن فتح الخط قلت له في هدوء:

- دكتور إبراهيم.. أرجوك أن تحدد لي موعدًا مع صديقك توفيق عبد الجواد رئيس شركة الأحرار للأودية.. غدًا!! دكتور إبراهيم.. أرجوك!!

اتفقنا أنا وزياد على الذهاب معًا في الصباح التالي، في الوقت الذي سيخبرنا به الدكتور إبراهيم.. لكننا كنا حائرين.. نحن لا نملك أوراقًا تثبت نتيجة التحليل الذي قام به زياد لأنه لا جهة من حقها أن تخاطب المعامل المركزية سوى وزارة الصحة، ونحن إن أدلينا باسم الصديقة التي تعمل بها والتي أجرت لزياد التحليل في الخفاء، قد نسبب لها مشكلة كبيرة.. لكن كان يجب أن نفعل شيئًا، ولكن ماذا لو لم يتقبل توفيق عبد الجواد ما نقول؟!

بعد حوارات طويلة بيني وبين زياد، لم نجد مفرًّا من المحاولة، رغم ما قد نتعرض له!!

كان صباح الاثنين العاشر من يناير صباحًا غائمًا، منذرًا بسقوط أمطار غزيرة.. لكن غيوم قلبي كانت أكثر قتامة.. وقفت أمام مرآتي، أرتدي ثيابي، وأنا لا أعلم أنها المرة الأخيرة التي أقف فيها أمام المرآة دون أن أراني!!

لحظة واحدة فقط هي التي تفصل بين حال وحال.. لحظة واحدة حقًّا هي التي تفصل الماضي عن الحاضر والحاضر عن الآتي.. لحظة لا نعلمها ولا نراها.. تمامًا كما يفعل خط نحيل يفصل بين الأبيض والأسود.. خط نحيل لا نراه لكنه موجود..

في ذاك الصباح الغائم، كان قدر تلك اللحظة أن تولد في عمري، ولكن حتى خروجي من بيتي لم أكن أعلم أن شهيرة عبد الرحمن ستعود إلى البيت ذاته وإلى الغرفة ذاتها، وإلى ذراعي الأب ذاته.. لكنها ستعود شهيرة أخرى لا علاقة لها بشهيرة الصباح.

كان موعدي مع توفيق عبد الجواد في العاشرة في شركة الأحرار للأدوية بمدينة السادس من أكتوبر، وكان من المفترض أن يذهب زياد معي إلى لقائه.. لكنه في الثامنة والنصف حادثني ليعتذر وأيضًا لأن والدته واتتها نوبة عنيفة من نوبات الصرع.. أخبرته أن يبقى إلى جوارها، وأني سأذهب وحدي وأعود إلى الصيدلية حيث ألتقيه وأحكي له ما دار..

لو تأخرت نوبة الصرع لحظات وغادر زياد منزله، ربما ما اضطر إلى العودة إليها.. لو حادثني قبلها بلحظات، لما خرج والدي إلى الصيدلية، وربما لذهب معي إلى لقاء توفيق عبد الجواد.

لحظات قليلة لو تقدمت أو تأخرت إحداها لذهب أحدهما معي.. ولو ذهب أحدهما معي ربما ما حدث شيء، وما ولدت قصة وما هبت عاصفة ولا اشتعلت نيران.. لكن هي دومًا لحظات.. لحظات قليلة تولد من قلبها أحداث وقصص لا نختارها ولا نسعى إليها.. ألم أقل إننا أبدًا لا نختار؟! نحن نولد ونعمل، واللحظات وحدها تحمل إلينا الأقدار الكبيرة..

شحذت نفسًا طويلًا من صدري ذاك الصباح، وأنا أحكم غلق معطف الصوف الأسود حول جسدي وأدخل سيارتي.. الطريق إلى المنطقة الصناعية في مدينة السادس من أكتوبر طويل وبعيد.. وأنا حديثة العهد بالقيادة، لكن لا مفر.. أنا حتى لا يمكنني تأجيل الموعد، بل الموعد ذاته لا يحتمل التأجيل.

أدرت محرك سيارتي، وبدأت طريقي تحت غيم يناير القاتم نحو قدري.. كنت أعد كلماتي التي سأقولها إلى رئيس مجلس إدارة شركة من كبرى شركات صناعة الدواء على أرض مصر!

حين عبرت محور 26 يوليو، كانت الساعة قد جاوزت التاسعة والثلث، وكانت السماء بدأت تقذف بزخات صغيرة على زجاج سيارتي.. كنت أبحث عن اللافتات المعلقة على الطريق؛ لأستدل بها على اتجاه المنطقة الصناعية وأنا غارقة في التفكير.. كيف سيستقبل الرجل كلماتي؟ بماذا أبرر له قيام زياد بتحليل أقراص الدواء، رغم عمره الطويل في الأسواق؟ وهل سيتقبل مني ما سأقول؟! هل يشكرني ويشكر لنا ما فعلناه حرصًا أيضًا على منتجات شركته، أم تراه يغضب ويظنني ذهبت لابتزازه؟ لا أعلم.. لكني في تلك اللحظات، بدأت أتوتر، خاصة بعد أن غامت السماء أكثر واضطررت، كما اضطرت كل السيارت معي، إلى إشعال مصابيحها، رغم أننا لم نصبح في العاشرة صباحًا بعد.. حين وصولي إلى المنطقة الصناعية، لم يطل أبدًا بحثي عن شركة الأحرار.. ما إن وجدت أحدًا أسأله، حتى وصف لي طريقها.. أبتسم الآن ابتسامة مريرة، وأنا أسأل هل شركة الأحرار مشهورة إلى هذا الحد هناك أم أنه القدر الذي يرسم ويخطط، ويسهل لك السير نحو ما يريد؟

في العاشرة إلا عشر دقائق، كنت أقف على بوابة أمن الشركة الكبيرة، وفي أدب بالغ سألني موظف الأمن عن زيارتي، أخبرته بابتسامة صغيرة أن هناك موعدًا مع السيد توفيق عبد الجواد.. بعد اتصال هاتفي صغير، أجراه عاد يفتح لي البوابة الكهربائية الكبيرة، مشيرًا لي بيده إلى مبنى الإدارة البعيد.

كانت زخات المطر تزداد كثافة، وأنا أغادر سيارتي التي أوقفتها في المكان المخصص؛ حيث أخذت أركض في خطى سريعة نحو المبنى، الذي أراني إياه موظف الأمن.. كنت أركض، وكانت قطرات المطر تركض فوق شعري ووجهي.. حين دخلت إلى المبنى الإداري، وقفت أنفض الماء عن رأسي وعن معطفي الأسود.. بعد لحظات رفعت وجهي لأنظر أمامي..

كان هناك «كاونتر» سكرتارية كبير.. وكان هناك شاب يجلس خلفه رأيته يرقبني بابتسامة حلوة، هدأت من تلاحق أنفاسي واضطرابها.. تقدمت نحوه لأقول وأنا أقف أمامه وقطرات الماء تتساقط من شعري:

- صباح الخير.. دكتورة شهيرة عبد الرحمن.. عندي موعد مع السيد توفيق عبد الجواد.

ابتسم الشاب مرة أخرى، وهو يرفع بيده سماعة الهاتف الموجودة على مكتبه، وعدت أضيف:

- الدكتور إبراهيم الصاوي هو من حدد الموعد!

سمعته يقول في صوت هادئ:

- توفيق بك لم يصل بعد.. من فضلك استريحي لحظات..

ابتسمت في مرارة، وأنا أنظر حولي؛ بحثًا عن مقعد أجلس عليه.. حمقاء أنا؟! كيف ظننت أنني سأجده في انتظاري، بل حمقاء أكثر إن ظننت أنه سيركض بسيارته تحت الأمطار؛ ليحضر إلى لقاء أستاذ صغير في كلية الصيدلة جاءه لسبب مجهول.. لكن أنا حضرت من طرف صديق عمره، ولكن ما تراه الدكتور إبراهيم قال له هو الآخر؟

جلست على أحد المقاعد، وتسللت بأصابعي إلى خصلات شعري المبللة أحاول نفضها ونفض الماء عنها ونفض أفكاري، التي أصابها الإحباط في لحظة..

ماذا جئت هنا أفعل؟! أخطأنا أنا وزياد.. ربما كان من الأفضل ألا نحاول.. وفي لحظة شعرت أننا أغبياء.. أغبياء حتى الموت، وقررت الرحيل.. لماذا أسعى إلى لقاء رجل، إن لم يحترم موعده، فكيف يمكن له أن يحترم مرضى، لا يعرفهم يستعملون منتجاته من الأدوية؟ وما الذي يهمه حقًا من أمرهم؟!

نهضت كأنني أنتفض عن مقعدي، وعدت أنظر إلى وجه الشاب، الذي كان مازال يتحدث على الهاتف، ورأيته ينهض عن مقعده، ويتقدم نحوي قائلًا:

- دكتورة.. توفيق بك يريدك.

في صوت هادئ غاضب قلت:

- أما أخبرتني أنه لم يحضر بعد؟

قال مبتسمًا:

- هو على الهاتف.. أرجوك حادثيه..

تقدمت نحو مكتبه لألتقط سماعة الهاتف في هدوء قائلة:

- آلو..

جاءني صوته يقول:

- صباح الخير.. دكتورة شهيرة.. أنا آسف.. انفجر إطار سيارتي.. طلبت من علاء أن يرسل لي سائقًا بسيارة من الشركة.. سيعود هو بسيارتي وسأحضر إليك أنا بالسيارة التي سيحضر بها عندي.. دكتورة.. أرجو أن تقبلي اعتذاري.. أنت القادمة من مصر الجديدة في هذه الأمطار تصلين في الموعد، وأنا أتأخر.. لكنها الأمطار والأقدار..

تلعثمت.. كان صوته هادئًا صادقًا، ولم أعلم ماذا أقول سوى إنني بعد لحظات قلت:

- سأبقى في انتظارك.. أنا أيضًا أعتذر عن إحضارك في هذا الجو.. لكن لا أحد منا كان يعلم.. كما قلت هي الأقدار.

منحت سماعة الهاتف إلى السكرتير، كما طلب مني وعدت إلى مقعدي؛ لأراه يقف أمامي بعد لحظات قائلًا:

- دكتورة.. يمكنك لقاء الدكتور طارق مدير التسويق (الماركتينج) والمبيعات، حتى يصل توفيق بك.

نظرت في وجهه بغضب سريع.. هل يظنني جئت لإجراء عقد أو زيادة حصة في دواء ما؟

أخبرته بصوت حاسم أنني لا أريد لقاء أحد من قسم التسويق.. لكنه عاد يقول:

- الدكتور رؤوف أيضًا موجود.. مدير الكواليتي..

سقطت كلمة «الكواليتي» في أذني كأنها نفير بوق صاخب، يستنفرني ونهضت عن مقعدي، وأنا أقول:

- الكواليتي؟! طبعًا أريد لقاءه.. ما اسمه الكامل؟

قال وهو يتقدمني ليريني درب مكتبه:

- كلاهما أبناء توفيق بك.. هو الدكتور رؤوف توفيق عبد الجواد!

طرقت على الباب طرقات صغيرة، فتحت بعدها الباب؛ حيث عاد السكرتير من حيث أتى، ودخلت أنا إلى مكتب رؤوف في خطوات هادئة، وإن كانت في رأسي خطوات مترنحة بعض الشيء، ووقفت أنظر في خوف إلى النافذة الزجاجية الكبيرة، التي تقف خلف مقعد مكتبه.. لم أكن أعلم قبلها أن الأمطار بدأت تتساقط في هذا الجنون حتى رأيتها، وسمعتها تلطم زجاج نافذته الكبرى.. بدت السماء غائمة قاتمة، كأننا أبدًا لسنا في الصباح الباكر.. اشتعل الخوف في رأسي لرؤية وحشية الأمطار، ودون وعي وضعت أصابعي على شعري المبتل، وسمعت صوت رؤوف حتى قبل أن أرى وجهه، فعيناي كانتا معلقتين على الزجاج وأمطاره.. سمعت صوته يقول:

- ستمرضين.. أنت مبتلة.

أفاقتني الحروف لأنظر نحوه، وأراه يترك مقعده ويتقدم نحوي على عجل، وفي أقل من لحظة كان رؤوف عبد الجواد يقف أمامي بجسده الطويل الأسمر، والتقت عينانا ونظرت إلى عينيه في ذهول كبير.. كان صوت المطر يخيفني.. لكن ما أخافني أكثر هو عيناه البنيتان المستديرتان اللتين شعرت أنني أعرفهما وأنني أغوص فيهما.. شعرت بقشعريرة تغزو جسدي، ورأيته يمد ذراعيه نحوي قائلًا من جديد:

- هل تسمحين بخلع معطفك؟!

أقسم بالله أنني لم أر من وجهه سوى عينيه.. كنت أشعر بذراعيه الممدودتين وشعره الأسود القصير فوق رأسه.. لكن لم أكن أرى من ذاك الرأس في تلك اللحظة، سوى عينين بنيتين واسعتين، تدعوانني إلى شيء لا أفهمه.. شيء ما عرفت نداءه قبل ذاك اليوم..

نفضت رأسي في ذهول، وأنا أعود بخطواتي إلى الخلف قليلًا، وقلت بصوت تائه مبحوح:

- شكرًا.. لم تكن الأمطار عند وصولي بهذا الجنون.. معطفي ليس مبتلًا من الداخل..

ابتسم رؤوف.. لأرى منه شيئًا غير عينيه.. رأيت شفتين مكتنزتين وأسنانًا بيضاء، تلوح لي في حنان، وبدأت أستعيد هدوئي وتقدمت إلى أحد المقاعد أمام مكتبه حيث عاد هو ليجلس خلفه، وطلب كوبين من الشاي، ثم نظر إلى وجهي قائلًا:

- طلب مني والدي لقاءك حتى يحضر.. ما الذي أستطيع تقديمه؟!

أغمضت عيني، كأني أريد أن أستعيد ذاكرتي.. أقسم بالله العظيم أنني- وحتى هذه اللحظة- لو أخبروني أن امرأة ما على وجه الأرض شعرت أنها لا تعلم من أين جاءت، أو من تكون، أو أي لغة تتحدث لمجرد أنها غاصت في عيون رجل ما، ما صدقت، لكن هذا ما كان.. حاولت لملمة نفسي والتقاط أنفاسي، وأنا أشرح له قصة دواء الصرع، وكيف أن شهورًا مضت الآن، ونحن نسمع كثيرًا من الشكاوى ممن يستعملونه من مرضى الصرع؛ مما دفعنا إلى إرسال عينة منه إلى NATACAR، مددت يدي بأوراقي إليه، وحين استجمعت قواي نظرت إلى وجه رؤوف لأجده غارقًا في دهشة حقيقية.. لكنه قال وهو يمد يده لالتقاط الأوراق:

- دكتورة.. هل تحللون كل دواء يشكو منه رواد صيدليتكم؟! وهل أصبحت الـ NATACAR بهذا التسيب؟!

أرخيت رأسي في خجل، أشرح له قصة زياد وقصة أمه، وكيف تحيا على هذا الدواء، وكيف أنه اضطر إلى زيادة الجرعات لها.. ورغم هذا زاد عدد نوبات الصرع، وزادت حدتها وقسوتها، وكيف دعاه هذا إلى استعمال «التيجرتول» البديل المستورد، وعندما بدأت حالتها في العودة إلى الاستقرار.. شعر أن الدواء وحده المسئول؛ لهذا قام بحمل عينة من دواء الشركة إلى المعامل بصفة خاصة وشخصية.

كنت أرقب وجهه، وهو يستمع، جبهته العريضة السمراء.. أنفه المعتدل وشفاهه المستديرة.

شيء كبير كان يسيطر على رأسي.. أريده أن يرفع عينيه عن الورق وينظر بهما في عيني.. كل ما كان في رأسي لحظتها أنني أريده أن ينظر في عيني مرة أخرى.. شعرت بشوق جارف لعين لم أرها إلا منذ لحظات، وشعرت بشوق أكبر إلى انتفاضة جسدي ورعشة أوصالي، التي شعرت بها لأول مرة في عمري، وأيضًا منذ لحظات.. لكن عيني رؤوف بقيتا ملقتين على بعض الأوراق زمنًا كأنه يفكر فيما يجب أن يفعل أو يقول.. امتدت كفه السمراء إلى سماعة الهاتف، الملقى على مكتبه لأسمعه يقول:

- د. علي.. الآن وفي هذه اللحظة أريد دخول علبتين من دواء «إيتاتول» إلى المعمل أريد التقرير على مكتبي أنا غدًا صباحًا.. وأرجو أن تقوم بإبلاغ حسن وهبي بمحادثة كل وكلائنا.. سنوقف تداول كل ما طرحناه منه في الأسواق.. كله حتى ظهور النتيجة!!

كان رؤوف يتحدث في هدوء.. لكن في صوته، كانت هناك رنة غضب وألم واضحة، حاولت في لحظة أن أقنع نفسي أنه فعلها فقط لاحتوائي.. لكن شيئًا في ضلوعي كان يصدق غضبه ويحترم هدوءه، قبل أن أفتح شفاهي بكلمة، دخل السكرتير إلى مكتبه يعلمنا بوصول توفيق بك، ورفع رؤوف عينيه في وجهي، وقال في صوت خفيض:

- دكتورة.. أرجوك لا تخبري والدي.. على الأقل حتى تظهر نتيجة معملنا.

التقت عينانا من جديد وانتفضت روحي، وأنا أنظر في عينيه لحظة وقبل أن أفكر أو أجيب سمعنا صوتًا قويًا من خلفي يقول:

- صباح الخير.. جئت أعتذر بنفسي..

تقدم توفيق عبد الجواد نحوي لأنهض، وينهض رؤوف عن مكتبه، ومددت يدي أصافح رجلًا ما كنت أعلم أنني يومًا، من أجله، سأبتلع سكينًا في جوفي وأنا أبتسم حتى لا يرى دموعي!!

كان في حوالي الستين من العمر.. لكنه أنيق طويل فيه من ملامح رؤوف الكثير، لكن في وجهه قوة وقسوة أو جدية بعيدة المدى.. جالت عيناي بين الابن وأبيه.. ما عساني أقول بعد ما طلبه مني رؤوف.. وفي صوته الجاد عاد يدعوني إلى الذهاب إلى مكتبه.. لكنني نظرت إلى رؤوف، كأنني استغيث به، فقال:

- الدكتورة...

ونظر إليّ في دهشة كأنه اكتشف لحظتها أنه لا يعرف اسمي، وقلت في هدوء:

- شهيرة.. شهيرة عبد الرحمن

عاد رؤوف يكمل قائلًا:

- الدكتورة شهيرة جاءت في موضوع مهم.. وحدها تقرر ما تقول..

احترمت رؤوف في تلك اللحظة احترامًا كبيرًا، فهو رغم ما طلبه مني، مازال يترك لي حرية القرار..

ابتسمت ابتسامة صغيرة، وأنا أبحث في رأسي عما أقول..

ذهبت إلى مكتب توفيق عبد الجواد، وتحدثت معه عن رغبة صيدليتنا في التعامل المباشر مع الشركة، ورغبتنا في زيادة حصتها من بعض الأدوية..

كانت عيون توفيق عبد الجواد ترقبني في صمت، كأنه يبحث عن الحقيقة.. كان يخبرني بابتسامته الصغيرة أنه يعلم أنني لا أقول الحقيقة، وفي لحظة شعرت ببلاهة ما أقول، فنهضت عن مقعدي ومددت يدي أصافحه في خجل كبير، وضغط توفيق عبد الجواد بكفه الكبيرة على أصابعي قائلًا:

- دكتورة شهيرة أنا في انتظارك في أي وقت تشاءين.. أشعر أن لنا لقاء آخر، وحديثًا لم نبدأه بعد..

في طريقي خارج مكتبه جاءني صوت السكرتير، يخبرني بانتظار الدكتور رؤوف لي في مكتبه، ورغبته في رؤيتي، قبل أن أغادر مقر الشركة.

دخلت.. دخلت مكتب رؤوف للمرة الثانية ذاك الصباح.. لكنني كنت غاضبة.. وقفت مستندة إلى باب مكتبه من الداخل، أستعيد كلماتي البلهاء لوالده، ونهض رؤوف كما نهض أول مرة، وحين وقف أمامي رفعت وجهي أنظر إليه لأخبره أنني ما أخبرت والده بشيء كما أوصاني، وقبل أن أفتح فمي سمعته يقول في لهفة:

- دكتورة شهيرة.. قبل أن أعلم ما دار بينكما، وقبل أن أعلم إن كنت أخبرته أم أنك نفذت طلبي.. أريد منك شيئين مهمين..

وعدت أنظر إلى عينيه في استسلام لأسمعه يقول، وهو يشير إلى نافذة مكتبه الكبيرة، قائلًا:

- عادت الأمطار تهطل بقسوة كما ترين.. أرجوكِ لا تقودي سيارتك.. سأرسل معك أحد سائقي الشركة، وسيعود وحده بعد أن تصلي إلى مقر سكنك..

وخطا رؤوف بعيدًا عني، وهو يكمل قائلًا:

- المطلب الثاني هو أن تأخذي هذه معك..

من مكتبة كبيرة على الحائط المجاور لمكتبه، فتح رؤوف أحد أبوابها؛ ليعود وهو يضع في يدي مظلة سوداء قائلًا:

- استخدميها.. شعرك أجمل من أن تغرقه مياه الأمطار مرتين!

في حيرة قلت:

- لقد أخبرت والدك..

قاطعني رؤوف قائلًا:

أحترم ما أخبرته به أيًّا كان.. سنلتقي ليس غدًا ولكن بعد غد.. هنا.. أنا وأنت وأبي.. وستعلمين كل ما تم بشأن الدواء.. أرجوكِ الآن.. عودي.. إنه يوم قاتم.. عودي إلى منزلك!!

التقطت المظلة من أصابع رؤوف، وسار بي إلى مدخل الشركة حيث وجدت السائق في انتظارنا، فتح لي رؤوف المظلة؛ حيث دخلت سيارتي إلى جوار السائق في صمت..

كان اليوم حقًّا قاتمًا، وكانت السماء تصمت لحظات.. ثم تهدر وتطلق زخاتها المجنونة في وحشية، وأدرت وجهي بعيدًا عن السائق، وشعرت بنفسي لا أفكر في شيء، سوى رجل لا أعرف عنه شيء غير أنه منحني مظلة في يوم غائم، وأنه في انتظاري بعد غد!!

طال طريق عودتي بسبب ما فعلته الأمطار بالشوارع والسيارات.. وفي الطريق حادثني زياد، وأخبرته أن الأمطار حالت دون لقائي بالرجل؛ لعجزه عن الحضور إلى الشركة؛ وحادثت والدي لأخبره ألا يقود سيارته أبدًا؛ حتى تهدأ السماء، وعدت أنظر من زجاج السيارة في ذهول، وأنا أسأل السماء: ما الذي حدث؟ ما الذي يدغدغ عروقي كلما تذكرت عيني رؤوف؟ لماذا لم أخبر توفيق عبد الجواد بالحقيقة؟ ولماذا أيضًا لم أخبر زياد بها؟.. أنا حتى لا أذكر متى وصلت إلى البيت، أو كيف شكرت السائق.. كل ما أذكره أنني حين دخلت غرفتي، وقفت أمام مرآتي.. أنظر بداخلها لأراني للمرة الأولى في عمري.. رأيت امرأة شابة، لم تر نفسها في مرآة من قبل، ونفضت شعري أمام المرآة وتحسسته بأصابعي، وانتفض جسدي وأنا أسمع صوت رؤوف يتردد في أذني قائلًا:

- شعرك أجمل من أن يبتل مرتين!!

* * * * *

كان اليوم التالي يومًا آخر.. كانت الحيرة تحركني، وتسيطر على كل خطواتي.. لا أذكر أنني فيه كنت أنا أبدًا.. لا في الجامعة ولا في البيت.. في بداية اليوم فسرت حيرتي بخجلي من نفسي؛ لأنني ما أخبرت والدي أو زياد بما دار في الأحرار للأدوية.. لكن وبعد محاضرتي الأولى في الجامعة.. وبعد هربي أيضًا من أسئلة الدكتور إبراهيم عن لقاء الأمس وما تم فيه بدأت أفتح عيني وأنا أحاول أن أفهم شيئًا مما كان.. هالني أن أرى عيني رؤوف كلما فتحت عينيّ.. هالني أن أسمع كلماته في أذني كلما مررت بلحظة صمت، أو تابعت ورقة، أو قرأت سطرًا في كتاب أو ملزمة..

شيء مخيف حقًّا أن نسمع صوت شخص، ليس إلى جوارنا، وألا نرى كل الوجوه التي تحيط بنا ونغوص في عيون إنسان تفصلنا عنه مسافات.. رجل غريب.. رجل اسمه رؤوف عبد الجواد لكني في مساء ذات اليوم علمت أنه ما عاد غريبًا.. في ذاك المساء، وفي الصيدلية حيث كنت وحدي بها وجدتني رغمًا عني أرمق بعينيّ، بين حين وآخر، قسم مستحضرات التجميل.. وجدتني رغمًا عني أتبع ساقي وأرقب أصابعي، وهي تتحسس قناني العطور في ذهول..

بدا كل شيء غريبًا في رأسي حتى الثامنة، حين صاحت دلال تناديني للمرة الثالثة، وكيف كان من الممكن أن أسمعها وأنا غارقة في ذهولي.. أخبرتني أن الدكتور رؤوف توفيق على هاتف الصيدلية يريدني، ونظرت إليها وأنا لا أصدق، كأنني أسأل إن كان رؤوف حقًّا على الهاتف، فكيف يخرج صوته من ثيابي.. خطوت نحوها والتقطت سماعة الهاتف لأسمعه يخبرني أنه في انتظاري، هو ووالده، في الحادية عشرة من صباح الغد..

أنا لم أفكر لحظة في ارتباطاتي أو مواعيدي في الصباح التالي.. أنا لم أقل سوى «حاضر» و«تصبح على خير»!!

نحن جمعيًا مهرة في خداع أنفسنا.. نحن جميعًا بارعون في إيجاد التبريرات التي نبتعد بها عن الحقيقة، عندما تلوح لنا بأصابعها.. نحن إذا شئنا الانقياد والاستسلام نجد عندنا دومًا ألف قصة، نغزلها ليصبح استسلامنا وسقوطنا بطولة.. هكذا أقنعت نفسي وبهذا أقنعتني..

سأذهب لأن قضية الدواء أهم من الجامعة.. أنا ذاهبة لأعود بالحقيقة إلى والدي وزياد.. أنا ذاهبة لأكمل ما بدأناه.. ربما كان كل هذا صحيحًا صادقًا يحترم.. لكن كان يجب أن أسأل أي تفسير وأي قصة وأي مبرر لالتقاطي قلم أحمر الشفاه الوردي، الذي وضعته في حقيبتي قبل عودتي إلى البيت ذاك المساء!!

لن أطيل كثيرًا.. في الصباح.. تزينت، وللمرة الأولى في عمري مررت بقلم أحمر الشفاه على شفتي.. للمرة الأولى في حياتي، لم أرتد ملابسي حتى تأكدت من خروج والدي من البيت، كأنني خشيت أن يرى فيها ما لا أريد أن يراه.. للمرة الأولى، أترك شعري الغزير ينسدل على أكتاف معطفي في جنون، لا يقل أبدًا عن جنون صوت رؤوف وعينيه، التي بقيت تسكن مرآتي عمرًا طويلًا.. لم أنس أبدًا أن أحمل مظلته، التي منحني إياها بالأمس، ولا نسيت قطرات العطر التي سكبتها على عنقي الأبيض الطويل من زجاجتي الوحيدة، التي ما استعملتها إلا يوم مناقشة رسالة الماجستير..

كيف كان الطريق بالأمس طويلًا غائمًا، وكيف أصبح الطريق ذاته حانيًا جميلًا، أخدع فيه نفسي بأنني ذاهبة لأثبت لها أن صوت رؤوف وعينيه هما كصوت وعيني أي رجل آخر، وأنني عند عودتي.. سأعود شهيرة التي عرفتها زمنًا، ولكن حين يولد الحب نولد معه أشخاصًا آخرين.

كان لقاؤنا ذاك الصباح لقاءً رائعًا.. في مكتب توفيق عبد الجواد، علمت أنني مع رجل مختلف.. التقاني توفيق على باب مكتبه في ترحاب كبير، وقادني إلى طاولة اجتماعاتهم وجاء رؤوف ليجلس أمامي وفي يده ملف أوراق أزرق.. شرحا لي معًا أن المادة الفعالة في الدواء حقًّا أقل مما يجب أن تكون عليه.. أخبراني أيضًا أنها أمور تحدث كثيرًا، وإن كانت لم تحدث قط في الأحرار للأدوية..

أخبرني توفيق عبد الجواد أنه وفي أقل من شهر، سيطرح كميات جديدة من الدواء مطابقة للمواصفات بعد سحب جميع الكميات الحالية..

ورفع رؤوف عينيه ناظرًا في عيني قائلًا:

- أنا وجميع موظفي قسم الكواليتي يُجرى معنا تحقيق.

في تلك اللحظة، قاطعه توفيق عبد الجواد في حدة قائلًا:

- مازلت أرجح أن الخطأ ليس في شركتنا.. أعتقد أن المادة المستوردة بها عيب ما، ظهر في بعض الأقراص بدليل أن تقرير وزارة الصحة عن المادة الخام كان سليمًا ومطابقًا للمواصفات؛ مما يعني صحة تقارير معامل شركتنا.. هناك خطأ سنصل إليه، وفي الغالب لن يكون خطأنا..

أنا أرجح أنه سوء تخزين من صيدليتكم، أو بعض الصيدليات الأخرى..

أنا فقط قررت سحب الدواء والبدء في إنتاج كمية أخرى؛ لأنني أعلم أهميته ولحرصي على سمعة وتاريخ شركتنا.. لكن أنا أثق أن العينات غير الفعالة هي عينات قليلة.

كان حاسمًا قويًّا كأنه يخبرني أنني مخطئة، وكنت حقًّا لا أهتم بما فعل أو سيفعل.. كان كل ما يهمني أن الدواء سيعاد تصنيعه، وأن الملف تم فتحه وأنهم حقًّا اهتموا بالقضية.

وقفت أمد يدي إلى السيد عبد الجواد، أخبره بشكري الصادق واعتذاري عن كل ما حدث، وأن تاريخهم الكبير الأبيض وحده ما دعاني إلى الحضور..

بقي رؤوف مع والده في المكتب عند مغادرتي، وفي الطريق إلى سيارتي كنت أشعر أنني أتمنى لو بقيت لحظات أخرى.. كنت بين كل خطوة وأخرى أضع أصابعي على شعري؛ لأعود به بعيدًا عن وجهي، فأنا لم أعتد انطلاقه دون قيد.. كانت خطواتي إلى السيارة مرتبكة، تتنازعني فيها مشاعر مضطربة كثيرة.. سعادتي باستجابتهم ورغبتي في البقاء معهم أو مع رؤوف بالتحديد، وزفرت أنفاسي في ضيق كبير.. كأنني أشعر بجنوني وحماقتي، وما إن دخلت سيارتي، وألقيت بحقيبتي على المقعد المجاور، حتى ارتطمت عيناي بمظلة رؤوف التي حملتها معي لإعادتها له، ونسيتها في السيارة.. أطفأت محرك السيارة وأنا أفكر..

- هل أتركها لدى موظف الأمن عند البوابة.. أم أحملها إليه بنفسي أم أعود بها وأبتعد عن نداء قلبي وعروقي؟

كيف يصبح قرار صغير إلى هذا الحد أمرًا كبيرًا ومحيرًا، لا أعلم.. لكن في اللحظة، التي حزمت أمري فيها، ومددت يدي ألتقط المظلة وأفتح باب سيارتي لأخرج بها.. رأيت رؤوف يركض في اتجاهي، وأرخيت رأسي في صمت حتى أصبح أمامي؛ حيث قلت في صوت خفيض:

- كنت في طريقي إليك.. نسيت المظلة!!

مد رؤوف كفه نحوي قائلًا:

- د. شهيرة.. هل تسمحين لي بدعوتك إلى العشاء!

* * * * *

بماذا يسمح العليل إن أصابت جسده العلّة؟!

لا شيء سوى الاستسلام.. العليل يستجيب للألم، ويلغي جميع مواعيده ويعيد تنظيم جميع أوراقه حسب ما يراه الألم.. يرتدي ملابس فضفاضة ويلقي بجسده المعتل على فراشه ويتألم!!

الحب أكبر علة وأجمل علّة خلقها الله.. سمحت لرؤوف بدعوتي إلى العشاء، وسمحت له أن يسكن روحي وقلبي في استسلام لذيذ، لم أشعر يومًا بلذة شيء مثله..

أيهما يشعر بلذة الماء أكثر.. الظامئ الذي ذاق الماء، أم ذاك الذي لم يذقه قط، وجاء موعد لقائه مع القطرة الأولى؟! أعتقد أنني لو خضت تجربة الحب من قبل، لاندفعت نحوها في شوق، ولكن أن يطرق الحب الباب للمرة الأولى في عمر كعمري، فأنا أظنه الجنون بعينه..

لقائي الأول برؤوف كان لقاءً فريدًا لأنه كان لقاء جسدي الأول بثوب جديد، اشتريته من الصوف الأسود، يقف تحت ركبتي بحوالي 5سم، له كول عالية يختفي خلفها نصف عنقي الأبيض، وعلى نهايات ثوبي كانت هناك زهرات صغيرة من اللون السيمون الهادئ.. لقائي الأول برؤوف كان أيضًا لقائي الأول ببووت أسود من الجلد، له كعب 7سم، وضعت فيه قدميّ لتختفي داخله ساقاي البيضاوان، ويصبح كل ما يظهر منها هو حوالي 5 سم أخرى ما بين نهاية ثوبي وبداية «البووت».

مررت بفرشاة ألوان على وجهي وعلى جفنيّ.. مررت بقطرات عطر «جيرلان» على كل قطعة في ثوبي.. لقائي الأول برؤوف، كان لقائي الأول مع الأنوثة والأناقة والعطر، وأيضًا كان الأول مع الكذب.. وقفت في السابعة والنصف، أخابر والدي الذي كان في الصيدلية أخبره أني في طريقي إلى حفل خطبة أحد أبناء أساتذتي بالكلية..

كذبة صغيرة تتقنها كل الفتيات.. لكنها حين تأتي، وأنا على مشارف الثلاثين يصبح لها وجع في القلب، وإن كانت على رجل مثل والدي فوجعها في الروح أيضًا.. لكن الحب يُنسي القلب والروح كل الأوجاع..

أخذني رؤوف إلى مطعم «ريفولفينج» بالطابق الثاني والأربعين من فندق «جراند هياة».. المطعم يدور في هدوء حول مبنى الفندق، كأنه قارب صغير يتجول بك في نيل مصر الساحر، أخذت هناك أرقب كل شيء في ذهول.. أين كنت أحيا طوال الأعوام الماضية؟!

كيف لم أعلم أبدًا أن هناك فنادق ومطاعم وموسيقى ونساء تلتقي رجالًا ليتذوقوا أجمل علّة خلقها الله على الأرض.. أبدًا ليست علّة.. الحب هو دواء كل علّة..

رفعت عينيّ أرقب وجه رؤوف الهادئ الحاني.. كان أنيقًا يومها.. كان يرتدي بدلة من اللون الأسود وقميصًا من اللون «السيمون» الهادئ، الذي ينعكس لونه على خمرية بشرته في صفاء كبير، وكأن رؤوف رأى حيرة عيني فقال أولى كلماته التي لا أنساها:

- من قلبي أشكر لك قبول دعوتي..

أجبته يومها في ذهول:

- من قلبي أشكر لك خروجك بي إلى هذا العالم.. لم أكن أعلم أبدًا أنه موجود..

طال حديثنا وطال إصغائي له.. كان يتحدث في أمور كثيرة.. حدثني عن والده وكيف تخرَّج من كلية الصيدلة لكنه أبدًا لم يمارسها بل اكتفى بإدارة أرض والده .. حدثني عن جده بحب وفخر وحنان كبير .. حدثني أن توفيق عبد الجواد بعد وفاة والده حضر إلى القاهرة وأقام شركة الدواء ليحقق حلم عمره القديم .. حدثني عن الدواء.. أخبرني، وهو ينظر في عيني، أن ما حدث هو مسئوليته وحده، وأنه يشعر بخوف كبير من عقاب الله على كل مريض تناول حبة دواء وبقي يتألم.. كان صوته حانيًا هادئًا وكان أيضًا صادقًا.. في عيني رؤوف الواسعة شعرت أن امرأة تولد وصبية تضحك وطفلة صغيرة تهدأ.. أنا أيضًا حادثته عن أشياء كثيرة.. أخبرته عن أمي.. عن والدي.. أخبرته عن قرض البنك ومديره، الذي كان يومًا تلميذًا لوالدي، وكيف حمل إلينا الحل وسهل لنا الحلم.. أخبرته عن مدحت عبد الرحمن وعن عشقي له واحترامي الكبير.. وفجأة في لحظة ودون ترتيب، شعرت بدمعة صغيرة تشتعل في عيني، ونظرت إلى رؤوف قائلة:

- إنها المرة الأولى التي ألتقي فيها رجلًا.. المرة الأولى التي..

ووقفت الحروف على شفتي.. شعرت بسذاجة ما أقول.. شعرت بأن رؤوف قد يظنني أرسم لنفسي في عينيه صورة أو أبتعد به عن حقيقة.. شعرت بالخجل والألم..

لماذا قلت ما قلت؟ أشحت بوجهي أنظر إلى مياه النيل، التي تلألأت عليها أضواء ليل القاهرة وأرخيت عيني أغلقهما.. ما الفائدة؟!.. كلمات تخرج هي كلمات لا تعود!!

قال رؤوف في حنانه الغامر:

- شهيرة.. ماتت أمي وهي تلد أخي الأصغر طارق.. كان عمري يومها سبعة أعوام، كان والدي يومها في أوج شبابه وثرائه.. علمني أن أصبح مثله رجلًا وامرأة.. علمني أن أصبح أخًا وأمًّا وابنًا، اشتركنا معًا في تربية طارق..

أذكر جيدًا أنه أطلق تنهيدة كبيرة حين قالها، ثم استكمل قائلًا:

- ربما لم ننجح في تربية طارق كما نريد.. لكن والدي صنع منا ما يريد.. أنا تخرجت في الصيدلة وطارق تخرج طبيبًا بيطريًّا.. ثلاثة رجال بلا امرأة واحدة.. هل تصدقين أنه لا امرأة في بيتنا حتى اليوم؟! حتى القائم على نظافة البيت رجل.. نقل والدي إلينا شعورًا بعيدًا بأنه لا نساء على الأرض، بعد «بهيجة» أمي رحمها الله.. لكن تبقى المرأة النصف الذي لا يكتمل الرجل إلا به ولا تكتمل الحياة إلا به.. أنا أيضًا ما أحببت ولا عرفت سوى امرأة واحدة. كانت كل حياتي.. لكنها أيضًا صبغت حياتي باللون الأسود يوم خروجها منها.. كان ذلك منذ أعوام قاربت الخمسة الآن.. شهيرة منذ خمسة أعوام لم أجلس مع امرأة.. لم أسع إلى لقاء امرأة، ولم أشته حديث امرأة..

عدت أنظر في عيني رؤوف في لهفة، وأنا أسمعه يقول:

- يوم رأيت قطرات المطر تتساقط على شعرك.. يوم رأيت وجهك الأبيض النقي الخالي من الألوان، شعرت أن النساء شيء آخر.. شعرت أن «بهيجة» لها امتداد، وأن قلبي يصحو على قطرات الماء التي تساقطت من شعرك.. أنا لا أخبرك أنني أحببتك ولا أعدك شيئًا ولا أريد شيئًا.. أنا فقط أخبرك أنني حقًّا أتمنى لو نصبح معًا شيئًا.. شهيرة؟!

كنت تائهة في كل حرف قاله رؤوف.. كنت حائرة خائفة.. لكن مع كل كلمة كنت أشعر أنني أيضًا أريد ما يريد، وأتمنى أن نكون معًا شيئًا كما قال.

وعاد يقول:

- أيًّا كان شكل ما سيكون.. أعدك ألا تندمي أبدًا!!

الندم.. هذا الجلاد الأعمى الذي لو رأى ما تحدثه سياطه بأرواحنا لقتل نفسه حزنًا علينا!!

* * * * *

من السهل أن تخبئ كنزًا.. من السهل حتى أن تخفي جريمة وجثة أو تخفي ألمًا ودمعًا، ولكن المستحيل أن تخفي الحب!!

أحببت رؤوف في جنون بكل حرمان الأعوام.. بكل شوق الصبايا وأحلام العذارى.. أحببته وكان أهلًا لكل الحب..

كان الحب ينبت في عيني على أطراف أناملي وعلى خصلات شعري وأيضًا في ضميري، تحولت في أيام قليلة إلى زهرة ترقص بين الصيدلية والجامعة في خفة كبيرة؛ لتجد بعض الوقت لتلتقي بحبيبها وتحادث حبيبها، وتغفو وتصحو على صوت حبيبها.

في أيام قليلة تحولت كل الأشياء واختلفت كل الأشكال، وتلونت كل الصور وصحت كل المشاعر.. أشهد أنني أحببت رؤوف كما لا يعرف حتى الحب نفسه.. وأشهد أنه أحبني في صدق ونقاء، بعد أسبوع واحد منذ ذاك اللقاء، أمسك والدي بيدي ونحن نتناول العشاء قبل خروجي إلى الصيدلية؛ حيث كان دوري الليلي فيها؛ لأن اليوم التالي هو إجازتي الأسبوعية منها ومن الجامعة..

أمسك والدي بكفي، وأنا أتجه نحو غرفتي لأرتدي ملابسي وقال:

- أيطول انتظاري لأعرف ما يدور؟!

بمرح كبير قلت:

- ما طال بعد؟!

بابتسامة هادئة لا تخلو من الحيرة والقلق قال، كأنه يعلم عدد الأيام:

- أكثر من أسبوع.. ألا يكفي؟!

نظرت إلى عينيه في شيء من الخجل.. أنا أيضًا أريد أن أسقط عن كاهلي حمل الأسرار.. إن كان الاعتراف بالخطأ والجريمة يريح صدر مرتكبها حتى لو وضعه على المقصلة، فكيف تراه الاعتراف بالحب يفعل؟!

نظرت يومها إلى والدي، وقلت:

- شهيرة تحب..

قبل أن ينطق حرفًا عدت أكمل:

- فقط امنحني بعض الوقت، وثق أنني أحملك معي وأحمل كل ما علمتني في كل مكان!!

كان الصباح التالي هو يوم إجازتي من الصيدلية وأيضًا من الجامعة.. في مثل هذا اليوم من كل أسبوع، كنت عادة أذهب في الصباح للتسوق الأسبوعي، في الوقت الذي يكون والدي فيه في الصيدلية.. وقبل أن يعود أكون قد انتهيت من التنظيف الأسبوعي.. وأعددت وجبة طازجة وساخنة من مشتروات الأسبوع.. مساء إجازتي الأسبوعية، كنت أقضيه دومًا في أوراق الدكتوراه، لكن كما لكل شيء نهاية، فهناك أيضًا لكل شيء بداية..

حادثني رؤوف ليوقظني ذاك الصباح، وهو يقول:

- شهيرة.. أنا على بعد عشر دقائق من شارع محمد فريد.. أين ألقاك؟!

كنت مغمضة العين ومازال رأسي ثقيلًا على وسادته وعدت أستوضحه ليقول:

- شهيرة.. يجب أن نلتقي..

بعد أقل من عشرين دقيقة، كنت أقف أمام مرآتي، أرتدي بنطلون جينز أزرق وعليه «بلوڤر» في لون حبة فراولة حمراء.. في قدمي وضعت سبادريل أسود، وجمعت شعري فوق رأسي بمشبك أسود كبير، نظرت إلى عيني في المرآة لأراها جميلة سعيدة ترقص.. وفي اللحظة التي مددت فيها يدي لألتقط أحمر الخدود.. تذكرت كلمات رؤوف حين تحدث عن حبه لوجهي الأبيض الخالي من الألوان، وعدت أنظر إلى المرآة.. إن للشوق حمرة وللحب فرشاة تضفي على قلوب الصبايا جمالًا، تعجز عنه مستحضرات تجميل الأرض.

التقطت حقيبتي السوداء وهاتفي الصغير، وركضت نحو الباب.. وقبل أن أخرج، حادثت والدي لأقول في خجل كبير:

- حبيبي.. قررت وللمرة الأولى أن أصغي إلى نصائحك.. الإجازة أن نخرج.. أنا في طريقي إلى الخروج.. عندما أعود سأطهو شيئًا..

حتى لا أذكر ماذا كان رده أو بماذا أجاب.. كل ما كنت أشعر به في تلك اللحظات هو أن رؤوف ينتظرني بسيارته على قمة أحد الشوارع القريبة.. كل ما كان يشغل رأسي وقلبي أنه قريب، وأن لحظات من عمرنا تضيع دون أن نكون معًا..

حين وصلت إلى ميدان الحجاز بمصر الجديدة، رأيت رؤوف الذي كان يرتدي هو الآخر بنطلونا من الجينز الداكن وبلوڤر من اللون البترولي الداكن يطل من تحته قميص أبيض.. كان يقف إلى جوار سيارته الجيب الرمادية، اقتربت بسيارتي الصغيرة منه لأهبط منها؛ حيث تولى هو قيادتها ليقف بها في أحد الأماكن، وبقيت أنا واقفة إلى جوار سيارته أرقبه في هدوء.

كنت أنظر إلى وجهه القمحي الوسيم، وشعرت أن قلبي يغوص في الحيرة للمرة الأولى منذ بدأت لقاءاتنا.. إلى أين يأخذني رؤوف في هذا الصباح الباكر.. كيف قفزت من فراشي إلى داخل ملابسي، وجئت أقف أسلّمه سيارتي لأجلس إلى جواره في سيارته بعد لحظات، وأنا لا أعلم من هو حقًّا وماذا يريد وإلى أين يأخذني.. نفضت رأسي، وأنا أعاود النظر في وجهه البعيد.

أنا لا أعرف شيئًا عن رؤوف سوى كلماته القليلة عن نفسه وحياته.. أنا معه أصبحت حتى لا أعرف من أنا؟! أنا معه امرأة مجنونة لا أعرفها، رغم ادعاءاتي أنني مازلت أملك زمام عقلها وقلبها.

أشحت بوجهي أنظر إلى الجهة الأخرى في خجل حقيقي، وأنا أتذكر مدحت عبد الرحمن.. هو يعمل من أجلي، وأنا أخرج في صباح اليوم الوحيد الذي اعتدت فيه عمل شيء له.. أخرج وأنا حتى لا أعلم إلى أين أو متى سأعود..

انتفض جسدي لحظتها.. وأصابع رؤوف السمراء الطويلة تلمس ذراعي.. وصوته الهادئ يلطم وجه رأسي كأنه يفيقني قائلًا:

- شهيرة!! أين أنت.. لِمَ لَمْ تدخلي السيارة؟!

استدرت أنظر إليه في حيرة ورأيته يمد يده بمفاتيح سيارتي، التي التقطتها في هدوء، وأنا أفكر هل أعود بها إلى سيارتي وأعود إلى بيتي، إن أرادني رؤوف فليتبعني إلى والدي.. إلى جيراني.. إلى النور.. كنت تائهة وحزينة.. نحن في وضح النهار.. ربما أراد دعوتي على الإفطار، وربما كان عنده شيء يريد أن يقوله.. شيء لا يستطيع الانتظار.. وتدلى رأسي في صمت لأدخل للمرة الأولى سيارة رؤوف عبد الجواد، وانطلق يقود سيارته وهو يقول:

- إجازتي يومان.. لكن اعتذرت اليوم عن العمل.. شهيرة..

شعرت بيده تتسلل إلى كفي، الذي سحبته من تحت أصابعه في صمت..

شعرت بدمعة تترقرق في عيني.. في الحب كل شيء يحدث.. في الحب.. نحن نضحك ونبكي في وقت واحد.. نحن عقلاء ومجانين في ثوب واحد..

عاد رؤوف يسألني في قلق، ونفضت قلقي وحزني، وقررت أن أنتبه وأسايره لأرى ما يريد وإلى أين يأخذني.

قلت في ابتسامة صغيرة لا تخلو من المرارة:

- رؤوف.. أنا بخير..

انطلق إلى اتجاه لا أعرفه، وانطلق في روحي صوت الموسيقى التي أدارها..

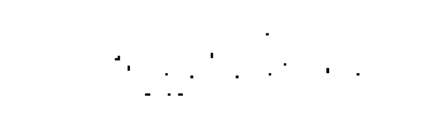
أغمضت عيني.. كنت أعرف أن الرجال يختارون الأغاني، التي لها كلمات تحرك مشاعر النساء.. لكن ها هو رؤوف يختار موسيقى هادئة حانية لتغسل روحي في نقاء وحنان، وأطلقت من صدري تنهيدة كبيرة.. إن كنت أنا غير كل النساء فرؤوف أيضًا غير كل الرجال!!

كانت الحادية عشرة والنصف تقريبًا، عندما انحرف رؤوف بسيارته جوار أحد نوادي اليخت أمام شيراتون القاهرة، وهبط من سيارته ليفتح لي الباب، ومد أصابعه السمراء للمرة الثانية نحوي ذاك الصباح قائلًا:

- أتسمحين لي؟!

سمحت لك بكل شيء لم أظن أنني يومًا أسمح به، فكيف تسأل إن كنت أسمح أو لا أسمح بدخولي إلى نادي اليخت.

ظننت أننا سنتناول الإفطار أو نشرب كوبًا من الشاي.. لكن رؤوف توجه بي إلى أحد «اللنشات» البالغة الأناقة، وقفز إلى داخله، ثم استدار



يمنحني يده قائلًا:

- تفضلي!!

ابتسمت.. سيأخذني إلى نزهة في النيل.. منحته يدي، وأنا أقفز إلى اليخت الصغير..

كنت منبهرة إلى أقصى حدود الانبهار..

لم يكن حقًّا لنشًا.. كان أشبه بتلك اليخوت الصغيرة البيضاء، وأدار رؤوف المحرك وابتسم قائلًا:

- شهيرة.. هل تحبين النيل؟!

نظرت إلى وجهه وعادت دمعة تترقرق في عيني، وهو يسألني تمنيت لو صحت لحظتها أنني أحبه هو لا النيل!!

* * * * *

عندما انطلق ذاك «اللنش» الصغير، وقفت إلى جوار رؤوف، أنظر إلى مياه النيل وزرقة السماء.. هناك في الحياة دومًا أشياء لا نعلم متعتها إلا عندما تضع الأقدار أقدامنا على دروبها..

كنت أرى هذه اللنشات، وهي تعبّ سطح النيل على شاشة التليفزيون أو صفحات الجرائد والمجلات.. لكن لم أتصور أنني يومًا سأطأ إحداها، إلى جوار رجل لم ألتقه إلا منذ أيام، ظننت لحظتها أنها نزهة ستنتهي بعد دقائق، أو ساعات على الأكثر، وما علمت أنها جسر إلى طريق طويل..

بعد أقل من عشرين دقيقة وجدت رؤوف يقف بمركبته الأنيقة إلى جوار جزيرة صغيرة.. حين أطفأ المحرك ليلقي بعدها بحبل اللنش على الشاطئ لنخرج منه، وهو يحمل «أيس بوكس» كبير لا أعلم حتى متى وضعه على ظهر اللنش.. علمت أنها ليست رحلة نيلية، بل هي رحلة إلى جزيرة في وسط النيل، ومد رؤوف أصابعه من جديد ليأخذ يدي.. ابتسمت أنظر إلى كفه السمراء الناعمة التي ألقيت بأصابعي في أحضانها في استسلام لأتبع رؤوف، وأنا أنظر حولي في دهشة كبرى.. كان يتقدمني، وهو يحمل صندوق حفظ الأطعمة الذي يحمله في انطلاقة كبيرة، وكنت أتبعه وأنا أغالب استسلامي بالقدر ذاته، الذي أغالب به انطلاقي، حتى وجدتنا أمام بيت صغير من دور واحد.. تسمرت عندها قدماي، وأنا أرى رؤوف يضع صندوقه على تراس البيت ويخرج من جيبه مفتاحًا وضعه في ثقب الباب ليفتحه ويدخل بصندوقه إلى البيت.. تسمرت قدماي على أرض الجزيرة الخضراء في إصرار، ودق الغضب رأسي في عنف.. هذه النهاية إذًا؟! يوقظني ويخرج بي ليس في نزهة نيلية ولكن..

هززت رأسي كأني أنفض عنه لطمات غضب هائل.. لم أشعر بالغضب من رؤوف، بل شعرت بالغضب من نفسي.. وفي مرارة استدرت لأخطو حيث يقف ذاك اللنش الأبيض.

رؤوف لا يلام.. وحدي الملومة.. كان في عيني دمع، وفي صدري صرخة جريحة.. كيف تركت كل هذا يحدث، وكيف ظن هو أني أدخل.. قبل أن أصل إلى اللنش بخطوات، شعرت به يمسك بذراعي، وهو يصيح:

- شهيرة.. إلى أين؟! ألا تسمعين ندائي؟!

في اللحظة التي استدرت لأنظر في عينيه، سقطت الأسيرة من عيني التي لا أعلم من أين جاءت، وقلت في صوت خفيض:

- رؤوف.. أريد العودة!!

دون كلمة واحدة احتواني رؤوف بين ذراعيه وهو يهمس قائلًا:

- آسف..

بكيت على صدره في حزن.. بكيت في ألم لا حدود له.. بكيت لأنني حقًّا كنت أريد أن أتبعه.. أريد أن أدخل معه إلى ذاك البيت الصغير.. لكن أريده أن يعلم أنني لست صيدًا جمعته شباكه، وجاء يطهوه على شاطئ النيل.. أنا شهيرة.. ابنة راوية ومدحت عبد الرحمن، وسمعتني من بين دمعاتي أقول في صوت متقطع:

- أنا..

عاد رؤوف يهدهدني في حنان، وهو يردد:

- لا تقولي شيئًا.. ستدخلين معي يا شهيرة.. ستدخلين!

قالها رؤوف وفعلها..

عدت معه إلى ذاك البيت الصغير.. دخلت وتجولت وفتحنا الصندوق وطهونا قطع اللحم التي أحضرها رؤوف.. وحين انتهينا من طعامنا أخذني رؤوف ليخرج بي من باب مقابل لباب الدخول الخلفي إلى المنزل الصغير.. أجلسني على الحشائش الخضراء، وأقدامنا تكاد تلامس مياه النيل ووضع ذراعه حول كتفي، وانطلق يتحدث في حنان، بعد أن أشعل سيجارة وضعها بين شفتيه ثم قال:

- شهيرة.. ما ظننت أن أحدًا سواي وسوى بهاء صديقي يدخل هذا البيت.. هو بيت أسراري.. آتي هنا لأبكي حين أغضب من وحدتي.. آتي هنا لأصرخ حين يخطئ طارق أخي أحد أخطائه.. آتي هنا لأستعيد وجه المرأة التي أحببت يومًا.. أستعيد قسوة فراقها حتى لا أقع في الحب مرة أخرى، لكن اليوم جئت بك ليولد على أرض هذا البيت شيء نسيته زمنًا.. أنا أحبك!! أريدك معي!!

آه من كلمة الحب حين تخرج من شفاه من نحب.. آه منها.. في تلك اللحظة عدتُ برأسي على كتف رؤوف، أغمضت عيني، وأقسمت أنني ما ولدت إلا لألقاه، وأن قلبي وجسدي ما بقيا على طهرهما إلا ليكونا لرؤوف عبد الجواد وحده دون رجال الأرض!!

في عينيه رأيت أطياف دمعة.. لكن ما رأيتها تسقط.. شعرت بأصابع رؤوف تفك قيد شعري ليسقط على وجهي، وعادت أصابعه تعود به بعيدًا عن وجهي حيث أخذ يمشطه بأصابعه في حنان.. كانت أنفاسه دافئة كدفء الشمس، التي فوق رؤوسنا.. كانت عيناي مفتوحتين ترقبان عينيه المغلقتين وأصابعه الطليقة في رأسي.. كنت أرقب وجهه كأنني أريد أن أشهد كل ما يدور بعيني قبل نبضي، وشعرت بوجنة رؤوف تلتصق بوجنتي.. وبالقرب من أذني شعرت بشفتيه تقبلني قبلة صغيرة حانية، ولم تستطع عيناي الصمود سقطت جفونهما في استسلام.. لكني عدت أفتحهما بسرعة.. لن أغمض عيني.. لن أغيب.. لن أنسى أننا وإن كنا على جزيرة في وسط مياه النيل إلا أننا لا نغيب عن عين الله.. لن أخطئ، ونظرت إلى السماء كأنني بالله من نفسي أستغيث، كأنني حقًّا أعترف أن ما يحدث أكبر مني.. أكبر من كل ما أريد الحفاظ عليه.. أكبر حتى من الضعف والخطأ، ولكن ما الخطأ.. أن يأخذ رؤوف جسدي.. أن تتجول أصابعه على صدري وثنايا جسدي.. أن أصبح بين ذراعيه امرأة؟! ما هو الخطأ الذي أخشى الوقوع فيه؟

أنا حضرت وبقيت.. وها أنا أرتجف بين ذراعيه كحمامة صغيرة، وعندما قررت أن أبتعد فتحت شفاهي قائلة:

- رؤوف ضمني إليك أكثر!!

* * * * *

في السادسة، وبعد أن شهدنا سقوط شمس ذاك اليوم في قلب نهر النيل معًا، عدنا إلى الأرض.. وفي الطريق إلى مصر الجديدة كنت غارقة في صمت صاخب الهدوء.. كانت أصابعي مستلقية بين أصابع كف رؤوف اليمنى؛ حيث قاد سيارته بيد واحدة.. لم أفتح عيني لحظة حتى سمعت صوته يطلب مني أن أفعل.. وحين فعلت لم يكن رؤوف في ميدان الحجاز، حيث تركت أنا سيارتي في الصباح، بل وجدته يقف على باب الصيدلية، وقبل أن أسأله هبط من السيارة ودون كلمة واحدة، خطا معي إلى داخل الصيدلية، وعلى بابها نظر أمامه قائلًا:

- أين الأستاذ مدحت؟!

أفقت أنا وزياد يرقبني.. ويرقب وجه رؤوف في سؤال كبير، واستدرت أنظر إلى رؤوف في ذهول قائلة:

- لا أعلم.

تقدم زياد نحوي، وقال في قلق:

- شهيرة؟!

رأيت والدي يخرج من الغرفة الصغيرة التي نخزن فيها الأدوية ومستلزمات الصيدلية، وتقدم رؤوف نحوه ليمد كفه قائلًا:

- رؤوف توفيق عبد الجواد..

* * * * *

لا أنسى عينيْ أبي وهما تتجولان في وجهي ووجه الزائر في تلك اللحظة، في هدوء وصمت.. بعد لحظات قليلة من مصافحة رؤوف لوالدي، ابتسم والدي قائلًا:

- أمضيت مع شهيرة يومًا بأكمله.. فهل يحق لي أن أنفرد بك ساعة واحدة؟!

غادر الاثنان الصيدلية بعدها لأبقى أنا فيها مع زياد حتى عودتهما كما اتفقنا.. كان هناك الكثير من رواد الصيدلية؛ خاصة من السيدات اللاتي اعتدن الحضور في مثل ذاك الوقت، وجلست على المقعد البعيد أستعيد ما حدث، وأحاول أن أتظاهر بأنني طبيعية.. ولكن ألم أقل إن كل شيء يمكن إخفاؤه إلا الهوى..

بعد أقل من نصف ساعة وبعد أن هدأت الصيدلية قليلًا، رأيت زياد يقترب وهو يحمل في يده كوبين من العصير، أعدهما عامل الصيدلية في «الأوفيس» الصغير الخلفي.. منحني أحدهما ليجلس وهو يضع الكوب على شفتيه الرقيقة قائلًا:

- شهيرة! رؤوف هو ابن توفيق عبد الجواد مالك الأحرار للأدوية.. أليس كذلك؟!

رفعت وجهي أنظر إلى زياد، وأنا أومئ برأسي إيجابًا في خجل.. رأيته يبتسم ابتسامة صغيرة مريرة ساخرة، عاد بعدها يرتشف رشفات صغيرة من كوب العصير.. زياد وسيم.. شعره الناعم المتدرج فوق رأسه، وعيناه الصغيرتان اللامعتان كانتا ساكنتين لكن بدا عليهما الحزن وشعرت بالألم.. كان واضحًا أنه رأى كل شيء وفهم كل شيء.. مددت أصابعي أمسك بكوب العصير بينها، أبحث عن أي كلمات أقولها وأي كلمات يجب ألا أقول.. شعرت أن من حق زياد عليَّ أن أقول شيئًا، فقلت في صوت خفيض:

- يبدو أن الأوان قد آن يا زياد.. أنا..

شعرت به ينتفض في ألم ليقاطعني قائلًا:

- أنا من وضعتك على دربه يا شهيرة.. أنا والدواء..

قلت في لوعة، كأنني أحاول التخفيف عنه:

- أبدًا.. هو القدر.. كان من الممكن أن تذهب أنت إلى لقائه.. كان من الممكن ألا تمطر السماء يومها، وألتقي والده ولا ألتقيه أبدًا.. كان من الممكن..

وعاد زياد ينكس رأسه، ليقول في ألم كبير:

- ما عاد الآن من الممكن شيء.. أنا من وضعتك على درب هذا الرجل.. آه يا شهيرة..

في لوعة كبرى أجبته:

- زياد.. ما بيننا..

اتسعت ابتسامة زياد الساخرة، ليقول في صوت لا أنساه:

- ما بيننا؟! لا شيء بيننا.. لا شيء كان ولا شيء يكون.. ولكن إن أبكاك سأقتص منه يا شهيرة.. سأقتص منه..

كان قلبي لحظتها كقطعة خبز تحترق بعد أن شطروها نصفين.. شطر يفكر في رؤوف ووالدي وما عساه بينهما يدور، وشطر يحترق خجلًا من زياد ولا يعلم كيف أو ماذا يقول له..

ولكن اليوم وأنا أتذكر كلماته.. أجدني أسأل نفسي: من منهما أكره؟ وعلى أيهما أبكي؟ وأينا نحن الثلاثة تحق عليه اللعنة والقصاص؟!

* * * * *

كلاهما أحب الآخر.. وكلاهما كان يحبني بصدق، وأنا كنت في هواهما معًا حتى النخاع غارقة.. رؤوف عبد الجواد ومدحت عبد الرحمن أصبحا صديقين، وأصبحت الخطوة الباقية والطبيعية هي زيارة توفيق عبد الجواد لمنزلنا، والتي حددا لها موعدًا.. يوم جاء، بلغت أنا قمة توردي وسعادتي.

النجاح.. التفوق.. الألقاب.. كل الأشياء لا تسعد قلب المرأة كما يسعدها أن تشعر أنها عروس.. عروس لرجل تحبه، ولا رجل أحبته امرأة كما أحببت أنا رؤوف..

كان مساء هانئًا، كل شيء فيه في بيتنا بدا هادئًا لامعًا، وعلى أطرافه ابتسامة.. حتى المقاعد وقطع السجاد البسيطة في بيتنا رأيت يومها على سطحها ابتسامة.

في الثامنة مساء دخل رؤوف، يتقدمه توفيق عبد الجواد بقامته الطويلة وخطواته الجادة؛ حيث وقف والدي يصافحه في ترحاب كبير.. كنت أرقبهما من خلف باب غرفتي كما كانت تفعل بنات الستينيات.. في هذه المواقف لا شهادة ولا حتى عمر يصنع فارقًا.. في هذه المواقف المرأة تعود إلى فطرتها.. عذراء ترقب اتفاق تسليمها إلى رجل، يمتلك جسدها واسمها وما بقي من أيام عمرها..

حين عبروا إلى غرفة الاستقبال، أغلقت الباب خلفي وعدت أنظر إلى مرآتي للمرة العشرين بعد المائة.. كنت أرتدي يومها قميصًا من الصوف الأزرق على بنطلون كحلي اللون، في قدمي وضعت حذاء من اللون الكحلي الداكن.. شعري الثائر المجعد أخضعته في ذاك الصباح، وللمرة الأولى في عمره لمكواة مصفف الشعر؛ ليبدو ناعمًا مسترسلًا في غزارته وكثافته على كتفي، بل جاوزهما إلى منتصف ظهري بفعل المكواة.. وجهي مررت عليه ببعض مستحضرات التجميل، التي بدأت أعرف ألوانها وأشكالها.. ابتسمت وأنا أسأل نفسي أي نظرة سأراها على وجه رؤوف، عندما يرى شعري بهذا الاستسلام والنعومة..

شحذت من صدري نفسًا عميقًا، وأنا أخرج من غرفتي وأخطو نحو غرفة الاستقبال.. كنت خائفة وكنت أيضًا أسأل مم الخوف.

رأيت توفيق عبد الجواد قبل اليوم ورآني، وأنا وهو نعلم سبب الزيارة.. أعرف رؤوف ويعرفني كما يعرفه أبي وأعرفه.. مم الخوف والخجل إذًا؟!

تقدمت ودخلت ونهض توفيق عبد الجواد من على مقعده، ومد كفه يصافحني، وقال بابتسامة صغيرة:

- كما أتيتِنا أتيناكِ!!!

* * * * *

كان الاتفاق الذي تم بين والدي ووالد رؤوف أن تتم الخطبة بعد شهر من لقائهما الأول.. كان والد رؤوف يريد أن يقيم حفلًا كبيرًا في أحد الفنادق.. لكنه تراجع عن مطلبه، عندما شعر أن والدي كان له تخطيط آخر.. كان واضحًا أن توفيق عبد الجواد يريد أن ينفق ببذخ، وكان من الواضح أيضًا أن والدي يريد أن تسير الأمور في خطى هادئة بسيطة.. الرجلان كان بينهما احترام كبير متبادل.. توفيق يعرض في سخاء، ووالدي يرفض في حزم وكبرياء..

الخطبة يجب أن تتم في منزل العروس وعدد المدعوين بسيط، يقتصر على أقرب الأقرباء.. وفي الستة شهور التي تلي الخطبة، سيتم تنظيم حفل الزفاف الذي أعلن والدي أنه سيقتسم تكاليفه مناصفة مع رؤوف ووالده.

رؤوف أخبرني أنه أبدًا لن يدع والدي يفعل هذا، وأنا لم أملك إلا أن أوافقه الرأي، بعد أن علمت أن حفل الزفاف الذي يريده والده قد تصل تكلفته إلى ما يجاوز النصف مليون جنيه..

الأمر الآخر الذي كان حقًّا يؤرق والدي، ويتمنى لو نجد منه مخرجًا هو ما أعلنه رؤوف لنا هو ووالده من أننا سنسكن المنزل ذاته، الذي تسكنه عائلة توفيق عبد الجواد.

والدي اعترض بشدة.. لكن توفيق عبد الجواد أعلن أنه سيشتري شقة يسجلها باسمي؛ لأشعر أنا ووالدي بالأمان والثقة.. لكن يجب أن أحيا معهم في المنصورية.. أعلن توفيق أن منزلهم في المنصورية يكفي أكثر من أربع أو خمس عائلات كاملة، وأنه يوم اشتراه كان يعلم أن كلًّا من رؤوف وطارق سيتزوجان ويقيمان فيه، أضاف في ثقة أنه أيضًا كان يعلم أنه ستكون لكلٍّ منهما عائلة وأطفال وأيضًا خصوصية، تم مراعاتها بحرص في بنائه للبيت، وكانت آخر جملة قالها توفيق عبد الجواد في ذاك اليوم:

- أستاذ مدحت.. مساء الخميس المقبل أنت وشهيرة ستتناولان العشاء معنا في المنصورية.. إن لم يعجبك الوضع.. عندها نتحدث في وضع آخر، لكن أرجوك لا تقل قرارًا حتى نلتقي!

جاء الخميس، وكان الشتاء مازال مشهرًا خناجره في وجوه سكان مصر، ووقفت أضع معطف الصوف على جسد والدي، وعدت إلى غرفتي ألتقط حقيبتي وأضع بعضًا من قطرات العطر على عنقي وحول معطفي.. إنها المرة الأولى التي نذهب فيها إلى بيت رؤوف، والذي غالبًا سيصبح بيتي معه.. كما أنها أيضًا المرة الأولى التي سألتقي فيها طارق أخاه الأصغر، وهي أيضًا المرة الثانية التي ألتقي فيها رؤوف وحولنا جدران بعد تلك المرة التي التقيته فيها في بيت «جزيرة الذهب».. دومًا أبحث عن فرصة، نختلي فيها ليضمني.. أبحث عن مكان يسمح لنا بعناق أو لمسة يد أو قبلة سريعة.. نظرت إلى مرآتي وابتسمت في خجل.. هل أفكر في عناق وقبلة وأبي وأبوه معنا؟ وأين؟ في منزل والده؟! لكن ما العيب في هذا؟ أسابيع وتتم خطبتنا وشهور ويتم زواجنا..

تحت معطفي، كنت أرتدي بلوفر في لون حبة كرز بيروتية، وجوب صوفية من اللون الزيتوني الداكن وجوربًا شفافًا وبووت قصيرة.. شعري كان ثائرًا كثورة أشواقي إلى لمسة من رؤوف.. أغمضت عيني في خجل.. تعجلت خروجي من غرفتي إلى خارج البيت، حيث كان والدي في انتظاري في سيارته لننطلق معًا في رحلتنا إلى المنصورية، ورمقت بعيني علبة «الشوكولا» الأنيقة التي أحضرها والدي لنأخذها إليهم.. لقد أصر على شرائها من المكان ذاته الذي حملوا إلينا منه الحلوى يوم زيارتهم.. لقد أخبرني أنه دفع ما يقارب الألف جنيه ثمنًا لها.. ورغم هذا فلقد قام باختيار صحن كريستال أصغر مما جاءوا هم به!!

كان الطريق طويلًا وبعيدًا من مصر الجديدة إلى المنصورية.. وبين كل حين وآخر، كان والدي يعلن دهشته وثقته بأن حياتي في المنصورية قرار مستحيل.. كيف أذهب إلى كلية الصيدلة حيث عملي ورسالة الدكتوراه؟! كيف أحضر إلى الصيدلية؛ حيث يجب أن أكون أيضًا كل يوم؟! وكيف حقًّا لا أراه ولا يملأ بوجهي عينيه كل يوم؟!

كان يسأل في هدوء.. لكن حسرته كانت واضحة وذعر قلبه كان جليًّا، كنت أنا أردد حلول رؤوف في اقتناع كأنني بكل ما يقول مسحورة.. قلت إن رؤوف سيوفر لي سائقًا، وإن الأيام التي لي فيها محاضرات سأعود إلى المنصورية في حوالي الثالثة عصرًا، وهي ثلاثة أيام أسبوعيًّا،

وفي الأربعة أيام الباقية سأعمل في الصيدلية في التوقيت ذاته، وأعود إلى المنصورية في الخامسة، وهو التوقيت ذاته الذي يعود فيه رؤوف إلى البيت.. كنت طوال الطريق أتحدث إلى والدي عن أن وجودي مع رؤوف ووالده في البيت سيعفيني من كل مسئوليات الزوجة.. فلا طعامًا أعده، ولا بيتًا أرتبه، ولا شيئًا يقتضي مني لحظة عمل داخل المنزل.. وأذكر أن والدي لحظتها قال في ألم كبير:

- شهيرة.. الصيدلية أربعة أيام فقط؟! بعد أن كانت هي الأيام والأحلام.

وبكلمات رؤوف، وربما بصوته أجبت:

- زياد وعدني أن يحضر دكتورًا آخر.

لكن مدحت نظر إلى وجهي قائلًا:

- إنها صيدلية شهيرة وأنا؟! أنا؟! تسكنين على بعد كل هذه المسافة.. الإرهاق سيقتل رغبتنا في اللقاء.. الإشفاق سيجعلني أرفض حضورك والإرهاق سيجعلك تستصعبينه!!

أنت في الحب لا تسمع إلا صوت ما تريد، وإن تحدثت تحدثت بصوت من تحب.. المسافة ليست عائقًا، والتعب ليس عائقًا، وأنا أريد أن أكون حيث يريدني رؤوف أن أكون.. وجودي معه حيث يريد سيمنحني القوة، التي أقطع بها المسافات، وأكون بها في الجامعة وفي الصيدلية، ومع مدحت عبد الرحمن وأيضًا في المنصورية بين ذراعي رؤوف عبد الجواد!!

كنت أسمع عن سكان المنصورية وعنها بعض القصص.. لكن لم أتخيل أن أراها كما رأيتها مع والدي ذاك اليوم.. المنصورية بدت في عيني كأنها قرية في ريف مصر.. لكنها قرية لا بيوت فيها، بل قصور كبيرة تقف على جنبات طريقها الضيق الطويل.. ووقفنا على بوابة قصر الأحرار، الذي فتح لنا أحد رجال الأمن بوابته ليسأله والدي في سذاجة أين نقف بسيارتنا، وقال الرجل في هدوء إن الطريق إلى البيت مازال طويلًا..

سارت السيارة داخل حدود البيت.. سارت ما يقارب العشر دقائق؛ لنقف بعدها في ذهول كبير، أمام ثلاث فيلات بنيت على شكل مثلث: الكبرى هي رأس المثلث والصغريان هما زاويتاه الباقيتان.. كان أكثر ما لفت نظري ونظر والدي هو جسور من الزجاج المغلق الذي يمتد من كل فيلا إلى الفيلا الأم.. كانت الفيلا الكبرى وحدها أضواؤها مضاءة، بينما كانت أضواء خافتة بسيطة تنبعث من كلا الفيلتين الأخريين، وقبل أن يفيق أحدنا من ذهوله بالمكان، صاح والدي وهو يقول:

- ألا يبدو هذا البيت كسجن الكاترز الأمريكي؟!

كنت غارقة في ذهولي، ولم أعلم إن كانت سخرية أم نكتة أم هي كلمات أطلقها بلا وعي.. لكن في صدري شعرت بشيء ينقبض ويغوص في الخوف.. بيت رؤوف بدا في عيني ليس قصرًا.. لكنه بدا مقاطعة تعزلها الجدران عن العالم الخارجي، أو ربما.. ربما كان مدحت عبد الرحمن على حق.. بيتهم هو سجن جزيرة الكاترز الشهير، الذي لم يستطع سجين الهرب منه يومًا..

اقترب والدي من مدخل الفيلا الكبرى؛ حيث لمحنا رؤوف ووالده يقفان في انتظارنا، ونفضت رأسي كأنني أحاول أن أساعد الدم على الحركة في عروقي، بعد شعوري بتجمد قطراته جميعها على جدرانها.

هبطنا إلى أرض مقاطعة عبد الجواد، وتقدم توفيق نحونا في ترحاب كبير مشيرًا بكفه إلى أحد الواقفين حول مدخل الفيلا الأم، الذي تقدم بدوره إلى والدي ليتولى أمر السيارة، واستعاد والدي بعضًا من وعيه ليعود إلى السيارة، ويخرج منها طبق الشوكولا الذي أحضرناه، ووضع رؤوف كفه في كفي؛ لنتقدم جميعنا إلى داخل قلعة توفيق عبد الجواد الكبرى..

كان بهو الفيلا كبيرًا وقطع الأثاث كانت كثيرة ومتناثرة في كل مكان وتقدمنا نجلس في أحد أركان البهو الكبير، وجلست إلى جوار والدي لأرقب في هدوء أشجار الحديقة الخلفية، التي تطل من الزجاج الكبير الذي أحاط بالمكان بأكمله.. وألقيت بعيني إلى كفيَّ الملقاتين على فخذي في شيء من الألم.. أنا في اللحظات الأولى في بيت توفيق عبد الجواد لم أنبهر.. لم أشعر بالثراء أو الأناقة.. أنا شعرت في تلك اللحظات بشيء من الخوف وكثير من القلق.. حتى الأضواء كانت خافتة، رغم كثرة الثريات المشنوقة والمتدلية من أسقف المكان.. شعرت أن في هذه القلعة أسرارًا تحاول أن تخبئ رؤوسها القبيحة، وأن كل هؤلاء الرجال الذين يتحركون داخل أو خارج حدود القلعة ما هم إلا حراس، يشهرون أسلحتهم في وجهها، إن حاولت الهرب أو التسلل خارج الجدران.. لكن صوت رؤوف أشعل الأضواء المطفأة وقتل الخوف وكمم شفاه انقباضة قلبي

وعروقي، وسمعت لحنًا صغيرًا يعاود الخروج من أضلعي.. وابتسمت في صفاء وأنا أبادله الحديث، وعاد توفيق يشرح لوالدي كيف أنه لا يرتدي داخل بيت المنصورية سوى الجلباب والعباءة، وابتسم والدي هو الآخر في سكون، عندما سمع توفيق عبد الجواد يقول:

- سأبقى فلاحًا يا أستاذ مدحت.. من الشرقية جئت وبعاداتها سأحيا وأموت.

لم يكن قد مضى على أحاديثنا وقت طويل، حين ظهر طارق الأخ الأصغر لرؤوف.. لكنه حين تقدم نحونا، سكتت الأحاديث جميعها، وظهرت على وجنتيْ توفيق ابتسامة راقصة كبيرة.. كأنه كنز يهدى إليه، أو ملك يهبط عليه، وسمعت صوته مجلجلًا بالفرح وهو يصيح:

- طارق.. الدكتور طارق ابني، ومسئول التسويق والمبيعات في شركة الأحرار..

نهض والدي يصافح طارق.. ونهضت أنا أيضًا ليقف أمامي بابتسامته الواسعة يصافحني في أدب كبير، وشعرت بعيني طارق تتسلل إلى عينيّ بنظرة ثاقبة ثابتة، كأنه يرسمني في رأسه قطعة قطعة، وأرخيت عيني وهو بعد ما أرخى عينيه، وسمعته يقول:

- إعجابي برؤوف يزداد كل يوم.. اختياراته دومًا دقيقة وناجحة.. أهلًا دكتورة شهيرة.

بنظرة سريعة حوله مد طارق أصابعه إلى أحد المقاعد، وقام بحملها إلى جوار مقعد توفيق ليجلس إلى جواره، ونظرت إلى رؤوف الذي يجلس على أحد المقاعد في فضول، كأنني أبحث عن صدى ما فعله طارق.. لكن لا شيء وجدت..

الأشياء تبدو غريبة فقط على من لم يعتادوها.. أنا أيضًا اعتدت بعد حياتي في ذاك البيت ألا أرى طارق يجلس إلا إلى جوار والده.. حين ظهر طارق أمسك بخيوط الأحاديث والكلمات، وأصبح يلقيها في الاتجاه الذي يحب ويجمعها من حيث يريد.. طارق عبد الجواد بدا في عيني ذاك اليوم كبيت أبيه وكتشبيه أبي.. سجن الكاترز.. تلك الجزيرة الرائعة في سان فرانسيسكو.. خضرتها.. أجواؤها.. زهورها وزرقة مياهها.. قطعة فنية رائعة من الجمال.. لكنها في النهاية تبقى سجنًا، ينفى فيه ويموت على أرضه أجمل ما على الأرض.. الإنسان!!

بعد تناولنا العشاء الذي تعددت ألوانه وأصنافه، قال توفيق في هدوء:

- سيد مدحت.. هل تمانع في جولة بداخل البيت، وفي الفيلا المخصصة لسكن رؤوف حتى نبدأ في التجهيزات..

رفع والدي رأسه نحوي، كأنه يسألني إن كنت حقًّا مازلت أقبل الحياة معهم.. ورفعت أنا عيني أنظر في وجه رؤوف؛ لأرى عينيه تبتسمان في صفاء، وأغمضت عيني في استسلام، فهمه والدي لينهض عن مقعده، ونبدأ جولتنا في البيت الذي أصبح بيتي، وليته ما أصبح أو كان..

اعتذر طارق عن مصاحبتنا متعللًا بارتباطه بموعد هام، وودع والدي وعاد يصافحني، وعادت عيناه البنيتان تنظران إلى عيني النظرة الثابتة القوية ذاتها، وهز كفي في قوة، وهو يصافحني قائلًا:

- كيف أشكرك.. سيصبح في بيتنا امرأة أخيرًا ليست كالنساء.. إنها أجمل وأرق امرأة رأتها عيني..

وعاد ينظر إلى رؤوف ثم قال:

- مبروك يا رؤوف.. شكرًا على هذه الزهرة التي تزرعها في حديقتنا.

انطلق طارق خارج البيت وعيناي تتبعانه في وجوم.

تجولنا في الدور السفلي للفيلا الأم، والذي كان بأكمله مجموعة من الصالونات، عدا ثلاث غرف مغلقة إحداها: غرفة نوم عمي توفيق، والثانية غرفة مكتب كبيرة مساحتها حوالي ستة أمتار في سبعة أمتار.. كانت حوائطها كلها مغطاة بأرفف هائلة من الكتب.. دائرة المعارف البريطانية كاملة، كانت على أحد الحوائط، وكتب أخرى كثيرة في الطب والصيدلة.. كل ما يمكن أن تتمناه من كتب كان هناك.. كتب بالعربية والإنجليزية وأيضًا الفرنسية، وقال توفيق إنهم جميعًا يحبون القراءة، وإن غرفة المكتب هذه تعمل أربعًا وعشرين ساعة بالتناوب بين رجال البيت الثلاثة، وابتسم وهو يضع ذراعه حول كتفي قائلًا إن الكتب نفسها يراها هو سعيدة بأن امرأة ستحيا في البيت وتلمسها بأصابعها..

كانت الغرفة الأخرى البعيدة تقع في نهاية ردهة قصيرة، تفتح بعدها الباب لترى غرفة واسعة كل حوائطها زجاج كوربيه يصل حتى حدود السقف تقريبًا، يطل من خلفه حمام سباحة كبير.. لم نكن رأيناه حينها، وبداخل الغرفة الكبيرة، وفي أحد أركانها أريكة من القطيفة الفيروزية اللون ومقعدان وطاولة صغيرة.

الغرفة كانت واسعة جميلة.. ربما كانت وحدها في ذاك البيت التي على شفاهها ابتسامة.. نظرت إلى فراشها الوثير الكبير، قال رؤوف

هامسًا في أذني بحنان:

- إنها غرفة للزوار لكن أحدًا لم يسكنها، وأحدًا لم ينم على فراشها ليلة.

عدت أنظر إلى فراشها في دهشة.. من يؤثث غرفة كهذه ويضع فيها فراشًا كهذا ولا يدعو يومًا ضيفًا أو زائرًا.. ابتسمت وأنا أنظر إلى وجه والدي وعينيه، اللتين وقفتا هي الأخرى على فراش الغرفة لحظات..

ترى هل كان مدحت عبد الرحمن يعلم أو يشعر أنه سيموت على ذاك الفراش؟!

في الدور العلوي كانت غرف نوم رجال البيت الثلاثة، حول بهو كبير على يمينه باب كبير من خشب الأرو، يقابله باب آخر له اللون نفسه والحجم نفسه على الجهة اليسرى، وقال توفيق:

- الباب الأيمن هو الذي سندخله.. يقود إلى فيلا رؤوف ابني الأكبر..

وعاد يبتسم وهو يقول:

- أو لنقل فيلا شهيرة..

فتح توفيق الباب الضخم لنخطو على جسر معلق له سقف أسمنتي وجوانبه من ألواح «البولي كربونايت» الشفافة الداكنة اللون.. وبعد خطوات طويلة، فتح توفيق بابًا آخر كالباب الأول، وأشعل الأضواء لندخل على الفيلا التي عشت فيها قصتي التي أكتبها اليوم..

الباب يقود إلى ردهة.. دخلنا بعدها إلى بهو كبير، بدا في عيني كغرفة معيشة كبيرة، وفي أحد أركانه «أوفيس كبير» مجهز ببعض الأجهزة الكهربائية لإعداد طعام إفطار أو عشاء سريع، ونوافذه جميعها تطل على حدائق مقاطعة عبد الجواد كما يحلو لي أن أسميها، ودخلنا إلى الغرف.. أربع غرف مغلقة، إحداها «ماستر» بحمامها الخاص وغرفة ملابس وركن معيشة صغير..

وقبل أن نهبط إلى الدور السفلي، ابتسم عبد الجواد، وانحنى يهمس في أذني قائلًا:

- لكما غرفة وثلاث لأحفادي.. ذكور يا دكتورة.. نريدك أن تبقي دومًا المرأة الوحيدة في هذا البيت!!

حين هبطنا إلى الدور السفلي، وجدته نسخة مصغرة من الفيلا الأم، وخرجنا من باب الفيلا السفلي لنرى حديقتها، والتي كانت شبه منعزلة عن حدائق البيت، وعن حديقة فيلا طارق، عدا بوابة حديد واسعة تسمح بخروج أو دخول السيارات إلى الفيلا.

وقال توفيق مخاطبًا والدي:

- شهيرة ستحيا في بيتها الخاص.. لا شيء يربطها بنا سوى الجسر العلوي، الذي ستعبره كل يوم هي ورؤوف لتناول وجبة العشاء معي..

عاد ينظر إلى رؤوف، وأكمل قائلًا:

- منحناهم العمر.. هل يبخلون بوجبة واحدة نتناولها معًا كل يوم؟!

ابتسم والدي في حنان، وهو ينظر في عيني.. كأنه يسأل ما الذي بقي مني له بعد العمر والحب والعطاء.

حقًا أنت تمنح كل شيء لأبنائك، ولا تأخذ منهم سوى لحظات.. لحظات قد تفرضها عليهم، كما فرضها توفيق عبد الجواد بذاك الجسر الذي بناه، أو لحظات قد تستجديها أو تسرقها أو تحلم بها، كما يفعل مدحت عبد الرحمن!!

* * * * *

في غرفتنا بماريوت القطامية، انحنيت أنا لألتقط قميص نومي، الذي وضعته على فراش الغرفة قبل هبوطي إلى الاحتفال.

أمسكت به بين أصابعي في حنان، ثم استدرت أنظر إلى مرآتي وأنا أخلع طرحة زفافي في هدوء وأنا أفكر.. هل آخذ حمامًا دافئًا قبل تبديل ملابسي، أم أن هذا سيمحو ماكياجي الرائع؟ وابتسمت في خجل أكبر.. أيهما أهتم به.. ألوان صبغت بها وجهي أم مياه نقية أغسل بها جسدي، قبل أن أمنحه للرجل الذي أحب.. انتفض جسدي وأنا أتخيل ما يجب أن يكون بيني وبين رؤوف بعد لحظات.

إن نحن تخيلنا الجنس تصيبنا الدهشة من لهفتنا وسعينا إليه.. ولكن نداء خفيًا في روحي، كان يدعوني إليه ورغبة لا حدود لها تطوي روحي، وهي تتمنى انقضاء اللحظات لأكتشف حقيقة الجنس.

عدت أنظر خلفي أبحث عن رؤوف، الذي اختفى بعد دخولنا إلى الغرفة في «حمامها» وابتسمت في نقاء.. ربما أرادني أن أبدل ملابسي وحدي حتى لا يصيبني الخجل منه.. لكن ما أصابني لحظتها كان دهشة لا حدود لها، وأنا أرى رؤوف يخرج من حمام الغرفة؛ ليقف أمامي مرتديًا بنطلونًا من الجينز وسويت شيرت بيضاء حيث صاح قائلًا:

- شهيرة.. بدلي ملابسك بسرعة.. سنخرج من هنا حالًا!

قبل أن أقول كلمة أو أسأل سؤالًا عن أين نذهب في الرابعة صباحًا، تقدم رؤوف إلى خزانة ملابس الغرفة، وأخرج بعد لحظات بنطلونًا من الجينز الأزرق وسويت شيرت حمراء، كنت قد أتيت بها الفندق قبل الزفاف، ثم قال وهو يلتقط حذائي الأبيض الرياضي:

- بسرعة يا شهيرة.. بسرعة!!

لم أعلم ماذا أقول أو أفعل سوى أنني التقطت الملابس التي في يد رؤوف، وأسرعت أنا الأخرى نحو حمام الغرفة؛ لأقف أمام مرآتها أفكر..

ما الذي يفعله رؤوف، وإلى أين يريد أن نذهب الآن؟! عادت طرقاته على الباب تفيقني، وهو يطلب مني الإسراع لأخلع ثوب زفافي وأرتدي ملابسي.. حملت الثوب بين أصابعي لأخرج إليه؛ حيث التقط ثوب زفافي ملقيًا به على الفراش بسرعة، وجذب كفي بين كفيه ليركض بي نحو مصعد الفندق.. وحين دخلنا المصعد قلت لاهثة:

- رؤوف.. إلى أين؟!

صاح ضاحكًا:

- مع رؤوف لا أسئلة..

مررنا على موظفي الفندق، حيث قال رؤوف على عجل:

- سنعود بعد الغد.. إن اتصل بنا أحد قل إننا لا نستقبل أي اتصالات.

لم ينتظر إجابة.. عاد رؤوف يجذبني من يدي، ويركض وركضنا معًا خارج الفندق في جنون.. كأننا نهرب من شيطان أسود يلاحقنا، وصاح «الدورمان» يسأل رؤوف إن كان يريد إحضار سيارته، وركض بي رؤوف إلى موقف السيارات ليدخلني إلى سيارته المزدانة بشرائط وزهرات ورد صغيرة، ثم قاد سيارته في سرعة كبيرة حتى وصلنا إلى «نادي اليخت» ذاك؛ لينطلق بعدها باللنش وأنا إلى جواره غارقة في ذهولي ودهشتي.. وقبل أن يدير المحرك، أخرج هاتفه الصغير، وسمعته يقول كلمة واحدة هي «الآن».

وصلنا إلى بيت الجزيرة وعاد رؤوف يركض بي نحوه، وأنا أنظر في ذهول.. وقفت في لحظة، وأنا أصيح في ذعر قائلة:

- رؤوف.. انظر.. البيت يشتعل..

وقف رؤوف مكانه لننظر معًا إلى نوافذ البيت الزجاجية.. كان خلفها أطياف لهب بدا في عيني، كأنه حريق، وانحنى رؤوف يحملني بين ذراعيه قائلًا:

- شهيرة.. إن كان هذا حقًا حريقًا.. هل تدخلين معي؟!

نظرت إلى وجهه القريب من وجهي وأنا محمولة على ذراعيه وأغمضت عيني، وأنا لا أعلم ماذا أقول.. هل حقًا نذهب إلى النار مع من نحب؟!

دخل رؤوف البيت وأنزلني من بين ذراعيه لأصيح صيحة أخرى أكثر دهشة، وأنا أنظر حولي.. البيت كله شموع صغيرة، تتراقص شعلاتها في حنان وباقات زهر كثيرة في كل مكان، وأوراق ورد متناثرة على أرض بيت الجزيرة، ورقصت في عيني دمعات، وأنا أستمع إلى صوت موسيقى خافت حانٍ، يتسلل إلى أرواحنا؛ حيث قال رؤوف:

- شهيرة.. سنشهد شروق الشمس معًا من أحلى مكان في الأرض.. هيا بنا..

خرجنا من الباب الأمامي لبيت الجزيرة؛ لنجلس على حشائش الأرض الخضراء ورأينا الشمس تشرق من قلب نيل القاهرة الساحر، وقال رؤوف في حنان، وهو يضمني بين ذراعيه:

- شهيرة.. اليوم نولد وهنا في هذا النقاء.. هنا في هذا البيت الذي لم يدخله سواكِ معي ستولد امرأة غايتي إسعادها والحياة معها وحدها حتى آخر العمر.. هل تُشهدين الشمس معي على هذا؟!

أغمضت عيني على كتفيه قائلة:

- أشهد خالقها وخالقي أني سأحيا وأموت بين ذراعيك!!

* * * * *

هل يغفر لنا الله الأيمان الكثيرة التي نقسمها ونشهده عليها ثم ننكث بها؟! هل يغفر الله حقًّا الذنوب جميعًا حتى أكبرها وأصغرها بعد كل ما يمنحنا ويمتعنا به؟!

لا أعلم لكن أذكر كلمات والدي عندما كان دومًا يقول: «إنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون».. أنا الآن يائسة حتى النهاية فهل يعني يأسي هذا أنني أصبحت منهم؟!

ما خطيئة عمري الكبرى؟ ما ذنبي الأكبر؟ أنني أقسمت بالله وحنثت بأيماني، وأراني اليوم قد أموت بعيدًا عن ذراعي رؤوف، أم أن ذنبي الأكبر أنني أحببته حتى الجنون، وأخلصت له حتى الغباء.. لكنه رجل يستحق الحب والوفاء.. وها أنا أستعيد اليوم تلك اللحظات كأنني أحياها من جديد.. كيف أخذني رؤوف أول مرة.. كيف شهدت بين ذراعيه مولدي كامرأة تفتّح جسدها واشتعلت شهوتها، واغتسلت بماء حبه وجسده حتى الثمالة!!

أخذني على لهيب عشرات الشمعات الصغيرة تلك.. أخذني والشمس مازالت تفتح عينيها، وترفع أذرعها الذهبية الصغيرة في كسل على السماء، خارج نافذة بيت الجزيرة..

أخذني وأخذته في لهفة مجنونة جعلتني لا أرتوي من أول مرة.. أذكر أنني ما تركته يغادر جسدي لحظة قبل أن يعاود رحلة أخرى بداخله.. أمسكت به بأناملي وشفاهي وذراعيّ حول جسده في عشق بلا حدود ورغبة بلا أطراف..

لا تصدق عذراء أو امرأة قالت إنها تألمت من العشق.. ما يؤلم النساء هو الجفاء والجفاف إن ضاجعن دون هوى..

ما لا أذكره حقًّا هو تلك اللحظة حين هدأنا، وغادر فيها كل منا جسد الآخر.. لحظة لا أذكرها كأنها ما كانت.. ما أذكره منها أن الشمس كانت تغمر بيت الجزيرة وكانت أجنحتها ترقص من خلف زجاج النوافذ حيث غفونا عاريين، دون أن يغطينا شيء سوى نشوتنا، التي أرهقناها فدغدغت أجسادنا لنغفو كزهرتين صغيرتين، سقطت إحداهما فوق الأخرى.

* * * * *

في اليوم الثالث، عدنا إلى الفندق قبل موعد الخروج منه بلحظات.. لملمنا أنا ورؤوف أشياءنا متوجهين إلى المنصورية.. إلى بيتنا وتوفيق وطارق عبد الجواد؛ لنجد مائدة غداء كبيرة في انتظارنا، وهدية رقيقة من والدي ومن عمي توفيق.. توجهنا بعدها بساعات إلى المطار، وفي طريقنا توقفنا جميعًا بمنزل زياد ووالدته؛ حيث يقيم هو وزوجته العروس التي رأيناها لأول مرة.

ضممت عزة زوجة زياد إلى صدري في حنان، وأنا أعتذر عن عدم استطاعتنا تنسيق المواعيد، لأكون معها في زفافها، وتكون معي في زفافي..

كانت رقيقة هادئة جميلة.. لكن في عينيها لاح شيء كالحزن والانكسار.. لم أر فيهما أبدًا جبروت فرحتي ولا انطلاقة سعادتي.. ضممت أيضًا والدة زياد وشكرتها على دعواتها الكثيرة لي بالسعادة، ثم ضم رؤوف «زياد» في حب، وهو يخبره أنه أصبح أخًا ثانيًا له، كما كان دومًا أخا لي.

في المطار ضمني والدي إلى صدره في حنان، وعادت عيناه تترقرقان بدمعهما من جديد، كأن قدره مني بعد زواجي هو الدمع والوداع..

قبل أن نختفي في صالة المطار الداخلية، ضم مدحت عبد الرحمن «رؤوف» إلى صدره وسمعته يقول:

- رؤوف.. منحتك روحي.. حافظ علها وأعدها إليَّ بخير!!

يقولون إن باريس أجمل عواصم العالم.. يقولون إنها مدينة النور.. يقولون إنها مدينة الحب.. ربما كانوا على حق.. لكن أنا رأيتها أجمل من كل ما قالوا..

أنا ورؤوف لم ندع بها مكانًا إلا وذهبنا إليه.. لم ندع بها مقهى إلا وزرناه.. في كل مكان لمسته أقدامنا تبادلنا عناقًا وقبلة.. في كل شارع تبادلنا عهدًا.. تحت قوس النصر قبلني.. في حدائق فرساي ضمني.. في متحف اللوفر أضفنا ألوانًا من الفرح على كل لوحاته الشهيرة.. حتى كنيسة النوتردام نالت حظها من مباركة حبنا وطهر خطواتنا.. اشترى لي رؤوف أشياء كثيرة.. ملابس وعطورًا.. هدايا وصورًا لا حصر لها.. وفي ليلتنا الأخيرة بأحد أجمل فنادقها «بلازا أتينيه»، ذابت أجسادنا أحدها في الآخر، ككل الليالي قبلها وكل الليالي بعدها.

وكعادتنا وبعد أن هدأت أجسادنا، سقطنا كزهرتين صغيرتين إحداهما فوق الأخرى، نظر رؤوف من زجاج نافذة غرفتنا، وأنا مازلت ألتقط أنفاسي على صدره ثم قال:

- شهيرة.. غدًا نعود إلى مصر.. ستعودين إلى الجامعة وأعود إلى العمل.. تعودين إلى الصيدلية وأعود إلى الشركة ومشكلاتها.. هل نبقى بهذا التوهج؟!

قبلت صدره العاري قبلات كثيرة، وأنا أقول:

- بهذا التوهج وحده نعود إلى كل هذه الأشياء.. بهذا التوهج نصنع نجاحًا أكبر وتألقًا أكثر!!

* * * * *

لا العمل ولا الجامعة ولا تمزقي بين المنصورية ومنطقة مصر الجديدة كان هو الغريب أو المرهق.. المرهق الحقيقي هو الحياة في قلعة المنصورية..

قلعة الأحرار لا نساء فيها سواي.. لا امرأة تدخلها أو تخرج منها.. كل العاملين فيها من الذكور.. وحين سألت عمي توفيق ذات يوم، ونحن على مائدة العشاء، عن إمكانية استبدال الشاب الذي يتابع شئون بيتي بامرأة؛ لأني لا أشعر بالارتياح لدخول شاب إلى غرفة نومي، وجمع ملابسي الخاصة للتنظيف أو المكواة، أجابني في هدوء أنه سيتعين عليَّ أن أقوم وحدي بالأشياء التي لا أتقبل قيامه بها.. وعندما أخبرته أن هناك سيدة في منتصف العمر، أثق بها وأريدها أن تقيم معي في بيتي، نظر إلى عيني في حزم كبير قائلًا:

شهيرة.. المستحيلات في هذا البيت ثلاثة: أن تلتحق زوجة من زوجات أبنائي بالعمل في شركتنا، ألا نلتف حول مائدة العشاء يومًا، أن تدخل امرأة للعمل في بيتنا.

عاد ينظر إلى وجه رؤوف وطارق وثبت عينيه في عيني المفتوحة قائلًا:

- المستحيل يا شهيرة.. المستحيل..

بلا وعي مني، قلت في شيء من التهكم:

- وهل من المستحيل أيضًا أن أعرف السبب..

بالحدة ذاتها وربما بحدة أكبر، قال توفيق عبد الجواد يومها:

- يا دكتورة.. النساء تدمر كل شيء.. الرجل له امرأة واحدة في حياته.. إن أصبحتا اثنتين تدمرت حياته.. حتى إن كانت الثانية زميلة في عمل أو حتى خادمة في المنزل.. هذا البيت سيبقى.. وهذه العائلة ستستمر لأن حول كل رجل من رجالها امرأة واحدة فقط أو لا امرأة على الإطلاق!!

كيف نضع في رؤوس أطفالنا ثوابت يحافظون العمر عليها، ويسيرون على نهجها دون تغيير أو تفكير؟ مازلت حتى اللحظة لا أعلم!!

كيف استطاع هذا الرجل أن يعلم ابنيه الالتزام بالقراءة في غرفتها؟ كيف استطاع أن يجمعهما حول مائدة العشاء كل يوم؟.. كل يوم عدا الأيام التي يسمح هو باستثنائها دون نقاش منهما أو تدخل.. لا أدري.. وكيف.. كيف حقًّا أصبحوا رجالا بلا نساء؟ وهل حقًّا تدمر النساء كل شيء؟!

لا أعلم.. لكن ربما كان توفيق عبد الجواد على حق!!

أيام طويلة وأنا أفكر في كلماته، ورؤوف يضحك وهو يسمعني أسأله كيف فعل كل هذا، ولا يجيب.. حتى طارق سألته ليضحك دون إجابة.. حتى والدي سألته، فضحك قائلًا إن الديكتاتورية أحيانًا وحدها تصنع تاريخ الأمم.. بدأت أنا الأخرى، مع الشهور، أعتاد نظام قلعة المنصورية، فأنا أبدًا لا أفكر في العمل معهم، وأنا لا يضيرني قدسية القراءة أو موعد العشاء..

أنا يكفيني حب رؤوف ووالدي ورفقة زياد وزملائي في الجامعة وأساتذتي..

أنا امرأة لا يسعدها أن يكون حولها أكثر من رجل.. لكن يسعدها أن يسكنها رجل واحد، من أجله ألفت حياة القلاع!!

الحياة بعد شهور من الزواج اختلفت.. بدأ التعب يسكن أوصالي من الركض إلى منطقة مصر الجديدة؛ حيث الجامعة والصيدلية ومنزل أبي والعودة إلى قلعة المنصورية البعيدة؛ حيث رؤوف وبيتي وأوراق الدكتوراه، لكن بقي في غرفة نومي دواء كالسحر.. كان هناك ذاك الشاحن الذي تغفو عليه هواتفنا الصغيرة ليلًا؛ لنتمكن من نبحها من جديد، والركض بها طوال النهار..

في غرفتي بقلعة المنصورية، يوجد مخدعي الذي أستلقي عليه كل مساء؛ ليتم إعادة إمدادي بالطاقة والقوة، ويتم عليه أيضًا تفريغ كل شحنات الغضب والإرهاق السالبة، التي أعود بها من رحلة كل يوم..

أذكر أنني دومًا كنت أتحسس فراشي، وأنا ألقي جسدي عليه في المساء بحب كبير، وأبتسم وأنا أتذكر تلك الكلمات، التي سمعتها يومًا في

فيلم كانت بطلته الجميلة اليزابيث تايلور، التي أحبها كثيرًا وربما كان أحد أسباب حبي لها أن لون عيني كلون عينيها.. في ذاك الفيلم دقت والدة زوجها الفراش بكفها، وهي تنظر في عيني قطة هوليوود قائلة:

«المشكلات جميعًا تولد هنا وتنتهي هنا»..

أعترف أنني بقيت أعوامًا أفكر في معنى هذه الجملة.. لكن مع رؤوف علمت وتعلمت أننا حمقى إن هربنا من فراشنا وما يدور به.. المشكلات الكبرى تبدأ وتكبر، إن كان ما يدور على فراشنا لا يشبع أرواحنا وأجسادنا، والمشكلات كلها تموت وتتضاءل، أيًّا كانت قسوتها وبشاعتها، إن كان ما يدور على فراش الزوجين شيئًا يشبه ما بيني وبين رؤوف..

لماذا نهرب دومًا من الاعتراف أن الجنس هو بيت الداء، وهو أيضًا قرص الدواء؟!

لم تأخذ كل امرأة ما يمنحه لها الرجل وتستدير لتنام في صمت وقهر وهي تتدعي أنها لا تهتم؟!

إن الجرائم والخيانة والغضب وكل الأمراض النفسية، التي تظهر في حياة الأزواج والزوجات إما تولد على فراش زوجيتهم.. أو تموت عليها كل ليلة؛ ليستيقظا في الصباح كأنهما ولدا من جديد..

كل الألم كان على فراشنا يموت.. كل المصاعب، كل الإحباطات كانت تذوب يوميًا في لقاء فراشنا، حتى إن لم نمارس الجنس.. كان رؤوف يضع رأسي على صدره، ويحكي وكنت أضع رأسه على صدري وأحكي.. كنا نغتسل بشفاهنا ونرتوي ونتطهر بعناقنا، وإن التقت أجسادنا سكب بداخلي قوة ألقى بها الغد وأمنحه أنا ثقة ليعود هو أيضًا في الغد، ويلقاني أكثر قوة وحنانًا..

الجنس الحقيقي ليس شهوة.. الجنس الحقيقي ليس عملية تدوم لحظات.. الجنس هو روح تمنح جسدًا، وجسد يحتمل ألمًا ليمنح حبًّا وثقة وقوة تدوم، حتى بعد انتهاء اللقاء ساعات وربما أعوامًا.

هكذا أرى الجنس.. ولهذا أؤمن أن الله خلقه، وجعل منه سر بقاء الكون؛ لأنه في الأصل سر بقاء الإنسان حيًّا وإنسانًا فقط إن كان كما عرفته.. ربما لهذا أيضًا أؤمن أن الزناة يرجمون ويقتلون، ليس عقابًا لكن رحمة بهم؛ لأن الحياة بعد جنس لا حياة فيه الموت منها أرحم.. أنا أحببت الجنس وأدمنته وتعلمته وأجدته؛ لأنني أحببت الحياة وتعلمتها، وأجدتها مع رؤوف.. ويوم شاءت الأقدار أن أحمل بين أحشائي جنينًا، زاد حبي له ولرؤوف وللحياة بأكملها.. كنت سعيدة بحملي، وكنت أنتظر أن ترتفع بطني.. كأنني أريد العالم أن يشهد أنني مارست مع هذا الرجل الحياة، ومن حبه أصبح في أحشائي حياة أخرى تنبض وستحيا هي الأخرى..

رؤوف أيضًا كان سعيدًا كسعادة والدي وطارق ووالده الذي قال لي في ابتسامة صغيرة إنه يتمنى لو أنجب ذكرًا.. عندما نظرت إليه في غضب منحني ابتسامة أكبر، وهو يقول:

- ظننتك تريدين البقاء وحدك سيدة المنزل وسيدة قلوب رجاله..

مازلت أذكر أنني نظرت عندها في عيني رؤوف بكل الحب والثقة، وأخبرتهما أن العالم لو امتلأ نساء حول رؤوف، لبقيت أعلم أنني وحدي سأبقى سيدة قلبه، وأن قلوب رجال الأرض لو عشقتني، ما شكل لي هذا فارقًا.. وحده رؤوف ووحدي شهيرة!!

عزة زوجة زياد أيضًا أصبحت حاملًا.. ويوم أخبرني زياد بالنبأ، حاولت أن أهلل وأظهر السعادة لكنني كنت متعبة.. أصبح حضوري إلى الصيدلية يرهقني، رغم أن رؤوف أحضر لسيارتي سائقًا.. كنت يومها في شهر حملي الرابع وأصبحت زياراتي إلى الصيدلية متباعدة، وتقتصر على ساعة أقضيها فيها بعد عودتي من أيام محاضراتي..

حين أخبرني زياد لحظتها عن نبأ حمل زوجته، شعرت بألم يشق نصف بطني الأسفل لأسرع أجلس إلى أحد المقاعد؛ حيث ركض زياد نحوي في لهفة كبرى، محاولًا مساعدتي.. لكنني عاجلته بصرخة فزع كبرى، وأنا أشعر أن شيئًا ما يتسلل خارج جسدي، وعرفت بعدها بلحظات أنها قطرات دم كثيفة.. في لحظة شعرت أنني أموت خوفًا وذعرًا..

شعرت في لحظة أنني قد أفقد ذاك النبض، الذي تكوَّن في أحشائي من لحظات الحب الطويلة بيني وبين رؤوف، الذي حادثته على الهاتف ليتفق مع زياد على حملي إلى أقرب مستشفى؛ حتى يصل هو من مقر الأحرار بمدينة السادس من أكتوبر.. لكنني رفضت.. رفضت تمامًا أن أذهب إلى المستشفى.. شعرت أن توجهي إليه في تلك اللحظة قد يعني اعترافًا صريحًا بموت جنيني.. شعرت أن ذهابي إلى المستشفى قد

يعجل بلحظات الفراق، وكأن همي كله كان أن أحتفظ بجنيني بين ضلوعي، وإن كان ميتًا ولو ساعات أخرى.. ذهابي إلى المستشفى معناه أن أصل قبل رؤوف.. معناه أن أواجه وحدي خبر موت جنيني، ولا أنا أحتمل موته ولا أنا أحتمل أن أكون وحدي دون رؤوف.

تحاملت على نفسي لحظتها.. وطلبت من زياد أن يأخذني إلى بيت والدي حتى يحضر رؤوف ونرى ما نصنع..

صاح في جنون أن ما أفعله قد يكون خطرًا على حياتي، وأن ما حدث قد يكون إنذارًا بضرورة إسعافي.. إنذار يجب أن نحترمه.. أنا في تلك اللحظة أمسكت بكف زياد أستند عليها، وقلت بصوتي الخائف المرتعش:

- زياد.. الخطر الأكبر هو ألا أكون مع رؤوف.. لن أذهب إلى طبيب إلا ويدي في يده.. خذني أرجوك إلى بابا!!

زياد لم ينبس حرفًا بعد كلماتي تلك.. لكنه أمسك بيدي ووضعني في سيارته على مقعدها الخلفي، ورأيت في مرآة السيارة الداخلية دمعًا يرقص في عينيه، وابتسمت في حنان.. ظننته يكاد يبكي خوفًا عليَّ وعلى جنيني وفي صوت هادئ قلت:

- زياد.. أنا بخير.. لا تقلق..

رأيت عينيه في المرآة تنظران في عيني؛ ليقول في صوت يقطر ألمًا:

ألإلى هذا الحد يا شهيرة؟! إلى هذا الحد تحبين رؤوف؟!

تحسست بطني عندها في هدوء، ومن خلف زجاج نافذة السيارة رميت بعيني، كأنها تبحث عنه وقلت:

- بل أكثر.. !!

وحدي كنت الخائفة على جنيني.. والدي ورؤوف وزياد لم يفكروا لحظة في مصير الجنين، عند وصولنا إلى المستشفى، وقطرات الدم الكثيفة توالي سقوطها كل حين وآخر.. كل ما كانوا يسألون عنه هو أنا.. كل ما كانوا يهتمون به هو أنا.. بل مازلت أذكر أن طبيب النساء والتوليد عندما وصل المستشفى خصيصًا لرؤيتي، أسرع إليه رؤوف يقول:

- دكتور.. شهيرة.. أرجوك.. هي التي تهمنا.

حتى والدي كان خوفه وذعره وصلاته ودعاؤه لي وحدي، وأدركت لحظتها أن هذه الحياة الصغيرة الراقدة في أحشائي لا أحد يحبها؛ لأنه لا أحد رآها أو يعرفها.. وحدي أنا أحملها، ووحدي أشعر بها، ولهذا وحدي أتمنى الموت قبلها..

بعد الكثير من الفحوصات.. جاءنا الطبيب يعلن أن جنيني بخير، لكن يجب أن نساعد هذا الحمل على الاكتمال والنجاة.. لا عمل.. لا جامعة.. لا صيدلية.. ولا جنس!!

عدت إلى بيتي في المنصورية ومعي رؤوف ووالدي، الذي قضى اليوم بأكمله إلى جواري، يهدهدني ويصلي من أجلي، وفي موعد العشاء عبرت الجسر الزجاجي مع والدي إلى فيلا توفيق عبد الجواد؛ حيث يجب أن نكون جميعًا معًا.. ورغم أن عمي توفيق أعلن أنه بإمكاني تناول العشاء في بيتي حتى أجتاز تلك المرحلة.. إلا أنني أخبرته أن الطبيب لم يأمرني بملازمة الفراش وتناول الطعام فيه.. هو فقط أمرني بالراحة وعدم الخروج، والتعرض لهزات الطرق والسيارات..

طارق ابتسم إحدى ابتساماته الصغيرة، وهو يعلن أن طفلي مدلل، وأنه يحاول أن يخبرني أنه رجل عنيد ككل رجال عائلة الأحرار، وابتسم عندها عمي توفيق، وهو ينظر في وجه رؤوف، كأنه يشكره على أن جنيني منه مثلهم في قوتهم وعنادهم.

توجه والدي إلى بيته في العاشرة مساء، وهو يعدني بزيارتي كل يومين وحملني رؤوف على ذراعيه، ونحن نصعد درجات سلم الجسر، الذي يفصل بين بيتينا.

تلك الليلة كانت أيضًا جسرًا إلى حياة جديدة، لم أكن أعلم أنني سأحياها لولا متاعب حملي الصحية.. حياة بدأت في الصباح التالي حيث خرج الرجال الثلاثة إلى عملهم، وبقيت أنا وللمرة الأولى وحدي في تلك القلعة الكبيرة أرقب ما يحدث حولي..

من نافذة غرفتي المطلة على حدائق البيت، ولمدة أكثر من شهر تقريبًا، علمت أن الحياة في قلعة المنصورية ليست بالبساطة التي كنت أتخيلها..

هناك العشرات الذين يعملون ويختفون تمامًا بعد انتهاء عملهم.. مزارعون وعمال نظافة.. هناك أيضًا شاب يحضر مستلزمات الطعام

اليومي.. شاب لا يعبر باب البيت؛ حيث أراه كل صباح يقف على الباب الخلفي لفيلا عمي توفيق، ليخرج إليه الطاهي ليستلم منه المشتروات اليومية.. وبعد أن يتأكد من أن كل شيء كما طلبه، ينصرف الشاب حيث لا أراه إلا في الصباح التالي..

شهر كامل وأنا لا أخرج من بيتي إلا عبر الجسر لتناول العشاء اليومي مع الأحرار.. لكنه أيضًا شهر علمني أن ليس كل ما نؤمن به حقائق..

في الشهر الأول لملازمتي للبيت، علمت أن ما ظننته عن الجنس ودوره ليس بالضرورة صحيحًا..

قد يكون الجنس عماد الحياة الزوجية.. قد يغفر الأخطاء ويعيد شحن الأجساد والأرواح.. ولكن بعد أن منعنا الطبيب عنه، علمني رؤوف أن الجنس يمكن استبداله بشيء آخر له المذاق نفسه وله التأثير ذاته.. شيء اسمه الحنان..

كان رؤوف حانيا على في تلك الفترة العصيبة.. كان يعود من عمله مرهقًا متعبًا لكنه كان يعلم أن الملل يأكلني والوحدة تفترسني، فلا زوار ولا أنشطة يمكنني القيام بها.. لا شيء سوى أوراق الدكتوراه وقراءة الكتب والمجلات..

بعد خروجه من حمامه اليومي، كان يقفز إلى فراشنا ليضمني في لهفة كأنه غاب دهرًا، ويحكي لي الكثير من الأشياء عن يومه وعن شوقه وتفكيره في هذا العنيد المدلل، الذي سجنني في فراشي، وسجنه ليمنعه من الاقتراب مني.. كان يضحك في حنان، وهو يهمس في أذني أنه سيأخذ مني، ويعطيني ألف لقاء حب وألف ألف نشوة أخرى..

في ذاك الشهر، رأيت أشياء ما رأيتها من قبل، وإن كانت أمام عيني.. في ذاك الشهر رأيت رؤوف يحمل إليَّ كل يوم كتابًا أو رواية.. فيلمًا أو مرجعًا.. وكل يوم يحمل لي قطعة حلوى كأنني طفلته التي يعود إليها بعد غياب.. في بعض الأيام، كانت تنتابني حالات من العصبية والثورة على سجني داخل بيتي، فأنهار باكية في جنون أخبره أنني حتى لم أعد أريد هذا الجنين، الذي يسلبني حقي في ممارسة الحياة والعمل والخروج إلى الهواء، ويسلبني حتى حقي في جسد رؤوف.. رؤوف وحده كان يعلم أنني أكثر ظمأ منه إليه.. كان في ليال كثيرة، يحاول أن يصل بي إلى نشوتي دون أن يخالف تعليمات الطبيب.. كان يصل بي إلى ما اشتقت إليه عن طريق الحنان..

نعم.. الحنان يغنيك عن الجنس، بل أنا في ذاك الشهر علمت أن الجنس لا يغني عنه حتى إن كان كاملًا ناجحًا.. أما الحنان فهو يغني عن كل النواقص في أيامنا ودروبنا.

في الشهر الأول، عرفت أيضًا عزة كما لم أعرفها من قبل.. أصبحت تزورني مرتين في الأسبوع، رغم حملها هي الأخرى.. عرفتها ورأيتها عن قرب.. أحسن زياد اختيارها.. سمراء جميلة حانية صوتها هادئ وكفها حنون.. لكنها كانت نادرًا ما تبتسم، وقليلًا قليلًا ما سمعتها تضحك..

عزة كانت تأتيني في الصباح؛ حيث كان يذهب إليها السائق ليحضرها.. وفي بعض الأيام كانت تحضر مع والدي، دومًا تغادر البيت في الرابعة عصرًا؛ حتى تتمكن من الوصول إلى منزلها للاهتمام بوالدة زياد وقت وجوده في الصيدلية وشئون بيتها.

عزة كانت بسيطة.. حتى في ملابسها، لم تنه حتى تعليمها الجامعي.. لكنها كانت قارئة رائعة تنتقي أجمل الكتب والروايات، كان ما يثير دهشتي هو لمحة الحزن التي أراها في وجهها رغم جمالها وصباها.. ورغم أن زياد هو زوجها، زياد بوسامته ونجاحه ووضعه المادي، الذي أصبح جيدًا بعد عمله معنا.. على وجه عزة دومًا حزن وفي عينيها شيء كالدمع.. وبعد أسابيع من زياراتها الأسبوعية، بدأت عزة تفتح صندوق قلبها الأسود، وتخرج لي بعضًا من أسراره الداكنة.. هي يتيمة.. والدها هو خال زياد وأمه هي التي كانت تنفق عليها طوال إقامتها في بيت عمها، خال زياد، الأكثر فقرًا منهم، والذي يسكن أحد الأحياء الشعبية البعيدة.. كانت طفولتها صعبة، لم تتنفس فيها إلا في الأيام التي كانت تذهب إلى بيت عمتها والدة زياد، والتي كانت أيامًا قليلة لأن والد زياد رحمه الله لم يكن يرحب بها كثيرًا.. عزة أخبرتني أنها منذ طفولتها كانت تحلم بأن يصبح زياد زوجها، وكانت والدته دومًا تعلن أملها في أن يتم ذلك.. لكنها وحدها كانت ترى في عينيه أنه لا يريدها ولا يحلم بها.. أخبرتني عزة أنها كانت تلميذة متفوقة.. لكنها لم تستطع أبدًا إكمال مراحل تعليمها.. عمها كان فقيرًا ولديه من المسئوليات والأعباء ما يجعلها حتى تخجل من التصريح بأحلامها، وعمتها كانت بالكاد تنفق على زياد وشقيقته؛ خاصة بعد التحاق الأول بالصيدلة.. أخبرتني عزة وهي تبكي أنها ما تمنت إنهاء تعليمها والحصول على شهادة جامعية إلا لتقترب من زياد أكثر، وتصبح أكثر جدارة به.. لكن ما سمعها أحد وربما لأن أحلامها وآمالها وتفوقها المدرسي.. كان قصتها وحدها التي لا تغادر صندوق قلبها الأسود، كما كانت تطلق عليه..

أشفقت على عزة كثيرًا وأحببتها أكثر، وحاولت أن أخفف عنها شعورها بظلم الأقدار.. قلت لها في ذاك اليوم إن الله ما نسيها، وإنها إن لم

تكمل تعليمها، فقد أعطاها الله أغلى ما تتمناه.. أعطاها زياد..

عزة رفعت عينيها المشروطتين الدامعتين لتنظر في عيني بألم، وهي تقول:

- شهيرة.. زوجتني عمتي زياد لكنه ليس معي.. ليس معي أبدًا.. هو يحب امرأة أخرى..

آه كم كانت شهقتي جريحة عندما قالت كلماتها تلك.. شعرت أن الأرض تدور بي.. انتابني ألم وذعر حقيقي، كأن عزة كانت ترفع أصابعها وتشير إليّ وتحملني أطنان حزنها.. هل تعنيني أنا؟! هل تقصدني أنا؟! ولكن هل أنا حقًّا مازلت في قلب زياد.. منذ تلك الليلة التي قال لي فيها تلك الكلمات.. ومنذ قال إننا سننسى كل حرف قلناه كأنه لم يكن.. لم يقل شيئًا.. أي امرأة تتحدث عنها عزة إذًا؟!

بعد لحظات طويلة من شهقتي وصمتها، جاءني صوت عزة الرقيق قائلًا:

سمعت عمتي تعاتبه بعد زواجنا، وتطلب منه أن ينسى حبه القديم.. سمعتها تخبره أنها تراني أتعذب.. سمعتها يا شهيرة تخبره أنني نالني من الظلم ما يكفي..

أخبرها أنه يحسن معاملتي وأنه تزوجني ليرضيها.. تزوجني إرضاءً لأمه وليس أبدًا إرضاءً لقلبه.

أمسكت أنا بيد عزة في تلك اللحظة بإحدى كفيّ.. ويكفي الأخرى مسحت دمعاتها قائلة في صوت حازم:

- قلب زياد رقيق والقلب الرقيق يتملكه الحب والحنان.. عزة أنتِ تنبضين حبًّا وحنانًا.. ستأسرين قلبه.. صدقيني.. زياد له قلب رقيق.. وله رأس عادل.. يحب الحق ومن يحب الحق لا يظلم.. زياد إن كان ما قلته صحيحًا أصبح لك أنت.. أنت زوجته.. أنت من تحملين بين أحشائك طفله.. أنت الأقوى يا عزة.. إياك والانكسار.. إياك والبكاء على نفسك.. قلب زياد أمامك.. كل ما عليك أن تجعليه يرى كفك، وهي تمتد لاحتواء هذا القلب.. بحبك سيرى أن لك كفًّا يستطيع أن يلقي بقلبه بين أصابعها.. عزة هل تسمعين؟!

كانت صامتة ودمعها ينساب في هدوء على وجنتيها، وأغمضت عينيها، ثم ألقت برأسها على كتفي، وهي تقول:

- أتمنى لو يبادرني بعناق.. أتمنى لو يفاجئني بقبلة.. لو يبدأ أي شيء معي.. أي شيء حتى إن كان عراكًا صغيرًا..

ضممت عزة إلى صدري، وأنا أقول:

- بادريه أنت.. ابدأي أنت.. علّميه.. علمني رؤوف كل شيء.. لا تدعي الكبرياء تقف بينكما.. عزة أنت امرأة رائعة.. صدقيني..

سيدتي تلك اللحظة.. كانت هي اللحظة التي سمعت فيها اسمك للمرة الأولى.. مازلت أذكر جيدًا كيف حاولت عزة لملمة حزنها قائلة:

- بالأمس قرأت مقالة عن الكبرياء.. قالت كاتبته إن الكبرياء أبدًا ليست قوة.. قالت إن الكبرياء ضعف كبير؛ لأنها تقف بيننا وبين من نحب، ونتذرع نحن بها مبررين فشلنا وإخفاقنا عن تحقيق آمالنا.. سأحضره لك في المرة القادمة.. بل سأحضر لك كل مقالاتها.. أنا أحب هذه المرأة وأحب كلماتها..

نعم كنت أنت يا سيدتي تلك الكاتبة التي تحبها عزة زوجة زياد التي أحضرت لي بعضًا من مقالاتك، التي تحتفظ بها في زياراتها التالية، وقرأت لي كلماتك وأحببتها أنا حب عزة لها وربما أكثر.. طلبت من رؤوف أن يشتري كتبك كلها، ومنحت إحدى رواياتك لعزة، وبدأت في قراءة الثانية.

في اليوم الذي بدأت فيه قراءة روايتك، لم أجب عن مكالمات رؤوف؛ لأنني حقًّا لم أسمعها.. كنت بكل حواسي بين سطور أبطالك وبين حروف أسمائهم ومشاعرهم ونبضاتهم.. في ذلك اليوم شعرت بطرقات عنيفة على باب بيتنا ونهضت بتثاقل عن فراشي، وروايتك معلقة بين أصابعي لأرى من عساه يطرق بابي بهذا الإصرار.. كان أحد عمال النظافة في بيت عمي توفيق، يخبرني أن أحادث رؤوف على الهاتف في أمر مهم..

قبل أن أسأل لماذا لجأ إلى العاملين في المنزل، أمسكت بهاتفي الصغير وكتابك أيضًا مازال معلقًا بأصابعي لأجد أكثر من عشر مكالمات، جاءتني من رؤوف لم أرد عليها أو حتى أسمعها، وجاءني صوته يصيح في خوف يسألني إن كنت بخير عندما أجبته أنني أقرأ، وأنه يجب أن يقرأ ما تكتبين قال ضاحكًا:

- أخذتك من الوحدة يا شهيرة.. لكنها أيضًا أنستك رؤوف.. لا أعلم هل أحبها أم أكرهها!

هل يحبك رؤوف أم يكرهك؟ هل أحبك أنا أم أكرهك؟ وهل حقًّا تقرئين قصتي؟ وهل تحضرين؟ وإن حضرت هل تجدينني أم أن الموت سيسبق

حضورك؟ مازلت أرجوكِ.. إن سبقك الموت سيدتي لا تحزني وأبدًا لا تلومي نفسك.. هو القدر..

* * * * *

يقولون إن العدل معصوب العينين حتى لا يفرق بين عزيز وذليل.. لكنني أرى أن العدل يجب أن يكون مفتوح العينين ليرى ما لا نراه نحن جميعا.. القدر سيدتي وحده هو معصوب العينين، وإلا بماذا تفسرين مئات اللطمات القاسية التي تسقط على رؤوس الأبرياء؟ بماذا تفسرين الاتهامات الجائرة التي تلوث الأنقياء، وهم لا علم لهم أو حيلة؟

بل مازلت حتى اللحظة لا أعلم بماذا أفسر ما حدث في تلك الليلة، التي أصابني فيها الأرق لأصحو قرب الفجر وأتحسس بأصابعي مكان رؤوف إلى جواري ولم أجده.. في البداية ظننته في غرفة المعيشة، أو يأكل شيئًا من ثلاجة المطبخ.. نهضت عن فراشي بقيمص نومي الأبيض العاري الظهر والذراعين أناديه.. لم استيقظت؟ لم بحثت عنه؟ لم لم أبق في فراشي أنتظر ظهوره لأسأله عن اختفائه؟

وضعت قدمي في قطعة الساتان البيضاء، وبلا وعي فتحت باب البيت الذي يقود إلى الجسر الذي يربط فيلا سكننا بفيلا عمي توفيق.. خطوت نحو بيت عمي توفيق، ورفعت عيني أنظر إلى السماء من خلف سقف الجسر المصنوع من «الليكسان» الشفاف الأشبه بالزجاج وتوقفت عن السير لحظة.. شيء ما في وجه فجر السماء ما أعجبني.. شيء في وجه الفجر يومها أخافني واستدرت بجسدي لأعود إلى بيتي.. الجسر في بيت عمي توفيق يفتح بابه على الدور العلوي، مثلما يفعل في بيتي، وليس من اللائق أبدًا أن أفتح الباب في لحظات الفجر الأولى على ردهة غرف النوم.. وأنا بقميصي العاري وشعري الثائر، ثم من أين كان لي أن أجزم أن رؤوف هناك.. ربما خرج لأمر طارئ من باب فيلتنا السفلي..

يجب أن أعود.. وجدت نفسي أنظر إلى وجه سماء الفجر.. لكن كأن شيئًا فيها يسيطر على أنفاسي ومشاعري.. ووحده يقود خطواتي، كأن خيوط الضوء التي بدأت تصارع الظلام لتغتاله وترفع رايات نصرها على ظلمة السماء تقودني إلى ما نسميه «القدر»..

عدت بجسدي إلى طريق بيت عمي توفيق، وفتحت الباب الذي يقف على ردهة صغيرة، تقودك إلى صالة المعيشة الصغيرة التي تقع في الدور العلوي.. نظرت حولي لأجد كل شيء ساكنًا هادئًا.. لابد أن عمي توفيق وطارق نائمان.. لا يمكن أبدًا أن يكون رؤوف هنا..

عدت أتحسس ذراعي العاريتين بأصابعي في خجل.. يجب أن أعود قبل أن يشعر بي أحد، وفي اللحظة التي استدرت فيها للعودة سمعت صوت أقدام تركض في الدور السفلي، وسقط قلبي بين أصابع قدمي، وأنا أحاول أن أختبئ.. قد يكونون لصوصًا.. قد يشعرون بي.. قد يقتلونني ويقتلون جنيني ولا أراه أو يراني.. واندفعت أحتمي بحائط السلالم.. لو تأخرت لحظة في الحضور.. لو تأخرت لحظة في النوم أو الاستيقاظ.. لو لم أنظر إلى وجه الفجر على أرض السماء.. لكنه «القدر»..

تسرب إلى أذني صوت رؤوف، وهو يصيح في جنون قائلًا:

- لن تخرج.. لن تخرج.. سنعود معًا إلى غرفة المكتب.. يجب أن نجد مخرجًا.. لماذا تصر على قتلي؟ لماذا يا طارق؟!

كان رؤوف يصيح في جنون، ولم أكن اسمع صوت طارق.. لكنني كنت أشعر كأنه جسد يقاوم جسدًا.. كأن جسدًا يحاول الهرب والآخر يحاول العودة به، وعاد صوت رؤوف يزأر رغم أنه كان يحاول أن يخفضه قائلًا:

- لو استيقظ أبي وعلم بصدور الحكم قد يموت.. طارق ادخل..

سمعت صوت الأخير للمرة الأولى، كأنني أسمعه حقًا للمرة الأولى في عمري.. سمعت طارق يقول:

- إن لم تتركني سأوقظه أنا.. رؤوف.. لا تبالغ.. الحقيقة ستظهر في الاستئناف.. اتركني الآن.. أنا لا أعرف شيئًا.

سمعت طارق يخرج، ووقفت أحبس أنفاسي، وأنا مازلت مستندة إلى حائط السلالم التي تفصل بين الدورين العلوي والسفلي.. كان قلبي يدق في جنون.. وكان رأسي يحاول أن يجد معنى للأحرف والكلمات، التي سمعتها أذناي.. لكني سمعت شيئًا أقوى وأكثر عنفًا وشراسة.. سمعت ما أطبق على صدري وسحق عروقي..

بعد أن أغلق طارق خلفه باب البيت، سمعت رؤوف يبكي بكاء حارًا مريرًا.

لماذا نهرب؟! لماذا نختبئ؟! لماذا لا نقف في صلابة ونواجه العواصف؟ لماذا نهرب من خوفنا؟ لِمَ لم أركض إلى رؤوف وأضمه إلى صدري؟! خجلت أن يرى رؤوف أنني سمعت نحيبه المرير، أم ترفعت لأنه ما لجأ إليّ وأخبرني بما يؤله.. لا أعلم.. كل ما أعلمه أنني عدت في أكثر خفة

استطعتها إلى بيتي.. عدت أركض على الجسر، وما إن وصلت بيتي حتى ألقيت بجسدي على فراشي متظاهرة بالنوم.. كانت كل قطعة في جسدي ترتجف وترتعش وأذناي لا تسمع سوى بكاء رؤوف ونحيبه.. وأخذت أتساءل هل يعود أم تراه يخرج ليلحق بطارق ويتركني وحدي في حيرتي وخوفي.. ولكن ألست أنا من اختارت الحيرة والخوف.. لو أنني هبطت إليه.. لو أني ناديته..

مرت أكثر من ساعة، وأنا أنتفض على فراشي، قبل أن أشعر به يستلقي إلى جواري؛ حيث فتحت عيني ونظرت إليه قائلة:

- رؤوف.. أين كنت؟!

وأيضًا بالحماقة ذاتها وبالغباء ذاته، قلت كأنني أساعده هو الآخر على الهرب من الإجابة:

- هل ذهبت إلى الحمام؟!

مد رؤوف ذراعيه ليأخذني بينهما، وقال في صوت مجهد:

- شهيرة.. ساعات قليلة ويأتي موعد العمل.. ساعديني كي أنام..

اعتدلت في فراشي، وأخذت رؤوف على صدري، وصوت بكائه ونحيبه مازال يدوي في عروقي، وقلت هامسة:

- كل شيء سيصبح بخير.. كل شيء..

جاء والدي في ظهيرة اليوم التالي لزيارتي، بعدما طلبت منه أن يحضر لأمر مهم، جلس معي يشرب كوبًا من الشاي في تراس بيتي، المطل على حدائق فيلا توفيق عبد الجواد.. وحكيت له كل ما كان، وكل ما سمعت.. أخبرته أنني خائفة حزينة لأني لم أستطع مواجهة رؤوف.. لم افترضت أن رؤوف قد يغضب إن ظنني أتبعه، أو أتتبع خطواته؟ هل أخافني غضب رؤوف، ولم يوقظني بكاؤه ونحيبه؟!

استمع والدي إلى كل حرف قلت، ووضع كوب الشاي على الطاولة الصغيرة قائلًا:

- شهيرة.. أصبحت هذه العائلة جزءًا منا.. توفيق عبد الجواد في مقام والدك، وطارق هو أخوك، وقريبًا سيصبح عمًّا لابنك.. شهيرة بين هؤلاء الرجال الثلاثة أمور لا نعرفها، وأمور لا يريدون هم أن يعرفها أحد.. لكن ما أستطيع أن أجزم به هو أن رؤوف مختلف.. هو ليس في عنادهم أو صلافتهم.. تحدثي إليه.. اخبريه أنك لم تواجهيه بما سمعت لأنك ظننت أنه وحده سيخبرك.. أخبريه أن الفضول ليس أبدًا ما يحرك قلبك ولسانك.. أخبريه أنه الحب.. أخبريه أنك أبدًا لا تودين معرفة أي تفاصيل، وأن كل ما تريدين سماعه هو أنه بخير..

قد يكون الأمر شيئًا بسيطًا في العمل.. أنت تعلمين كم يرفضون أن يعرف أحد شيئًا عن عملهم.. أخبريه أنك قلقة على رؤوف الزوج والأب، وأنه إن قال إنه بخير، ما على الأرض شيء آخر يهم!!

* * * * *

الأعاصير أبدًا لا تدق النواقيس!!

إنها الحقيقة.. الأعاصير تهب في لحظة.. تفاجئ من ينامون على فراشهم في غفلة، وتقتل من يبتسمون حتى قبل أن يغلقوا أفواههم.

هب الإعصار قويًا في بيتنا.. كل شيء تغير في اليوم ذاته.. في اليوم ذاته عاد الأحرار الثلاثة والإعصار يلف ملامحهم الساكنة.. عادوا لنجلس كعادتنا على مائدة العشاء.. لا أحد منهم ينظر في عيني الآخر.. لا أحد منهم، حتى رؤوف لم يسألني عن أحوالي أو قراءاتي أو حتى موعد الزيارة القادمة للطبيب، والتي قد يحررني فيها من سجني داخل قضبان قلعة المنصورية.. عندما سألت لم يجب أحد، وعندما أعدت الأسئلة وألححت.. رفع عمي توفيق رأسه، وأخبرني في اقتضاب أنها مشكلات في العمل.. مشكلات اعتادوها، ويجب أن أعتاد أنا ظهورها وأيضًا يجب ألا أسأل عنها..

كانت كلماته باردة قاسية ما احتملتها خاصة بعد بكاء ونحيب رؤوف، الذي مازال صوته يدب في عروقي.. قذفت بالملعقة إلى صحني، ونظرت إلى رؤوف في غضب حقيقي، وعدت أنظر إلى عمي توفيق في لوم كبير، وسألته إلى متى أبقى.. لا شيء في هذا البيت.. إلى متى أحيا وأنا أجهل كل شيء؟.. في ثورة كلماتي تذكرت كلمات أبي ووصاياه الصباحية، وعدت أوضح أنني لا أهتم بتفاصيل العمل ولا أريد الخوض فيها.. لكن إن هي حملت وجوههم إلى البيت بهذا الجمود، فأنا لي كل الحق بأن أسأل وأن أسمع إجابات.. التفت أنظر إلى رؤوف، وأنا أصيح:

- رؤوف.. ما الذي يحدث؟! إلى متى سأبقى هكذا.. لا أعلم شيئًا عن أي شيء؟

نهض عمي توفيق عن مقعده، وهو يقول في صوت صاخب:

- حتى الموت يا شهيرة.. حتى الموت.. أنت زوجة وأم.. زوجك وشئونه مع ابنك القادم هي ما تملكين.. عدا ذلك ملك لنا وحدنا حتى الموت.. موتي أو موتك أيهما أقرب..

صعقتني الكلمات وصعقني صمت رؤوف، وصعقني أيضًا ما فعله عمي توفيق لحظتها، حين أشار بيده إليهما قائلًا:

- اتبعاني إلى غرفة المكتب.

تبعاه وتركاني دون كلمة وذهبت إلى غرفتي في صمت، أستعيد كل ما دار وحدث وبقيت على حالي ساعات طويلة، دخل بعدها رؤوف إلى جواري وامتد الصمت بيننا دقائق طويلة.. كنت أبحث عن كلمات، وكنت أنتظر كلمات، وأظنه هو الآخر كان يبحث وينتظر.. ولكن ما أراح أحدنا الآخر، وبعد أكثر من عشرين دقيقة نهضت أنا عن فراشي، وسقطت على ركبتي وحملت وجه رؤوف بين كفيّ، وقلت في صدق:

- رؤوف.. هل أنت بخير؟!

كأنه توقع أشياء أخرى.. كأنه كان ينتظر أسئلة أخرى.. ورغم أن هذا السؤال لم يكن ما أعنيه، لكنه وحده خرج من شفاهي ورأيت عيني رؤوف التي أحبها مغلقة بدمع هادئ.. رأيت عينيه تضمان عينيّ في حنان، وشعرت بكفيه تحملاني من تحت ذراعي لينهض ويقف بي، ضمني إلى صدره، وشعرت بجسده يهدأ بين ذراعيّ كأنه يستعيد سيطرته على أجزائه، وقال في صوت حانٍ:

- لا تسأليني الآن عن شيء.. ضميني إليك بكل قوة الحيرة والخوف التي تسكنك.. ضميني يا شهيرة بقوة غضبك من والدي، ولهفتك على وليدك.. ضميني أرجوكِ..

شعرت به مكسورًا يريد أن يجبر كسوره بأصابعي.. شعرت به في تلك اللحظات محمومًا تنتفض أوصاله، ولا يعلم إن كان يبحث عن الدفء أم هو من الحمى يهرب.. ضممته في جنون.. ضممته إلى صدري حقًا كأنني أضم جريحًا، أو أخبئ محتضرًا من الموت، وعدت أتمتم:

- هل أنت بخير؟!

سمعته يهمس:

- من أجلك.. سأحاول أن أكون.. سأحاول. فقط ضميني يا حب العمر!!

رؤوف ما كان بخير.. ورغم أنه لم يخبرني شيئًا، إلا أن كل شيء في ظرف أيام أصبح معلنا ومكتوبًا على صفحات الجرائد..

أتى الإعصار.. إعصار هائل.. كأن أرض مصر ما ضربها إعصار قبله.. وكأن ثورة ما قامت على أرضها.. كأن كل قصة أخرى ماتت أو لم تولد.. كأن كل قضية احترقت أوراقها وملفاتها، وما بقيت سوى قضية دواء شركة الأحرار.. علمت أن عمي توفيق له أعداء كثيرون ونافذون.. أعداء كانوا ينتظرون سقوط الضحية، كما يقولون ليخرجوا خناجرهم، التي ما توقفوا أبدًا عن شحذها في انتظار اللحظة ليرشقوها في قلب الضحية، التي كانت على رؤوسهم أعوامًا طويلة..

رؤوف عبد الجواد صدر ضده حكم بالحبس ثلاث سنوات لقضية الدواء الشهيرة.. صدر ضده حكم الدرجة الأولى، وكان غيابيًّا لأنه لم يحضر الجلسة حسب نصائح المحامين، ولم يكن عمي توفيق يعرف بموعد الحكم.. لكنه كان يعرف بأمر القضية.. ظنوها ستنتهي بالبراءة، كما أكد لهم المحامي، لكن صدر الحكم بالسجن ثلاثة أعوام على رؤوف؛ لأن تقارير المعامل المركزية تؤكد أن الدواء المضبوط مغشوش، ولا يعالج ما صنع له، بل به مواد ضارة قد تؤدي إلى الإصابة بالفشل الكلوي والعقم..

رؤوف توقيعاته على أوراق استيراد المواد الخام.. ورؤوف وحده توقيعاته هي المعتمدة والموجودة على مطابقة الدواء للمواصفات، بوصفه مسئول الكواليتي في شركة الأحرار.. ظن الثلاثة أن المحكمة ستبرئه.. لكن صدر الحكم ضده، وتم تقديم أوراق الاستئناف، وتسربت الأخبار إلى الصحف والجرائد، وأصبح رؤوف عبد الجواد وشركة الأحرار للأدوية آل كابون العصر وقتلة الزمان على أرض مصر..

طارق ورؤوف ما استطاعا أن يخفيا النبأ عن عمي توفيق، ولا استطاع هو معهم إخفاءه عن الرأي العام بعد دخول القضية إلى محكمة الاستئناف.. رؤوف إن تم تأييد الحكم سيسجن ثلاثة أعوام، وستنهار سمعة شركة الأحرار..

رؤوف في أيام قليلة زاد عمره أعوامًا كثيرة.. لكنه ما فقد هدوءه وحنانه أبدًا.. أخبرني أن يدًا خفية هي المسئولة عما حدث، وأن الاستئناف حتمًا سيثبت طهارة يده من القصة.

عمي توفيق في بداية الأمر كان قويًّا صلبًا كما اعتدته.. وربما أكثر صلابة وقوة.. بقي يرفض الحديث في هذه القضية، وكل ما قاله لي إنها زوبعة تعترض تاريخ الأحرار، وإنها ستنتهي في فنجان صغير من الحكمة.

طارق وحده بدا في عيني مختلفًا.. أصبح غيابه عن المنزل أكثر وأحاديثه أقل، وتعليقاته لا معنى واضح لها.. لكن في عينيه كان شيء جليّ واضح يتكون.. شيء لا أفهمه لكني ما أحببته أبدًا..

أصبح بيت عمي توفيق ناديًا صغيرًا، يجتمع فيه أكبر ثلاثة محامين في مصر.. ثلاثة أسماء كنت أظن أن دخول أحدها إلى مكان ما يتطلب ثروة بأكملها.. كان الثلاثة يجتمعون في بيت عمي توفيق كل ليلة في الأسابيع الأولى، وبكل الصرامة والوضوح أعلن عمي توفيق أنه حتى لا يقبل وجودي في البيت بأكمله إن حضروا، وأنني يجب أن أكون في بيتي حتى رحيلهم وحتى عودة زوجي إلى بيتي ليخبرني بما شاء.

رؤوف كان يعود إلى بيتنا بعد انصرافهم؛ ليخبرني كل ليلة بما أخبرني به في الليلة السابقة.. الأمور ستنتهي على خير..

والدي وزياد وعزة حضروا معًا مرة واحدة في بداية الأمر.. إلا أن عمي توفيق أعلن في ابتسامة واسعة، لا ابتسام فيها، أن الأمر بسيط وتتعرض له كل الصروح الكبيرة في البلاد، وأن ما يجعل منه قصة هو الإعلام الذي تحركه أيدي منافسيه.. ولكن في النهاية الأمر كله ليس إلا فقاعة صغيرة ستتبدد قريبًا.. وقف توفيق عبد الجواد بعد أقل من نصف ساعة من زيارتهم؛ ليخبرهم أن اجتماعًا مهمًّا سيدور في غرفة مكتبه مع المحامين القادمين، وأنه يعتذر هو ورؤوف عن البقاء معهم، وبالابتسامة الباردة ذاتها، نظر إلى عيني المفتوحتين ليقول:

شهيرة.. اصطحبي ضيوفك إلى بيتك، وسأخبر الطاهي بإعداد العشاء وحمله إلى مائدة بيتك.

نهض والدي هو الآخر لحظتها في حزم؛ ليصافح عمي توفيق قائلًا:

- ما جئنا من أجل شهيرة.. لكن من أجلها سنذهب.. توفيق بك رؤوف الآن ابني كشهيرة وزياد.. في أي لحظة تشعر أنت أو هو أن لوجودنا دورًا، سنحضر في أقل من لحظة.. وحتى تلك اللحظة نرجو أن تطمئننا كلما استطعت.

حاولت كثيرًا أن أذهب بهم إلى بيتي.. لكن كان واضحًا أن والدي غضب، وكنت أعلم أنه على حق.. لكن كان الصمت في تلك الأيام هو أفضل ما أقدمه لرؤوف.. إن أنا اعترضت.. إن أنا تحدثت وأثرت مناقشة أو اعتراضًا، رؤوف وحده كان سيتألم.. وحده كان سيحمل مزيدًا من الألم والأحمال، وما كنت أراه على وجهه كان يكفي..

توفيق عبد الجواد كان هو الآخر يتألم.. كان يتألم من كل الخناجر المشهرة في وجهه ووجه أبنائه وصرح أعوامهم.. كنت مؤمنة ببراءة الأحرار من استيراد مواد خام مغشوشة.. لم أكن أرى أبدًا سببًا واحدًا يدعوهم لهذا.. ملايينهم ليست أبدًا بحاجة إلى المزيد.. سمعتهم لا تحتمل المغامرة.. أخلاقهم.. حياتي معهم.. لا شيء أبدًا يدعو للشك في براءتهم.. الأمر بأكمله مدبر، وكما قال رؤوف: الحقائق ستنجلي!!

توفيق عبد الجواد متوتر لأنه يرفض أن يشرح ويبرر أو يقسم، ويقدم الأدلة والبراهين لكل من وقف ببابه، حتى وإن كان أنا أو والدي.. عندما تتضح الحقائق.. عندما يُرد اعتبار الشركة وتبرأ ساحة رؤوف، سيهدأ عمي توفيق وسيهدأ مدحت عبد الرحمن ويتعاتبان، وننسى جميعًا هذه الأيام المريرة.. فقط نحن جميعًا بحاجة إلى ضبط النفس..

كنت مازلت حبيسة البيت، أرقب قطرات الدم التي زاد تدفقها خارج جسدي رغم دخولي إلى الشهر الخامس من حملي، وأرقب وجه رؤوف الذي يزداد أعوامًا كل يوم، وأرقب وجه توفيق عبد الجواد الذي يزداد جمودًا رغم ملامح انهيار لا يخفيها.. بدأت أتابع بعيني طارق، وأستعيد تلك المعركة التي دارت بينه وبين رؤوف، وبدأت أضع الكتب إلى جواري كل صباح ولا ألمسها.. فقط أحدق من نافذة غرفتي إلى أشجار الحدائق، وأفكر وأحاول ترتيب الأحداث.

طارق له دور في كل ما حدث.. هو يعلم أشياء، يبحث عنها رؤوف، ولكن أي فارق في هذا؟ ربما شعر رؤوف أن تهاونًا ما من جهة طارق وحده أوصل الأمور إلى ما وصلت إليه.. لا شيء واضح.. الحقيقة الوحيدة أنني لا أعلم شيئًا.. الجرائد وبعض البرامج التليفزيونية تطالب بإغلاق شركة الأحرار للأدوية.. في النهاية الأمر معروض أمام القضاء، وعمي توفيق ورؤوف يؤكدان أن القضاء سيثبت براءة الشركة من كل ما ينسب إليها، وأن شحنة المواد الخام الملوثة هي دسيسة من إحدى الشركات المنافسة، أو من أحد أعداء توفيق عبد الجواد..

هذا ما ظللت أردده لنفسي طوال الشهور الأربع، التي بقيت فيها القضية أمام محكمة الاستئناف.. أنا أردد ورؤوف يبتسم في حنان، وهو يردد معي أن العدل قد يختبئ لكنه دومًا يظهر في الوقت المناسب.. كان يبدو متماسكًا متفائلًا.. لكنني كنت أرى في شعيراته البيضاء، التي بدأت تتمكن من انتهاك رأسه.. أنه يائس.. كنت أشعر أن القضية أكبر من أن أفهمها، ولكن أنا حقًّا بدأت أفهم.. من صفحات الجرائد والبرامج التليفزيونية، علمت أن المادة الخام المستخدمة في صناعة أدوية الأحرار ليست فقط غير فعالة، كما ظننت في بداية الأمر، أو كما ظننت أنها ستكون كدواء الصرع، ذاك الذي أخضعنا أنا وزياد عينة منه للتحليل في معامل NATACAR المركزية.

القضية هذه المرة مختلفة.. القضية أكبر والمواد الخام المضبوطة أظهرت نتائج المعامل أن بها مواد مشعة قاتلة.. أدوية شركة الأحرار ليتها فقط لا تشفي المرض.. لكنها أيضًا قد تصيبهم بالعقم، وربما بالتليف الكبدي أو الفشل الكلوي الكامل.. الأمر كبير والمسئولية كلها انحصرت في رؤوف.. وحده المسئول عن قسم الكواليتي، واستيراد مواد الدواء الخام وإجراء الاختبارات عليها وإبرام صفقات الاستيراد، إن أقرت معامل الشركة مطابقتها للمواصفات.. رؤوف يقسم أن العينات التي تم تحليلها في معامل الشركة وعرضها على وزارة الصحة ومعاملها، مطابقة للمواصفات، وتخلو من المواد المشعة.. لكن تقارير وزارة الصحة تؤكد أنه، ومن معامل الشركة، تم استخراج عينات ملوثة، تختلف عن العينات التي تقدمت بها الشركة إلى المعامل المركزية، وتتطابق مع المواد التي دخلت البلاد باسم شركة الأحرار.

والدي وزياد أيضًا أخبراني أن كل الصيدليات أوقفت تعاملها معهم وأدويتهم، بل إن عزة قالت لي في حزن إنه يلزمنا من الوقت الكثير لتعود الشركة إلى سابق عهدها، بعد حصولها على حكم البراءة «إن حصلوا عليه».. هذا هو ما آل إليه الأمر.. في شهور أربعة.. كل شيء تغير.. كل شيء اختلف حتى وجه عمي توفيق عبد الجواد بقي صلبًا.. لكنه وجه من الخشب على جسد بدأ يترنح.. بدأت أرى في عينيه لمحات واضحة من القلق.. بدأت أراه يرقب وجه رؤوف بشيء من الخوف، كأنه بدأ يفقد ثقته في مصيره..

دخلت شهر حملي التاسع، ومازال الطبيب يمنعني عن الخروج أو العودة إلى ممارسة أي نشاط، سوى الذهاب إليه مرة كل أسبوعين.. حتى طبيب النساء والتوليد بدأ يستقبلني أنا ورؤوف دون ترحاب، كأنه يجلدنا بنظراته، ويخبرني أنه يشفق عليَّ وعلى جنيني من ارتباطنا برجل يحمل الدواء القاتل لبشر، لا ذنب لهم سوى أنهم مرضوا وذهبوا يشترون ما ظنوه الدواء..

أنا ورؤوف كان أحدنا يسقط بين ذراعي الآخر كل مساء في شهر حملي التاسع، وكلانا يشعر بالألم والضعف والعجز.. نحن نتألم مما نراه ونسمعه، ونتألم أكثر لأننا نعجز عن إثبات الحقيقة، التي لا أنا ولا هو نعلم أين تختبئ.. مع بداية اقتراب نهاية حملي، كنا نزداد ضعفًا ووهنًا

وعجزاً حتى عن أن يلمس أحدنا جسد الآخر.. أصبح جنيني أكبر من أن نغامر بفقده؛ لنرضي ظمأنا أو حاجتنا إلى الارتواء.. ويوم أن موعد زيارتي الثالثة في الأسبوع الثالث من شهر حملي التاسع، أخبرني الطبيب أننا لم نعد نخشى شيئًا.. أخبرني أنه بإمكاني أن أتحرك وأمشي وحتى ألتقي رؤوف.. الجنين اكتمل، ونحن الآن على استعداد كامل لخروجه إلى الحياة..

كانت بطني كبيرة ترتفع أمام جسدي، وتمنعني عن الالتصاق بجسد رؤوف كاملًا.. ورغم هذا وفي طريق عودتنا لم يكن يشغل رأسي شيء سوى تفكيري في كيف يأخذني رؤوف وكيف أرتوي منه.. رغم طول حرماني في الشهور الخمس التي مضت.. رغم ظمئي ولهفتي، لكني في تلك الليلة كنت أشعر أنني أريده لسبب آخر.. شعرت في تلك الليلة أننا يجب أن نلتقي بأي طريقة كانت.. أردت لرؤوف أن يختبئ داخل جسدي.. أردته أن يتدفأ ويحتمي ويسكب دمعًا وحبًّا كيف شاء.. أردت في تلك الليلة أن أشعر به يقتحمني ويؤلمني؛ ليزداد إيماني بأنه مازال قويًّا، وأنه أبدًا لن يضيع..

أردت في تلك الليلة أن يطلق كل منا سراح صرخة ودمعة، قد نقول إنها نشوة أو شوق.. لكنها في الحقيقة خوف واستغاثة من مجهول آتٍ لا نعلمه..

كنا نرتعد خوفًا.. أردت حقًّا أن نصرخ من خوفنا حتى وإن كان باسم الحب والجسد.

لكن عند عودتنا.. عند سقوطنا على فراشنا في تلك الليلة.. وعندما تحاملت على نفسي، وبصعوبة كبرى أدرت جسدي الذي يحمل تلك الكرة الكبيرة التي استيقظ ساكنها هو الآخر؛ ليطرق جنباتها في جنون.. كأنه أصبح يتعجل الخروج.. في تلك اللحظة استندت بذراعيّ على وسائدي، وجلست على فراشي أرقب وجه رؤوف الساكن، الذي كان يحملق في سقف غرفتنا بعيون مفتوحة ثابتة لا تتحرك..

حركت كفي على وجه رؤوف، أربت عليه في حنان وشعري يسقط على وجهي وأعود برأسي به إلى الخلف لأتمكن من رؤية عينيه.. لم يغمضهما لحظة، ولم ينظر بهما نحوي رغم لمساتي المرتعشة على وجهه.. كنت أفكر كيف يأخذني وكيف أمنحه نفسي، كما لم أمنحها له يومًا من قبل، وطالت رحلة أصابعي على وجهه.. وتحركت كل قطرة دم في عروقي تطلبه وتريده، وبصعوبة أكبر انحنيت برأسي على وجهه، وقبلت رؤوف قبلات كثيرة مجنونة رغم هدوئها.. حانية رغم سرعتها.. حزينة رغم لهفتها.. وسقطت جفوني وأنا أشعر أنني أبدًا لا أستطيع المقاومة، لو أخبروني أني سأموت إن أخذني رؤوف في تلك اللحظة، لما اكترثت مادام حقًّا سيأخذني، وفي اللحظة ذاتها أفاقني صوته، قائلًا في هدوء:

- شهيرة.. الحكم في قضيتي غدًا..

كأنه أعادني من حلم.. كأنه هبط بي من برج.. كأنه سكب ماء باردًا على حرائق قلبي وجسدي، التي ما شعرت بها يومًا كما كانت في تلك اللحظة.. فتحت عيني في تثاقل، وأنا أحاول أن أفهم وشعرت به يضع أصابع كفيه حول وجهي، ويعود بشعري الثائر، الذي كان يحاول الوصول إليه من ثوان، وأكمل في هدوء:

- الحكم غدًا.. هذا الصباح أخبرني أحد المحامين أنه من الأفضل ألا أذهب إلى المحكمة في الغد؛ لأتمكن من الهرب إن تم تأييد الحكم.. الموقف غريب يا شهيرة حتى والدي رأيته هذا الصباح خائفًا.. شهيرة..

كنت مازلت في ذهول، أخطو في رحلة عودتي من حلم لقائي برؤوف.. كنت مازلت في ذهول، أحاول ترجمة كل حرف قاله، وأكمل كلماته قائلًا:

- هناك ثغرات قانونية قد أحصل بها على البراءة.. ولكن الأوراق جميعها تؤكد تورطي.. شهيرة.. هل تذكرين دواء الصرع الذي جمعنا معًا.. كنتِ على حق.. معامل الشركة أكدت ضعف المادة الفعالة.. ظننته خطأ لكن هذه الصفقة تؤكد أن هناك يدًا خفية تحاربنا.. لا تتركي البيت.. أنا أيضًا لن أختبئ.. سأذهب إلى المحكمة وأواجه الحكم..

وهززت رأسي في قسوة عندما قالها.. لم أفهم تلك الكلمتين، أو علاقتهما بما كان يقول وقلت كأني أئن:

- رؤوف..

عادت أصابعه تعود بجسدي إلى الخلف.. كان يعلم أن انحنائي عليه يؤلمني وعاد بجسدي على الوسائد لأتكئ عليها بظهري، واستدار جالسًا بركبتيه حول ساقي، واقترب بوجهه وأصابعه على شعري حول وجهي، وقال وهو ينظر في عيني:

- لا تتركي البيت.. عديني.. إن صدر الحكم بسجني لا تتركي والدي.. توفيق عبد الجواد سينهار.. طارق أيضًا قد يضيع.. لا تتركيه يا شهيرة.. هل تعدينني؟!

كانت دموع صغيرة تتكون في عيني، وأنا أنظر إليه.. فيمن يفكر؟! وعلى من يعتمد؟! توفيق عبد الجواد؟ وهذا الصغير الذي يكاد يلامس رأسه بطن رؤوف وصدره ألا يفكر فيه؟! وعلى من يعتمد؟ عليَّ أنا.. بضعفي وخوفي وحرماني ولهفتي..

عاد رؤوف يقول، وهو يضع على جبهتي قبلة:

- شهيرة.. لا تبكي.. أرجوك.. إياك والبكاء!!

* * * * *

هناك لحظات ترى فيها أعيننا الغد بوضوح وتصفه كأنه أمس.. لكنها لا تعلم أنها الحقيقة.. هل تراه كان يعلم أنها الحقيقة، وأن الغد هو الموعد مع البكاء؟

في ذاك الصباح ارتديت ملابسي، وهبطت درجات بيتنا الأمامي.. أصبح من حقي أن أتحرك كيف شئت، ومن واجبي أن أكون معه في جلسة النطق بالحكم، على باب فيلا عمي رأيته يخرج بخطى رغم ثباتها، إلا أنها في عيني كانت ترتجف.. حتى طارق الذي كان يتبعه بدا في عيني يترنح، وانتفض وجه عمي حين رآني، وبلا مقدمات رأيته يرفع كفه الكبيرة قائلًا:

- شهيرة.. هل أنت؟!

تقدمت بخطواتي الثقيلة نحوه كأنني أرجوه أن يرحمني.. لم يكن ثقل بطني ما يؤرجحني.. كان انقطاعي عن الحركة والمشي طوال هذه الشهور يفعل.. كان خوفي وألمي يفعل.. كانت دمعاتي التي أحبسها بقسوة تفعل.. كان حرماني من لقاء الأمس برؤوف يفعل.. كانت كلمة «الحكم» تفعل وقلت، وأنا حقًّا أستجديه:

- لن أترك رؤوف يا عمي.. الطبيب سمح لي با....

صاح عمي توفيق كأنه يزأر:

- جننت يا رؤوف؟ جننت؟! هل تتركها هي وما تحمل للتعليقات.. للصحفيين.. للكاميرات.. عودي إلى بيتك.. ساعات ويعود رؤوف إليه.. سأعود به إليك يا شهيرة..

الدموع حين تسقط قد تؤلم.. قد تحرق عينيك.. وقد تحرق كبرياءك.. لكنك حين تسلسلها داخل عينيك ألمها دومًا أكبر.. استدرت أنظر إلى رؤوف لكنه كان ينظر إلى البعيد، كأنه يراني أحترق بالكلمات وعدسات التصوير، كأنه رأى نفسه وحيدًا بدوني وأنا وحيدة بدونه كأنه ممزق.. لا يعلم ماذا يقول.. تقدم عمي توفيق يجذبه من ذراعه إلى سيارته، وتقدم طارق نحوي قائلًا:

- شهيرة.. أنت لا تعلمين كيف تدور الأمور هناك.. عودي إلى البيت.. سنعود برؤوف.. سنعود به!!

شيء ما في رأسي كان يدق.. وشيء في عيني لا يرى شيئًا، وتركني رؤوف ليدخل إلى جوار عمي توفيق، وتركني طارق ليجلس إلى جوار السائق وسمعت محرك السيارة يدور، وعدت أفتح عينيَّ وأغلقهما أريد أن أرى رؤوف.. أريد أن أنظر في عينيه.. أن أرى طريقي وأذهب إلى النافذة، التي يجلس إلى جوارها.. أتحسس أصابعه وأخبره أنني في انتظاره.. أنني وعند عودته سأبكي لأتحرر من دموعي، التي تغرق فيها عروقي وتمنع عن عيني الرؤية كأنها تقتل فيها البصر.. حركت قدمي نحو السيارة وأنا لا أراها، لكنني رأيتها وهي تبتعد ويبتعد بها السائق في طريقه إلى خارج بيت المنصورية.

رأيتها تبتعد وأنا وحدي أقف!!

* * * * *

هل يعجل الخوف بالولادة.. أم أن اليأس والحزن يفعلان؟

ما إن عدت إلى بيتي واستلقيت على المقعد الرابض أمام نافذة غرفة المعيشة الكبير والمطل على حدائق البيت، حتى شعرت بآلام تهاجمني.. لم ألد من قبل.. لكن بحس الأم عرفت.. بحدس الأنثى علمت أنها آلام المخاض، وأمسكت بهاتفي.. بلا وعي وجدتني أطلب رؤوف، وقبل أن ينطلق صوت الجرس أغلقت الهاتف.. زوجي لن يستطيع أن يكون معي لا هو ولا عمي ولا حتى طارق.. عضضت على شفتي في ألم كبير، ربما لحق بي رؤوف إلى المستشفى، وحادثت والدي وقلت في انكسار:

- صباح الخير..

بدا صوت مدحت ضعيفًا بعيدًا وحوله صخب كبير، وعندما سألته وأنا أتحامل على ألمي، أين يكون قال في هدوء:

- أنا في المحكمة في انتظار وصول رؤوف.. لا تخافي.. شهيرة أنا من سيعلمك بالبراءة إن شاء الله..

كان الألم قد بدأ يهدأ قليلًا، وأطلقت ضحكة صغيرة لوالدي، وأنا أخبره أنني في انتظاره مع رؤوف لأنني أعد لهم مفاجأة.. أغلقت الهاتف ونظرت حولي في جنون.. مازالت آلام الولادة في بداياتها ولكن من أحادث ومن يأتي.. رؤوف بحاجة لهم جميعًا.. وجودهم معه يعني الكثير وخاصة وجود والدي، وقبل أن يعاود الألم طرقاته.. حادثت عزة زوجة زياد، وبعد أن أخبرتها بأن الجميع في المحكمة مع رؤوف، أخبرتني أنها ستأتي هي وزياد إلى المنصورية.. لكن بعد عشر دقائق عاد زياد يحادثني ليخبرني أنه من الأفضل أن أذهب أنا بسائقي وسيارتي إلى لقائهم في مستشفى كليوباترا؛ لأن انتظاري لهم سيضيع الوقت..

وحدي دون أمي أو أبي.. دون زوجي أو أحد من عائلته.. وحدي بكل خوفي وجهلي في المرة الأولى، التي أصبح فيها أمًّا.. حملت حقيبتي وهبطت إلى السائق.. وفتحت باب السيارة الخلفي، بعد أن حادثت الطبيب ومضيت إلى الولادة لأضع طفلي من رؤوف، في الوقت ذاته الذي كان هو فيه وحده يواجه مصيرًا مجهولًا، وينتظر كلمة قد تجرده من حريته، وقد تعيد له ولنا جميعًا شيئًا من كرامتنا واعتبارنا الجريحين.

وحدي أتألم في السيارة، وأمسك ببطني كلما واتتني آلام المخاض، وأنا أدعو الله ألا ألد في السيارة وأمام السائق.. أمسك ببطني كأنني أستبقي جنيني بداخلها حتى أصل ويصل رؤوف ليلقاه معي..

كان الطريق طويلًا مزدحمًا صرخت فيه أكثر من مرة، ودعوت فيه الله ألف ألف مرة.. لم تكن دعوة واحدة منها لنفسي أو جنيني.. كانت صلواتي ودعواتي كلها من أجل رؤوف.. أريده أن يعود.. أريده أن يلقاني، ويكون هو ووالدي أول من يريان وجه ابني الأول منه.. لكن هناك دعوات لا تجاب لحكمة، لا نعلمها ولأسباب نجهلها، وتجهلها قلوبنا ورؤوسنا..

* * * * *

أنا شهيرة عبد الرحمن.. لكني الآن شهيرة أكثر لأنني زوجة رؤوف عبد الجواد من أراد قتل الأبرياء بالدواء.. منذ ملأنا استمارة الدخول إلى المستشفى للولادة، والكثير يهمس في أذن الكثير بأنني زوجة رؤوف، بل وأنا في غرفة الولادة أتألم.. سمعت طبيبي وأكبر أطباء النساء والتوليد يهمس في أذن مساعده أن الحكم على زوجي سيصدر اليوم..

كنت حقًّا أتألم.. لكن صرخاتي كانت أقوى مما يفرضه عليَّ الألم.. كنت أصرخ وأبكي لشعوري بالمهانة والعجز عن الدفاع عن رؤوف، وعن جنينه الذي اختار ذاك اليوم ليكون مولده.. كنت أصرخ حزنا وخوفًا من ألا يعود رؤوف كما وعدني عمي توفيق.. ورغم حزن صرخاتي، كنت أعلم ألا أحد سيعلم سر حقيقتها، وأن كل من يقفون حولي سيظنونها خوف وألم امرأة تلد للمرة الأولى.. لكنها كانت حزن امرأة وذل زوجة، تتمنى أن تصل صيحاتها إلى قلب السماء؛ ليرحمها خالقها ويرحم أغلى رجل في أيامها..

سمعت طبيبي يقول:

- شهيرة.. إنه قادم.. قادم.. ساعديني..

حتى صرخاتي ما عدت أملكها.. ابني قادم.. ابني يتحرر من أحشائي، ولكن هل يأتي رؤوف؟ هل يتحرر؟

صرخة كبيرة، غبت بعدها عن الوعي بعد ذاك التخدير الذي تنفسته وأنا مازلت في غيابي أدعو السماء أن يعود رؤوف!!

عدت من غيابي، وفتحت عيني في غرفتي لأجد عزة وزياد إلى جواري.. عزة تبتسم ابتسامة صغيرة، وهي تخبرني أنني بخير، وأن طفلي هو الآخر بخير.. لم يقل أحدهم كلمة مبروك.. كأننا ندخرها لما هو أهم..

جاءت الممرضة تحمل صغيري الذي ضممته إلى قلبي، وعندما رأيت شفتيه الصغيرة تبحث عن صدري.. نهض زياد تاركًا الغرفة، وتقدمت عزة والممرضة نحوي لتساعداني على إرضاع الصغير، ووضعت سبابتي بين كفه ليطبق عليها وسقطت دموعي، وقلت دون أن أنظر إلى عزة:

- رؤوف لن يعود.. أليس كذلك يا عزة؟!

شعرت بالممرضة تربت على كتفي، وهي تقول:

- اهتمي بصغيرك.. لا ترضعيه حزنًا..

مضت خارج الغرفة ورفعت وجهي، أنظر إلى عزة في جنون ورأيت في عينيها قطرات دمع، وعدت أشهق وطفلي مازال يعتصر صدري، وقلت:

- صدر الحكم يا عزة؟! أرجوك امنحيني هاتفي..

رغم لهفتي.. رغم جنوني.. إلا أن تعلق شفتي طفلي بصدري منعني عن الحركة.. كنت أحمله على ذراعي اليسرى، وحركت ذراعي اليمنى أشير لها وأنا لا أراها من كثافة دموعي، ورأيتها تتحرك في بطء.. هي أيضًا في شهور حملها الأخيرة، واقتربت عزة مني، وهي تضع هاتفي في يدي قائلة:

- شهيرة.. عمي مدحت في الطريق!!

* * * * *

عاد مدحت عبد الرحمن وحده إلى المستشفى، ولم يعد عمي توفيق أو طارق.. بل عدت أنا إلى بيتي في نهاية اليوم، أحمل طفلي على ذراع، وبذراعي الأخرى كنت أتوكأ على ذراع والدي، الذي رجاني كثيرًا أن أعود معه إلى مصر الجديدة لكنني رفضت..

عمي توفيق يجب أن يكون أول من يرى حفيده.. أنا لن أتركه، ولن أترك البيت حتى يعود رؤوف.. رؤوف لن يعود قبل ثلاثة أعوام؛ حيث حكمت محكمة الاستئناف بتأييد الحكم.

جف دمعي، وكأنني أحاول أن أفتح عيني دون دموع لأرى وجه الحياة الآخر.. حياة لا رؤوف فيها.. حياة يجب أن تستمر ثلاثة أعوام..

كنت أبكي في صمت، ومن بين دمعاتي.. كنت أنظر إلى وجه الصغير.. قد أحتمل أنا غياب الرجل الذي عرفت وعاشرت وعشقت شهورًا طويلة، ولكن كيف يولد ويكبر ويحب طفل رجلًا لم يعرفه أو يره أو حتى تلمسه أصابعه مرة واحدة؟ كيف يكبر ويتحدث؟ ومن أين له أن يتعلم قول كلمة «بابا» ولا أب أمامه؟ من سيحمله على ذراعيه؟ من يستقبل معي من يحضرون لمباركة مولده؟

ثلاثة أعوام!! قد تمضي أعوام بلا زوج.. بلا حبيب وبلا رجل.. ولكن كيف يولد طفل ويبقى بلا أب؟

ضممت طفلي يومها إلى صدري، وأنا أنظر إلى عمي توفيق وطارق في جنون.. لا أعلم هل أحبهما أم أكرههما؟ عمي وعدني أنه سيعود به ولا عاد به ولا عاد هو نفسه.. كان يتحامل على نفسه للوقوف.. وطارق كان زائغ العينين هو الآخر..

لكن رغم جنون الحزن بداخلنا جميعًا.. إلا أني بقيت أشعر أنني حقًّا غاضبة.. حانقة عليهما، ورغم هذا لن أترك البيت أبدًا.. وعدت رؤوف أن أبقى، وسأبقى أنا وطفلي حتى يعود!!

عشرة أيام بعد عودتي إلى البيت.. عشرة أيام بعد ولادتي.. لا كلمة.. لا ابتسامة.. لا زيارة أو هدية أو حتى كلمة «مبروك» واحدة دخلت أذني، ومن عساه يفعل؟ ومن يقول؟ ومن ذاك الذي يستمتع بكلمة أو هدية وقلعة المنصورية غاب عنها أغلى شباب الأرض وأغلى رجالها؟

عمي توفيق حمل طفلي بين ذراعيه، وأثق أنه لحظتها لم يره.. في عينيه دمعات تحجب الرؤية، وفي صدره ألم يقتل الفرحة.. سألته ماذا نسميه، وقال في ألم كبير:

- ضياء عل وعسى..

أرخى عمي عينيه، وهو يعيد لي طفلي يكمل قائلًا:

- ضياء رؤوف عبد الجواد.. رؤوف سيعود يا شهيرة.. النقض جار إعداده.. لن يغيب طويلًا..

حملت طفلي على ذراعي وذهبت إلى بيتي من داخل بيت عمي توفيق، عبر الجسر العلوي، لأدخل غرفتي في اليوم العاشر، ثم ألقيت بجسدي على الأريكة المقابلة لحدائق البيت.. عشرة أيام مضت.. أصبح عمر ابني عشرة أيام.. هي أيضًا عمر الفراق وعمر سجن رؤوف.

أصبحت زوجة السجين وطفلي هو ابن السجين.. سجين ثبتت عليه تهمة قتل الأبرياء بالدواء.. لكن أنا لست سجينة.. أنا تحررت.. كنت سجينة حتى مولد طفلي ولن أكون بعد الآن.. هناك قرارات يجب أن أتخذها، وأمور كبيرة يجب أن أفعلها وأمور صغيرة يجب أن آلفها.

قبل كل شيء، يجب أن أفهم.. أصبح بإمكاني أن أتحرك وأخرج وأحصل على كل ما أريد من المعلومات، التي كان مصدري الوحيد لها هو ما تخبرني به عزة أو زياد أو والدي.. حتى اليوم العاشر من عمر ابني، كنت لا أعلم شيئًا عن حقيقة كل ما يحدث سوى ما أراه وأسمعه في بعض البرامج التليفزيونية، وما أقرؤه على صفحات الجرائد، وما أسمعه ممن حولي.. متى كانت الصحف في بلادنا تقول الحقيقة؟ ومتى كانت البرامج تنقل الحقيقة؟ ومتى كنا نحن العرب يقص أحدنا على الآخر الحقيقة؟!

الحقيقة سأحصل أنا عليها.. تحررت من سجن فراشي ولن أختبئ.. زوجة السجين ستخرج وتبحث ويومًا تعود وزوجها في يدها..

في تلك اللحظات، نظرت إلى وجه ضياء الصغير الراقد في سلام.. أين أتركه؟ وكيف يمكنني أن أتحرك به أو دونه؟ أنا بحاجة إلى مربية، قرارات توفيق عبد الجواد وأحكامه يجب أن تتغير، وأنا سأحارب.

في اليوم العاشر لولادة ابني، قررت دخول معركة اسمها البحث عن الحقيقة لأحرر رؤوف، وأتحرر من عتمة جهلي وضعفي..

تحدثت بعدها طويلًا إلى والدي، الذي أخبرني أن توفيق عبد الجواد فعل المستحيل للحصول على براءة رؤوف.. لكن كل شيء كان قانونيًا..
رؤوف هو من قام باستيراد المادة الخام للدواء، وهو من أقر صلاحيتها.. ووحده من يتحمل المسئولية.
الأمل في قبول النقض ليس كبيرًا؛ فالقضية أصبحت قضية رأي عام.. قال لي والدي وهو يرخي جفنيه حتى لا أرى دمعه:
- لو لم يكن رؤوف زوجك.. لكنا جميعًا الآن نطالب بشنقه يا شهيرة.. لنكن عادلين.. إنها جريمة كبيرة.. كبيرة.
أمسكت بيد والدي قائلة:
- لكنه بريء.. رؤوف منها بريء.
نعم بريء.. رؤوف أرق وأطهر من أن يقتل الأبرياء.
اليوم وبعد مرور الأعوام وظهور الحقائق، علمت أن حياة رؤوف عبد الجواد لا جرائم قتل فيها سوى جريمتين..
هذا الرجل ما قتل أحدًا سوى نفسه ومعها قتل شهيرة عبد الرحمن!!

* * * * *

تغيرت الحياة بأكملها.. خرج من أيامنا رؤوف ودخلها ضياء.. خرج من عروقنا الفرح.. وسكنتها العتمة واليأس.. في عيون توفيق عبد الجواد وطارق شيء مكسور.. في عيوني أنا شيء مبتور، كأن عدساتهما أصابتها العتمة.. حتى أشجار الحدائق.. أقسم بالله العلي العظيم أصابها الحزن هي الأخرى وتدلت فروعها، وسقطت أوراقها، كأن خريفًا دبَّ في بيت المنصورية دون بقية البلاد..

لم يسألني عمي توفيق مرة واحدة عما إذا كنت أريد زيارة رؤوف، أخبرني والدي أنه تم نقله إلى سجن بجوار سجن المزرعة الشهير، والذي يقال إنه لأفضل فئات المجتمع.. والدي أخبرني أن الزيارة كل أسبوع، وأنه زار رؤوف.. أخبرني أيضًا أنه بخير، وسألني إن كنت أريد الذهاب..

كيف أذهب؟! كيف يلتقي الزوار بالسجناء؟

من خلف ذاك السلك الشائك؛ حيث يحاولون مد أصابعهم من الثقوب الفولاذية لملامسة أصابع من يحبون.. أم تراهم يدخلون برؤوف إلى غرفة مأمور السجن، ويتركونني معه لحظات؟!

أبكي.. يضمني.. يسألني.. أضع رأسي على كتفه، وأخبره عن ضياء أو أحمل له صورة من صوره؟ وماذا إن كنت أنا حتى لم ألتقط لضياء صورة واحدة حتى اليوم؟!

كيف يكون لقاء السجناء؟! هل قاموا بحلاقة شعر رؤوف؟ هل يرتدي ما يرتديه السجناء؟ هل أسمع أحدهم يهينه؟ هل يتدلى رأسه أمامي في ذل وخجل؟ وهل إن أراد تقبيلي أو ضمي إلى صدره يضمني، وهو يفتح عينيه من خلف كتفي؛ ليرقب باب مكتب المأمور ويبتعد عني إن فتحوه؟!

هل يبكي إن اقتادوه بعيدًا عني.. وهل أنكس رأسي وأخرج لأتركه وأعود وحدي؟!

إن سجنوه في سجن المزرعة أو سجن الـ V.I.P كما يطلق عليه.. إن سجنوه في قصر من ذهب، فبئس المكان وبئس اللقاء..

لن أرى انكسار رؤوف، ولن يراني وأنا أراه ضعيفًا مسجونًا..

أبدًا لن أذهب لزيارته.. ستبقى آخر لحظاتنا هي تلك اللحظة التي رجوته فيها أن أذهب معه وتركني وذهب.. تركني وهو سيدي وسيد القرار.. تركني، وأنا أقف بدمعي أستجديه أن يبقى..

لن أراه أبدًا وهو مكسور وربما مقيد المعصم.. فرضوا عليه ثيابًا يرتديها وشعرًا يقصه، ولحظات يحددون وحدهم عددها ومكانها وأيضًا لحظة انتهائها.

لن أذهب لأستجدي اللقاء ممن ظلموه، وعجزوا عن الوصول إلى قاتل الأبرياء، فألصقوا التهمة بأطهر رجال الزمان.. لن أمنحهم سكينًا جديدة يرشقونها في صدر حبيبي..

الفراق عمره أعوام.. لكن إن رآني رؤوف، وأنا أراه في سجنه وذله، فهو مشهد سيبقى العمر يذبحه.

شهيرة لن تذبح رؤوف.. أو هكذا ظننت يومها!

* * * * *

كل شيء يتم اعتياده.. هناك مروّض كبير لا يصعب عليه ترويض المشاعر والرؤوس، أيًّا كانت صلابتها وعنادها.. مروض اسمه «الأيام»..

وضعت عزة مولودتها وأسمتها حنان.. كأن كل واحدة منا وضعت في اسم مولودها ما تبحث عنه.. اقترابي من عزة جعلني أدرك أنها، ورغم إنجابها من زياد وتعلقها الكبير به، إلا أنها بقيت تتمنى حنانه.. أنا كنت أتحسس في مولد ابني الضياء، الذي يساعدني أن أخطو وحدي، دون أن أتعثر أو أقع..

رحلت والدة زياد بعد مولد حفيدتها بشهور قليلة.. لم أحزن عليها كثيرًا ليس لإشفاقي عليها من صراعها مع الصرع أعوامًا طويلة، وليس لأني لا أحبها.. لكن لأن الحزن اصبح الحقيقة التي أراها تطل من كل شيء، وعلى كل شيء، حتى أزهار الربيع، التي جاءت ترقص بعد شهور من سجن رؤوف.. أوليست رقصاتها هي بدايات سقوطها؟!

توفيق عبد الجواد عاد للتماسك، وطارق أيضًا عاد إلى طبيعته.. اليأس من براءة رؤوف بعد رفض النقض موضوعًا رغم قبوله شكلًا وفر وقتًا وجهدًا كان يبذل دون فائدة.. بدأ عمي توفيق وطارق يعملان من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من سمعة شركة الأدوية ومصانعها..

أنا أيضًا أفقت بعد شهور.. قطعت إجازتي من الجامعة، وعدت إلى التدريس بها، وعدت أيضًا إلى الصيدلية.. ورغم فشل محاولاتي في دخول مربية إلى بيت المنصورية، إلا أنني توصلت إلى ما هو أفضل.. ضياء يبقى مع عزة وابنتها حنان في الأيام التي أذهب فيها إلى الجامعة والصيدلية، لأعود به في حوالي التاسعة مساء؛ حيث يستلم زياد الصيدلية التي أصبحت تعمل أربعًا وعشرين ساعة.. وفي الأيام الثلاثة التي لا محاضرات عندي فيها، أبقى أنا وضياء وأوراق الدكتوراه التي تقرر مناقشتها مع إكمال ضياء عامه الأول..

عاد شعري الغزير إلى سابق عهده، مجموعًا فوق رأسي، ينتظر عودة رؤوف ليطلقه على كتفي من جديد.. عدت بلا مساحيق ولا عطور ولا انتفاضات شوق أو رغبة.. لا شيء سوى أصابع ضياء الصغيرة، التي تضم أصابعي وأرقبها يومًا بيوم، وأنتظر أن تكبر حتى يصبح عمرها ثلاثة أعوام ليعود الغائب، وأتحرر من لقب زوجة السجين.

كانت عودتي إلى الجامعة صعبة مريرة؛ فالجميع يبتسم في حزن ويسأل في فضول وإشفاق طمعًا في الوصول إلى قصة يحكيها أو معلومة يرويها.. كنت أرى خلف الإشفاق لعنة وخلف الابتسام تشفيًا وشماتة.. كنت أتحرك في قوة.. أنت بلا مشاعر أقوى.. أنت حقًّا بلا رغبات أكثر نجاحًا وقوة.

أرضعت عزة ضياء وأصبح ابنًا لها وأخًا لابنتها.. ويوم بدأ ينطق بأولى كلماته سمعته يقول «بابا» وزياد يحمله، شعرت يومها بثورة هائلة تجتاح صدري.. شعرت بحريق يحصد صبري وتماسكي، وابتسمت عزة يومها في نقاء، وهي تخبرني أنها تردد هذه الكلمة له ولحنان.. وحده زياد شعر بغضبي وثورتي، وأنا أحاول التظاهر بالهدوء؛ حيث حملت ضياء بين ذراعيّ أغادر البيت.. وقبل أن أدخل سيارتي أمسك زياد بكتفي ملتقطًا ضياء من يدي؛ ليضعه على مقعده الخلفي الصغير، ليعود ويرفع جسده بعد أن أغلق باب السيارة ممسكًا بكتفي من جديد، ليستبقيني قبل أن أدخل إلى مقعد القيادة قائلًا:

- شهيرة..

لم أنتظر.. سقطت من عيني لحظتها دمعة، وقلت وأنا أكتم ما استطعت من غضبي:

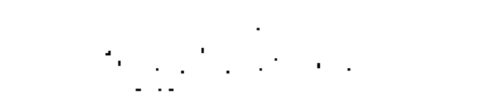
- ضياء له أب، ولن يقول هذه الكلمة لسواه يا زياد..

أغمض عينيه في ألم، وانطلقت أكمل:

- أنا لن أحضره هنا حتى ينسى هذه الكلمة تمامًا.. من الغد سأجد له حضانة أو أذهب به إلى والدي فترة الجامعة.. اشرح لعزة.. لا أريدها أن تحزن..

وعاد يقول:

- ستقتلينها.. ستقتلينها هي وحنان.. شهيرة.. ضياء ابني.. أليس أخًا لابنتي؟! ألا ترضعه عزة؟! ضياء وحنان أخوان بالرضاعة..



أخوان؟!

أنا وزياد لم نتذكر هذه الحقيقة في اليوم الأسود، الذي كان يجب أن ننسى فيه حقائق الدنيا بأسرها، ولا ننسى أن ابني وابنته أخوان!!

* * * * *

أنا أتحرك.. عمي توفيق وطارق أيضًا يتحركان.. يئست من وصولي إلى الحقيقة.. يئست من حلم إثبات براءة رؤوف، وأصبح كل حلمي أن ينقضي الوقت الباقي ويعود.. الأيام لا تُروض فقط.. لكنها تعلمنا كيف نقبل تنازلات كثيرة، وكيف نحوّل أحلامنا الكبيرة إلى أحلام صغيرة.. قد تصبح جميعها حلمًا واحدًا اسمه «انقضاء الزمن ومرور الأيام»..

عدت بضياء إلى عزة، وعاد يقول كلمة «بابا» كلما رأى زياد، وعدت أستعد لمناقشة رسالة الدكتوراه في صمت وتصميم.. كل شيء كان يبدو طبيعيًا في بيت المنصورية، حتى الأشجار التي تدلت عروقها وفروعها بعد سجن رؤوف.. روضتها الأيام وعادت تخضع لقوانين الفصول وتقلباتها..

مساء الخميس هو موعدي الأسبوعي مع والدي.. نخرج لتناول العشاء في أي مكان ككل الأزواج والعشاق.. نتحدث عن كل شيء.. وفي النهاية نجد أننا ما تحدثنا عن شيء.. كان والدي حريصًا على زيارة رؤوف.. لكني لم أسأله يومًا عن أي من تفاصيل السجن التي يحياها.. هو فقط يخبرني أنه بخير، وأنا فقط أطلب منه أن يخبره أنني في الانتظار.. نمر بعد انتهاء عشاء الخميس على عزة؛ لألتقط ضياء الذي غالبًا ما أجده نائمًا وأذهب به إلى المبيت في بيت والدي؛ حيث نذهب جميعًا بعد صلاة الجمعة إلى المنصورية حيث يقضي والدي بقية اليوم هناك..

أصبح هو وتوفيق أكثر اقترابًا ومودة بعد تلاقيهما الدائم في زيارات رؤوف.

هذه هي حياة زوجة السجين رؤوف عبد الجواد.

جاء يوم مناقشة رسالة الدكتوراه في وجود كل من عرفت.. وبعد أن أعلنت اللجنة حصولي عليها بدرجة امتياز، وبعد أن أصدروا توصياتهم بتدريس مادة الرسالة لطلبة صيدلة عين شمس، وقفت أشكرهم، وقلت وأنا انظر إلى الكاميرا التي وقفت تسجل وتصور وقائع المناقشة.. قلت يومها ودون إعداد:

أهدي نجاحي وحصولي على الدكتوراه إلى رجل ليس موجودًا معنا.. لكنه دومًا في عروقي.. أهديها إلى أطهر رجال الأرض إلى زوجي.. رؤوف توفيق عبد الجواد!!

* * * * *

لماذا ينظر الرجل إلى امرأة بلا رجل على أنها صيد سهل؟!

لماذا ينظر المجتمع بأكمله إلى المطلقة أو الأرملة على أنها جائعة، قد تقبل بأي كسرة خبز تلقى في طريقها؟!

لأن الجوع صوته أعلى من صوت الكرامة.. لأن الظمأ صراخه أعلى من الكبرياء..

حسنًا إن ظنوا الأرملة والمطلقة ساقطة، ترتدي قناعًا من الضعف والخوف.. فأنا علمني العام الأول لسجن رؤوف أن زوجة السجين في عيون الرجال أكثر دناءة وسهولة وبشاعة..

كم رجلا من الرجال المحترمين حاول التودد.. كم كفًّا في الحرم الجامعي ومن زملائي وأساتذتي لطمت صدري أو ظهري، كأنها فعلت بالخطأ وأنا أعلم ما ترمي إليه.. كم مرة تظاهرت بالغباء والبراءة.. وكم مرة أطلقت نظرة لوم قاسية أو عبارة تأنيب واضحة.. الكثير.. لكن بعد حصولي على الدكتوراه، وبعد دخولي الجامعة في اليوم التالي كانت كبرى صفعات الدهر في انتظاري.. يومها دخل الدكتور إبراهيم أستاذي، الذي هو في عمر والدي.. أستاذي الذي أشرف على رسالتي وتبناها.. الذي كان سبب لقائي برؤوف.. صديق عمر توفيق عبد الجواد ورفيق عمره.. دخل يومها إلى مكتبي، وهو يصيح في فرحة قائلًا:

- مرحبًا بالزميلة لا التلميذة..

تقدم نحوي حيث وقفت أشكره، وأنا أقر بفضله.. ضمني إليه وما قاومت رغم دهشتي.. ظننته يفعلها كما يفعلها والدي، أو كما يفعلها صديقه توفيق عبد الجواد، لكن الرجل وفي الحرم الجامعي تحسس ظهري بأصابعه قائلًا:

- شهيرة.. سنحتفل بنجاحك في بيتي اليوم.

ابتعدت عنه في هدوء، وأنا ألعن ظنوني قائلة:

- دعوتك هي واجب.. اسمح لي أنا أن أدعوك هذا المساء أنت وعمي توفيق على العشاء في أي مكان تختار..

وعاد أستاذي يقول:

- شهيرة.. لا تلعبي هذا الدور معي أنا.. أنا وأنت فقط سنتناول العشاء.. لم أطلبها من قبل حتى لا تظني أني أسيء استغلال الظروف.. اليوم نحن زملاء وحصلت على الدكتوراه.. هو الوقت المناسب..

نظرت إلى عينيه في حيرة.. لابد أنه لا يعني شيئًا مما فهمت.. ولابد أنني لا أفهم شيئًا مما هو حقًّا يعنيه.. عدت إلى مكتبي أجلس عليه في هدوء قائلة:

- أنت أستاذي وفي منزلة والدي، وأيضًا صديق العمر لرجل هو والد زوجي.

قاطعني أستاذي قائلًا:

- زوجك غائب.. زوجك في السجن.. أنا صنعت لك ما لم يصنعه أستاذ في تاريخ الجامعة.. رسالتك ستحول إلى مادة تدرس.. لا تهربي.. تعلمين أني أحبك، وأنا أعلم أنك بحاجة إلى إبراهيم الرجل الآن.. الرجل يا شهيرة وليس السجين! أم تراك نسيت الرجال؟!

نعم نحن في الصفعة الأولى نترنح.. وفي الثانية قد نقاوم.. وفي الثالثة قد نصرخ.. لكن في العاشرة لا نفعل شيئًا سوى انتظار الحادية عشرة.

من خلف دمعة رقصت في عيني، انحنيت ألتقط حقيبتي، ونهضت.

التقط أستاذي ذراعي، وسمعت صوته في لحظة يعود هادئًا حانيًا يقول:

- شهيرة.. من قبل حتى أن تولدي وأنا أعرف عائلة رؤوف.. لا أحد منهم يستحق الوفاء.. رؤوف ليس بريئًا.. إن كنت تتجرعين الحرمان من أجله هو لا يستحق.. وإن كنت تفعلين من أجل نفسك فهي أيضًا لا تستحق منك التعذيب.. شهيرة..

التفت أنظر إليه.. كيف يلون الرجال أصواتهم.. منذ لحظة، كان صوته هادرًا ثائرًا.. كيف أصبح زئير الأسد فحيح أفعى في لحظة؟ وسمعته



يقول:

- شهيرة.. في عينيك ظمأ أراه بخبرتي.. بحبي لك.. دعيني أرتوي منك وأرويك.. معي لن تخافي شيئًا.. معي بإمكانك أن تتجردي من أقنعتك وتضعيها وأنت تثقين أن أحدًا لن يعرف.. سأنتظرك في بيتي في العاشرة.. كفاكِ ظلمًا لنفسك.. أنا أحبك..

لم أقل كلمة ولم أحرك ساكنًا.. حتى ذراعي ما نفضته من بين كفيه حتى أرخاهما وحده..

خطوت في هدوء نحو باب مكتبي، ووضعت نفسي في سيارتي، وقدتها إلى الصيدلية كالمعتاد!!

* * * * *

عندما وصلت إلى الصيدلية، كان زياد مازال واقفًا فيها حيث ألقيت عليه التحية، ثم جلست أراجع قائمة كشوفات الأدوية ومستحضرات التجميل التي كانت في انتظاري، وبعد أن استعد زياد لترك الصيدلية، ورأسي مازال متدلِّيًا على الأوراق، شعرت به هو الآخر يضع كفه على كتفي قائلًا:

- شهيرة.. هل أنتِ بخير؟!

ابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة.. ماذا لو غازلني زياد هو الآخر؟ ألا يرى الظمأ الذي تحدث عنه أستاذي منذ دقائق؟ لكن ما فعله أستاذي الكبير لم يؤلمني.. كلماته الفجة وتصرفه الأخرق لا يؤلمني.. شيء آخر يذبحني.. شيء آخر يذلني ويكسر عنقي ويدليها فوق الأوراق.. رفعت عيني أنظر إلى زياد ودون وعي أو تفكير.. وسمعت صوتي يقول:

- هل رؤوف مذنب؟! هل من الممكن حقًّا ألا يكون بريئًا؟!

رأيت على وجه زياد دهشة عميقة، كأنه توقع أن يسمع مني أي شيء وكل شيء إلا هذه الكلمات، وقال بعد لحظات، وهو يلتقط مقعدًا ويجلس إلى جواري:

- لا أعلم.. لا أحد يعلم، ولكن أنتِ.. هل تشكين؟!

أغمضت عيني وهززت رأسي، كأنني أحاول إخراج مجنونة، وضعها الدكتور إبراهيم في قاع جمجمتي قائلة:

- أكبر ثلاثة محامين في مصر.. قضاة.. استئناف.. من خدع كل هؤلاء إلا إن كانت هذه هي الحقيقة..

عدت أنفض رأسي من جديد.. من التي تتحدث؟ من هذه التي تشك في براءة رؤوف؟ وبماذا تشك؟ بكلمات عجوز فاجر، نسي أنه أستاذي وفي سن أبي ورفيق عمر والد رؤوف..

رأيت زياد يمد كفه ليأخذ بأصابعه الأوراق من بين أصابعي، ويضعها جانبًا، ثم أخذ كفي بين يديه قائلًا:

- شهيرة.. الخطأ يحدث.. القضاة يخطئون، وإن لم يخطئوا فرؤوف إنسان وربما هو من أخطأ.. مر عام يا شهيرة.. اقتربت عودته.. اقتربت..

سحبت كفي من تحت أصابعه في صمت، وقدت الحديث إلى أشياء أخرى.. ولم يلح زياد في العودة إلى الموضوع، ثم تركني بعدها بدقائق، وهو يخبرني أنه سينتظرني هو وعزة لتناول طعام الغداء في بيته مع والدي في الخامسة عصرًا.. عدت إلى أوراقي وعملاء الصيدلية.. وبين كل حين وآخر كنت أبحث عن المجنونة التي أطلقها العجوز في رأسي.. وفي الثالثة حادثني عمي توفيق ليخبرني أنه يعلم أنني سأتناول العشاء مع الدكتور إبراهيم احتفالًا بحصولي على الدكتوراه.. سألني المسكين إن كنت أريد بعضًا من ملابسي ليرسلها مع السائق إلى منزل والدي.. لم أنطق حرفًا وأنا أسمعه يرجوني أن أقبل دعوة الدكتور إبراهيم، وأنه هو أيضًا سيدعوه ويدعوني مع والدي وزياد وزوجته في نهاية هذا الأسبوع إلى حفل عشاء كبير.. أخبرني عمي توفيق على الهاتف أن الدكتور إبراهيم طلب منه أن يشجعني على الذهاب، وأن يؤكد لي عدم مخالفته لأنه شعر أني رفضت حرجًا من عمي توفيق.. واغرورقت عيناي بالدمع وأنا أسمعه هو الآخر يقول إن عودة رؤوف اقتربت، وأنه يجب أن يجد ابتسامتي عندما يعود.. يجب أن يجد مرحي وانطلاقي؛ لهذا يجب أن أتركهم جميعًا يساعدونني على الاحتفاظ بابتسامتي واستعادتها بعد طول غيابها عن وجهي..

تمنيت لو أخبر عمي رؤوف بحقيقة الدعوة.. تمنيت لو أصرخ على الهاتف وأخبره أن الدكتور إبراهيم ليس بحاجة أبدًا لملابس سهرة أو عشاء.. صديق عمره يريدني عارية، لكن أما كفاه عمي هو الآخر ذلًّا وألمًا؟! وقلت في هدوء:

- عمي.. هل تعرف أين ينوي دعوتي؟!

صاح عمي توفيق، وهو يحاول أن يكون مرحًا:

- لا يا شهيرة لم يخبرني لكن الصاوي بالتأكيد سيحسن اختيار المكان.. اذهبي وإن شئت المبيت في بيت والدك افعلي.. أراكِ غدًا إن شاء الله أنت وضياء..

عندما أغلق عمي الهاتف، عدت أنظر إلى زجاج الصيدلية في ذهول.. من كان يعلم أن أستاذي الجليل بهذه الدناءة وهذا الدهاء؟ وشعرت بالمجنونة تطرق عظام جمجمتي في قسوة، وهي تصيح:

ملاك طاهر مثل إبراهيم الصاوي يتضح أنه ذئب حقير..

رؤوف أيضًا كان في عينيك ملكًا طاهرًا!

* * * * *

في السادسة من مساء ذاك اليوم، وبعد انتهائنا من تناول طعام الغداء الذي أعدته عزة في بيتها.. حادثت عمي توفيق لأخبره أنني لن أذهب إلى دعوة الدكتور الصاوي.. لكنني سأبيت في بيت والدي..

كانت عزة تحمل ضياء بين ذراعيها في حنان وشوق، وتقدمت به نحوي.. ترجوني أن أعود لتركه للمبيت عندها تلك الليلة..

عند انصراف والدي سألني إن كنت سأعود معه إلى المنزل أم أبقى لدى عزة وزياد، فأجبته بأنني سأخرج إلى زيارة إحدى صديقاتي، وقد أترك ضياء مع عزة حتى الغد وحتى انتهاء محاضراتي الصباحية.. عرض زياد دعوتي أنا وعزة والطفلين إلى النادي.. لكنني أخبرتهم أنني أود الخروج وحدي..

كانت الشوارع خالية في ذاك المساء؛ حيث كان معظم الناس في بيوتهم لمتابعة إحدى مباريات كرة القدم المهمة، وقدت سيارتي في هدوء أرقب الشوارع، وانتظر خروج صوت المجنونة التي أسكنها الصاوي رأسي..

هل حقًّا أشك في براءة رؤوف؟ وهل حقًّا يطل الظمأ من عيني؟ وهل هذا يفسر حماقات الرجال حولي؟ هل حقًّا أكتشف ذات يوم أن وفائي ما هو إلا ضرب من الحماقة والغباء؟!

رغم كرهي الشديد لما فعله الدكتور الصاوي ذاك الصباح في مكتبي بالجامعة.. إلا أن عينيه أثارت في جسدي شيئًا.. قبضة كفه وصوته المبحوح حين أمسك بي، وأنا في طريقي إلى خارج المكتب أثار في عروقي شيئًا.. شيئًا هربت منه أكثر من عام في الأوراق والبكاء.. في رعاية ضياء وعلي كتفي والدي وعمي.. ولحظات كنت أضم فيها وسادتي في فراشي قبل النوم..

أنا حقًّا ظمأى.. بحاجة إلى رجل.. انتفض جسدي عند سقوط دمعات على وجهي، وأنا أقود سيارتي إلى حيث لا أعلم.. صعب أن نواجه أنفسنا حتى بما نعرفه عنها.. لكن لم الهرب؟ ومم الهرب؟!

ألست أنثى؟! ألست شابة.. عمر زواجي برؤوف شهور.. وعمر حرماني منه أكثر من عام.. منذ منعنا الطبيب في شهر حملي الرابع حتى اللحظة التي أخبرني فيها أستاذي برؤيته لظمئى مر ما يقارب العام والنصف.

لم نعلن أننا جوعى أو بحاجة إلى شربة ماء دون خجل؟!

لم يركض كل من نعرفهم وربما الغرباء لحمل الطعام إلينا وكؤوس الماء، إن صرحنا بجوعنا وعطشنا وحاجتنا إلى المأكل والمشرب.. نعلن الجوع والعطش دون خجل، بل ربما نحدد ما نشتهيه من طعام، ويسعد من حولنا بتجهيزه لنا، ويسعدون أكثر إن تناولناه وأجهزنا عليه عن آخره، ونخجل ونشعر بالذل والمهانة إن أصابنا العطش إلى ارتواء أجسادنا وأرواحنا..

حتى الشعوب تثور وتخرج في المظاهرات تطالب بالطعام والشراب وتلعن حكوماتها إن لم توفره لها.. ولكن إن قال الشباب إن أجسادهم ظامئة قلنا إنهم فجرة يستحقون القتل؟!

لماذا نخجل؟! ولم نشعر أنه ذنب يجب أن نخفيه، وإن صرحت به أعيننا وراه الآخرون وحاولوا أن يقدموه لنا، أصبح هذا ذنبًا أكبر ومهانة لا حدود لها؟

دققت بكفي على عجلة القيادة في جنون، وأنا أنظر أين وقفت بسيارتي وسكتت أنفاسي كلها في دهشة كبرى.. حين وجدتني أقف على حافة ضفاف النيل بمنطقة المعادي، لم أتيت إلى هذا المكان؟ وعن ماذا تبحث عيني؟! أرخيت رأسي في إجهاد كبير.. أنا أبحث عن بيت الجزيرة الذي اعتدنا الذهاب إليه أنا ورؤوف، والذي ما وطئته قدمي منذ غيابه، رغم أن مفاتيحه مازالت مشنوقة إلى جوار مفاتيح سيارتي وبيت والدي وبيت المنصورية..

كانت الساعة الثامنة تقريبًا.. وكانت عشرات المراكب واللنشات تقف إلى جواري.. عدد المتنزهين كان قليلًا فالكل مشغول بمشاهدة مباراة كرة القدم، أغلقت سيارتي ووقفت إلى جوارها، أرقب النيل وأبحث بعيني عن بيت الجزيرة البعيد، رغم ثقتي أنني أبدًا لن أراه من مكاني..

كنت ثائرة.. حائرة.. أنتفض غيظًا من فحيح المجنونة في رأسي وأنين الأنثى بداخلي.. ورشقت أصابعي داخل خصلات شعري المكوشة فوق

رأسي كأنني أحمل إليها بعضًا من نسمات الهواء؛ علّ حريقها يهدأ واشتعالها يخفت.. ولكن متى كانت الرياح تطفئ نارًا أو تخرس حرائق؟

نكست رأسي وقبل أن أستدير عائدة إلى سيارتي، أطل شاب صغير من أحد القوارب يسألني إن كنت أريد الانضمام إلى قاربه، الذي كان عليه ثلاثة أو أربعة ركاب ممن خرجوا للاستمتاع بشيء آخر غير كرة القدم.. هززت رأسي بالنفي وأنا أخطو بعيدًا.. لكني عدت أسأله إن كان سيمر من جوار جزيرة «الدهب» وعندما أجاب بالإيجاب أخبرته أني سأزور أحدهم، وسأبقى ساعة فهل يعود إن ذهبت معه..

الشاب حدد السعر وأخبرته أنني لن أدفع ثمن ذهابي حتى يعود بي لأضمن عودته.. ابتسم وهو يطلب مني أن أدخل إلى المركب..

كانت المرة الأولى في حياتي التي أرتاد فيها قوارب النيل الصغيرة، التي تشتعل بالأضواء والموسيقى الصاخبة، وجلست في أحد أركانه أرقب وجوه الشباب الأربعة.

بعد انطلاق القارب وضع كل شاب منهم ذراعيه حول كتف رفيقته وانطلقت الهمسات والتصفيق، وتشاغلت بالعبث في محتويات حقيبتي الصغيرة وأنا أسأل هل ما أفعله هذا صوابًا؟ أليس من الخطر أن أحضر إلى بيت الجزيرة في مثل هذا الوقت، وبهذه الطريقة؟

ماذا لو علموا أنني لن أزور أحدًا؟ ماذا لو لم يكن هؤلاء الشباب متنزهين واختلوا بي في الجزيرة هناك؟ لكن كانت معهما فتاتان.. هززت رأسي وأصابعي مازالت تبحث عن اللاشيء بداخل حقيبتي.. قد تكون الفتاتان معهما.. لن أهبط من القارب.. سأبقى حيث أنا ونظرت حولي.. لا شيء سوى مياه النيل الداكنة، التي تتراقص عليها أضواء القارب في حنان، وعدت أرفع عيني أختلس النظر إلى الشاب الذي يجلس في نهاية القارب.. وضعت الفتاة رأسها على كتفه وأغمضت عينيها.. كأنها تخشى أن يرى أحدنا ما فيها أو ربما ظنت أنّا لن نراها.. ابتسمت في إشفاق.. لابد وأن عينيها تخبئان جوعًا كجوعي، الذي رآه أستاذي، وأغلقت شفتيَّ في قسوة أسكت بهما آهة كبيرة شعرت بها تنطلق من صدري.. وصاح الشاب مشيرًا بكفه إلى الجزيرة نهضت على عكس ما عزمت عليه.. وقفز خارج قاربه؛ ليمد كفه نحوي، ويساعدني على الخروج قائلًا:

- البيت مظلم.. أم أنت ذاهبة إلى البيت البعيد؟!

سحبت كفي من كفه الخشن، وأنا أقول في صوت ضائع:

- ساعة واحدة.. لا تتأخر..

وقفت أرقب القارب، وهو يبتعد متظاهرة بسقوط حقيبتي من يدي.. لم أكن أريد أن يراني أحد وأنا أخرج مفتاح البيت أو أدخله وحدي أو خلوه من السكان على عكس ما ادعيت.. ما إن ابتعد القارب حتى سقطت على حشائش الجزيرة بركبتي..

شعرت في تلك اللحظة أنني بحاجة إلى فضاء رحب كفضاء الجزيرة لأسقط فيه.. شعرت، وللمرة الأولى، ومنذ عام على غياب رؤوف أنني متعبة.. لا حصولي على الدكتوراه له معنى، ولا المال الذي يغدقه عمي توفيق عليّ وعلى ابني له معنى.. لا الصيدلية ولا العمل ولا النجاح لها أكثر مما تحمله أسماؤها.. حروف وكلمات..

أنا متعبة.. متعبة حتى آخر حدود التعب..

مددت أصابعي.. أنزع مشبك شعري، ليسقط على وجهي وكتفي..

متى يعود رؤوف؟ عام آخر أو عامان.. هل أحتمل؟! وهل يجدني كما تركني؟ أعوام عمري جميعها لم تصنع بي ما صنعه هذا العام.. ورفعت رأسي إلى السماء أتمتم «يارب».. نحن عندما نعجز لا شيء يغيثنا سوى قدرة أكبر من كل ما ندرك.. قوة أكبر من المال والنجاح والجمال.. قدرة أكبر من اليأس ومن الأمل.. قوة اسمها الله.

شعرت بحاجة كبيرة إلى قدرة الله في تلك اللحظة.. أنا لم يجرحني ما فعله الصاوي.. لكن يجرحني حقًّا أني ضعيفة، أشعر بظمئي وحاجتي إلى جسد يضمني، ويسكب داخل جسدي ثقة وقوة وحنانًا..

تحاملت على ذراعي ونهضت أحمل حقيبتي وأخرج منها مفاتيحي.. تقدمت نحو باب بيت الجزيرة وصوت ضحكاتنا أنا ورؤوف في كل مرة جئنا فيها يحاصرني.. عندما أقبلت نحو الباب، رأيتني وأنا أركض بعيدًا عنه يوم أحضرني قبل زواجنا.. رأيتني أركض غاضبة ثائرة لكرامتي وكبريائي، يوم ظننت أنه ما جاء بي إلا كأنثى يسعى إلى جسدها.. وسقط دمعي.. ها أنا اليوم أعود راكضة وهاربة من الكرامة والكبرياء خلف

ظهري وأدخل إلى البيت ذاته، وكل ما أحلم به وأتمناه أن أجد رؤوف بالداخل ليأخذني، وإن كان فقط كأنثى يتضور جسدها جوعًا وتتمزق روحها ألمًا وحاجة وحرمانا.

بيدي ضغطت مفتاح الضوء عند دخولي البيت، ووقفت أذكر ليلة زواجنا.. تلك الشمعات التي كانت في كل مكان.. زهرات الكلا البيضاء.. وعبق رائحة الياسمين.. ومضيت في سكون كأني أتبع رائحتها، التي شعرت بها تملأ أنفي..

دخلت غرفة النوم وأشعلت ضوءها، وأغلقت الباب خلفي مستندة بظهري عليه.. كل قطعة في جسدي كانت ترتجف.. كل عرق فيه كان يدق مع قلبي بعنف.. ورأيتني ورأيته على فراشنا.. رأيتنا كأني لست النائمة بين ذراعيه وقفت أرقبنا كأننا حقيقة وكأني غريبة ذليلة تسترق النظر إلى عاشقين غابت عقولهما على فراش الحب.. رأيت رؤوف وهو يقبلني.. رأيتني وأنا أضمه إلى جسدي في لهفة..

تقدمت نحو المرآة التي تقف أمام فراشنا، ورفعت عيني أنظر إلى عيني الغريبة في ذهول.. ماذا جئت أفعل؟ وما الذي يسيطر على رأسي منذ الصباح؟ ومنذ وضع الصاوي كفه حول ذراعي.. ومنذ كلماته عن ظمأ عيني.. كأنني لا أعرفني ولا أعرف الغريبة.. نزعت القميص عن جسدي وخلعت كل ملابسي ووقفت أرقب جسد العارية في المرآة.. لا جديد.. ذات الكتفين بلونهما الأبيض الوردي.. ذات الصدر الذي امتلأ واستدار بعد مولد ضياء.. ذات الجسد الذي عاش أعوامًا طويلة، دون رجل، وعاش عامًا ونصفًا بعد الرجل.. لا أرى فيه شيئًا يختلف.. من أين يأتي الجنون إذًا؟!

من أين يأتي الهدير؟! عندما نجوع تنقبض أمعاؤنا وتقرقر.. وعندما نعطش تجف ألسنتنا.. لكن عندما نشتاق لا نعلم من أين يأتي الهدير؛ لأن كل ما فينا يصيح عندها في جنون، وشعرت بخجل كبير يجتاح روحي.. شعرت بخجل كأن عارًا كبيرًا أطاح برأسي.. ماذا يحدث لي؟ أقف عارية أمام مرآتي أرقب جسدي.. وفي لحظة سمعت باب غرفتنا يفتح وصرخت في جنون هيستيري.. لم أكن أحاول النظر إلى من فتح الباب أو من عساه أن يكون بداخل الغرفة.. كنت فقط أركض في جنون نحو ملابسي، وأنا مازلت أصيح كقطة ذبحوها وما أجهزوا عليها.. رفعت عيني ويدي تحمل بنطلون الجينز لأراه.

رأيته يقف أمامي يحمل في يده سكينًا.. كأن المفاجأة صعقته هو الآخر. ألقيت بملابسي من بين يدي إلى الأرض وركضت أسحب ملاءة فراشي ألف فيها جسدي وصياحي يعلو ورأيته يغمض عينيه.. وهو يصيح ملقيًا سكينه إلى الأرض.. كنت أدرك أنني يجب أن أسكت لأسمع ما يقول.. لكني كنت حقًّا لا أملك السيطرة على نفسي حتى رأيته يخرج من الغرفة ويغلق بابها كأنه علم ألا فائدة في الصراخ، وأني أبدًا لن أسمعه أو أرى عينيه المغلقة.

عدت إلى بنطلون الجينز أرتديه بسرعة، ومازال جسدي مختفيًا داخل ملاءه السرير الوردية.. وأغلقت قميصي الأحمر بسرعة ونظرت حولي أبحث عن حقيبتي لأخرج منها هاتفي.. يجب أن أطلب النجدة أو المساعدة من أحد ما ولم أجدها.. أعياني البحث وعلمت أني لابد وأن أكون ألقيتها خارج الغرفة.. وفي بهو البيت عند دخولي.. عدت أنظر إلى باب الغرفة في جنون وأنا أسمع طرقات خفيفة عليه، وسمعت صوته يقول:

- سيدة شهيرة.. أرجوكِ لا تخافي.. أرجوك..

هدأت.. هدأت قليلًا.. حامل السكين ألقاها حين رآني.. حامل السكين أغمض عينيه، حين وجدني عارية وترك الغرفة.. وها هو يطرق الباب كأنه لا يملك الدخول دون إذني.. الأهم لا طريق أمامي أو خيار سوى الخروج إليه.

هل أرسله قائد القارب، ولكن كيف دخل؟ وإن كان يريد إيذائي.. لم لم يفعل وقد كنت عارية أمامه؟ وقلت بصوت حاولت أن يبدو عاليًا:

- من أنت؟! وكيف دخلت؟!

من خلف الباب سمعته يقول:

- أنا.. أنا أعمل لدى السيد رؤوف.. أرجوك لا تخافي.. ظننت لصًّا في البيت..

تقدمت نحو باب الغرفة وفتحته لأجد الشاب يقف بعيدًا، وفي منتصف بهو البيت، وهو يقول:

- أنا بهاء.. أحضر كل يوم لتفقد المنزل.. أنا من أشعل لكما الشموع يوم الزفاف.. جئت باللنش الخاص بالسيد رؤوف.. انظري بنفسك خارج النافذة.. أنا آسف.. ظننت لصًّا في البيت.. آسف.. آسف.

ألقيت بجسدي على أول مقعد وجدت، وألقيت برأسي بين كفيّ وانخرطت في بكاء عنيف.. كاد الخوف حقًّا أن يقتلني..

وسمعته يقول:

- سأحضر لك كوبًا من الماء..

رفعت وجهي.. أنظر حولي.. كيف لم ألحظ أن البيت حقًّا نظيف، وأن أصيصات الزرع مازال نباتها نضرًا حيًّا بعد غياب سيده وغيابي طوال هذه المدة؟

عاد الرجل يحمل قارورة صغيرة مغلقة من المياه المعدنية، ومعها كوب أعرفه جيدًا ليضعه أمامي، وهو يبتسم قائلًا:

- لم أفتحها لتتأكدي أنها مغلقة.. هل أصب لك كوبًا؟!

التقطت قارورة الماء وفتحتها وارتشفت منها قطرات، تمنيت أن تسكت دموعي، وقلت بعد لحظات:

- من أنت؟!

ذهب بهاء ليجلس على آخر مقعد في بهو البيت، ورأيت للمرة الأولى كيف يخطو بهاء.. إنه يخطو بصعوبة، وللوهلة الأولى ظننت أنه مصاب بشلل أطفال.. لكن عندما عاودت النظر إليه، أدركت أن ما به شيء آخر، وأرخيت عيني، وأنا أسمعه يقول في هدوء:

- بهاء..

قاطعته قائلة:

- صديق رؤوف؟!

عاد يقول:

- رؤوف سيدي.

عدت أرقب وجهه.. لا يبدو أبدًا في هيئة خادم أو حارس.. إنه في الأربعين من عمره، أو ربما جاوزها بأعوام.. وسيم أنيق، وهززت رأسي كأني أخبره أني لا أصدق.. وابتسم بهاء كأنه فهم ما أفكر فيه، وقال:

- لي في الوفاء مفهوم آخر.. الوفاء عبودية جميلة نستسلم لها ونضع معصمنا في قيودها بكل السعادة.. ألا يتحول الحبيب إلى عبد لمحبوبته حتى إنه يتبعها إلى حيث تشاء؟ ألم يتنازل سمبسون عن العرش ليبقى إلى جوار من أحب، ويصبح أجلّ أعماله هو خطاب تنازله عن العرش؟ ألا ترين أنثى في كامل جمالها وبهائها، وقد تكون في أعلى المناصب تطعم طفلها وتغسل فضلاته بكل السعادة؟ ألا يعمل الزوج ليلا ونهارًا ثم يأتي ليضع قروشه بين يدي زوجة يحبها، ولا يستبقي لنفسه مليمًا سوى ما يعود به إلى العمل في الصباح التالي ومن أجلها؟ ألا يحولنا الحب إلى عبيد وخدم؟ إن كان الحب يفعل.. فعار على الصداقة ألا تفعل، وهي أرفع مكانة وأكثر ندرة.. نعم.. أنا عبد رؤوف!!

ابتسم وهو يراني مازلت غارقة في دهشتي، وعاد يكمل في صوت أكثر هدوءًا:

- لماذا جئت هنا دونه؟!

ما فهمت سؤاله فأجبته بسؤال:

- لماذا لم أرك من قبل؟ لماذا لم أسمع اسمك؟ أنت حتى لم تدخل البيت يومًا؟!

رأيته يتنهد، ثم قال في ألم:

- تلك قصة أخرى.. لماذا حضرت دون رؤوف؟!

عدت أنظر إلى وجه بهاء كأنني أحاول أن أفهم ما يعنيه.. وعاد هو يكمل في صوته العميق:

- أنت لا تزورين رؤوف في السجن حتى لا تتألمي.. حتى لا تري أنه ما عاد من الممكن أن تلعبي أو يلعب دوره الذي اعتدت.. لم تحضرين إذًا إلى مكان ما دخلته إلا معه؟ وكيف عبرت وحدك؟! عن ماذا جئت تبحثين؟!

أغمضت عيني في ألم، وأنا أتذكر فجأة كيف رآني بهاء عارية في غرفتي، ونهضت كأن الخجل صفعني ألف صفعة، وتقدمت نحو باب البيت

وأنا أقول:
- لابد وأن القارب عاد من أجلي.. يجب أن أذهب.
نهض بهاء يقول:
- لنش زوجك في الخارج.. سأوصلك أنا وسأصرف من أتى..
عند خروجنا من باب بيت الجزيرة لم نجد القارب الذي وعدني بالعودة.. وأخبرني بهاء أنه بإمكاني العودة إلى البيت أو إلى الشاطئ، وأننا حتمًا سنجده هناك على الضفة الأخرى، وقفت أنظر إلى لنش رؤوف واستأذنني بهاء في الدخول إلى البيت لإطفاء الأضواء وإحكام إغلاق كل شيء.. حين قفزت إلى اللنش، وقفت أرقب بعيني رؤوف، وهو يقودها ويأخذني تحت ذراعه الأخرى.. كأن أجيالًا مرت وأعوامًا انقضت على تلك الأيام، ولم أشعر بعودة بهاء.. لكنني سمعت صوته من خلفي يسأل:
- هل أنت بخير؟!
استدرت بجسدي إلى بهاء وعيناي تنزفان دمعًا غزيرًا كأنني أطلق سراح سجين، كان يتجول في عروقي بسكين حمقاء منذ عام، قلت:
- هل تزوره؟! هل يتحدث عني؟! هل هو بخير؟!
أجهشت في بكاء حاد وأنا أضع يدي على وجهي.. مازال والدي يزوره ومازال عمي توفيق يفعل.. ومازالا دومًا يخبرانني أنه بخير.. لكني لم أطل يومًا الحديث عنه معهما، وكأني أخشى أن يخبراني أنه يريدني أو أنه نسيني.. لكن مع هذا الغريب وفي تلك الليلة الغريبة، كنت أود أن أعلم كل شيء عن رؤوف.. اقترب بهاء وهو يشير لي بالجلوس على مقعد اللنش حيث أدار محركه قائلًا:
- الحب يبقينا بخير من أجل من نحب.. سيعود وستعلمين أنه ما تحرر من عبوديتك يومًا.. سأخبره أني التقيتك.. سأخبره أنك بخير.
رميت بعيني إلى النيل واللنش يأكل سطحه في هدوء، وقلت كأنني أعرف بهاء منذ زمن:
- هل تعتقد أن رؤوف حقًّا بريء مما نسب إليه؟!
ابتسم بهاء، وهو يقول في ألم:
- يومًا تعرفين أنت أن رؤوف عبد الجواد رجل ليس مثله رجل من الرجال.
على شاطئ الأرض، ودعت بهاء وأنا أشكره، ومد يده يمنحني بطاقته التي تحمل اسمه ورقم هاتفه، وأخبرني أنه يمكنني الاتصال به حين أشاء ومتى أريد، سواء كان عندي سبب للاتصال أو دون أسباب.. أخبرني أن موعد زيارة رؤوف بعد يومين، وأنه سيخبره بلقائنا..
عندما طلبت منه أن يزورنا بعد زيارته لرؤوف، قال في صوت حاد لكنه خفيض هادئ:
- أنا لا أدخل بيت توفيق عبد الجواد!

* * * * *

كانت رحلة عودتي إلى منزل والدي طويلة.. كنت أقود سيارتي ولا أستطيع التحكم في تلاطم الصور والأفكار في رأسي.. كان يومًا غير كل الأيام.. ما الذي حدث؟! الدكتور إبراهيم أشعل حريقًا، وقاد أحداثًا لا أصدق أنني نجوت منها..

كيف ركبت ذلك القارب وذهبت إلى بيت الجزيرة؟ ومن هو قائد القارب؟ وأين اختفى؟ لم نجده أنا وبهاء عند عودتنا لأعطيه نقوده.. وماذا لو تبعوني حقًّا إلى الجزيرة وأصابوني بالأذى؟ ماذا لو لم يظهر بهاء؟ كيف كنت أعود؟!

هل كنت أتصل بوالدي أو زياد؟ كيف ورؤوف يعتبر بيت الجزيرة سر أسراره، الذي لا يريد أن يعرف عنه أحد شيئًا؟ وبماذا كنت أفسر ذهابي إليه لوالدي أو حتى زياد؟ ما الذي أصابني؟!

عدت أتذكر بهاء وأرخيت عيني في خجل؟! كيف صدقته؟ كيف جلست معه وتحدثت وعدت معه إلى الأرض؟!

بهاء؟! الذي رآني عارية أمام مرآتي.. هل يخبر رؤوف؟! هل يخبره بما رأى؟! هل هو صديق رؤوف حقًّا.. أم أنه هو الآخر خيال وليس له وجود كقارب الشاب، الذي أخذني إلى البيت؟!

ماذا لو لم يكن حقًّا صديق رؤوف؟ ماذا لو اغتصبني في تلك اللحظات؟! هززت رأسي وأنا أقود سيارتي هل كنت سأرضخ؟ كنت بحاجة إلى رجل.. هل كنت أستسلم؟! لكني صرخت وركضت إلى ملابسي أختبئ داخلها.. أصبح كل ما في رأسي تلك اللحظة أن أخفي جسدي العاري.. لم أفكر حتى في تلك السكين التي يحملها في يده.. كل ما كان يخيفني هو أن يرى أو يلمس جسدي.. أولم يكن جسدي قبلها بلحظات هو سر شقائي؟!

بظهر يدي مسحت دمعي لأرى طريقي.. كان يومًا أسود.. لكنه في نهاياته.. حتى فراق رؤوف فراق أسود أتمنى أن تأتي نهايته.. وبزاوية عيني نظرت إلى مرآة سيارتي وشهقت ذعرًا مما رأيت.. مازال شعري ثائرًا مائجًا حول رأسي منذ رميت مشبكه على حشائش الجزيرة، وازداد ثورة عند عودتي في اللنش مع بهاء.. عيناي متورمتان وخطوط دمعي الأسود رسمت دوائر تحت جفني..

كان يومًا أسود.. لكن هو في النهايات.. أوقفت سيارتي وحملت حقيبتي أجرجر ساقي.. لا شيء أريده الآن سوى فراشي القديم.. فراش بيت أبي.. فراش الحرية الكبير.. حيث كنت أغفو بلا حب أو قيود أو عبودية، كما قالها بهاء.. فراش بيت أبي هو كل ما أريد.. لكن هناك ليالٍ لا تنتهي حتى وإن ظننا أن موعد نهايتها قد حان.. هناك ليالٍ نظنها انتهت إن وضعنا رؤوسنا على وسائدنا وأغمضنا أعيننا.. لكنها تبقى غير كل الليالي، ولها نهاية غير سواها.

في اللحظة التي ظننت أنني وصلت، وأني سأهدأ وأنام.. وبعد أن فتحت باب بيت والدي، دخلت ورأيته يجلس على مقعده في صالة بيتنا، وما إن رآني حتى أغلق المصحف الذي كان بين يديه، رفع عينيه ينظر إلى وجهي وشعرت بالفزع.. ما تراه يظن أو يتخيل، وأنا على ما أنا عليه؟ وقفت في مكاني لا أتقدم خطوة، وهو على مقعده لا ينبس بكلمة.. وبعد لحظات نهض والدي عن مقعده، قائلًا في قسوة أعرفها:

- اغتسلي يا شهيرة واخلدي للنوم..

جن جنوني وبلا وعي شعرت أن والدي يتهمني بشيء، أو يعني شيئًا لا أقره، وتقدمت نحوه أقول:

- ما الذي تعنيه؟!

في ثبات كأنه يبحث في جلدي ووجهي ورائحتي عن شيء، قال:

- ما الذي فهمته؟!

ألقيت بنفسي على صدره وبكيت من جديد.. بكيت وأنا أحكي له كل شيء عن يوم ليس كالأيام.. حكيت عن الدكتور إبراهيم.. عن مكالمة عمي.. عن بيت الجزيرة.. عن القارب المجهول الذي أخذني.. عن بهاء.. حتى عن جسدي العاري.. حكيت له عن شكي في رؤوف.. عن حاجتي.. عن شوقي.. عن ضعفي.. وعن كرهي ليوم غير سواه من الأيام.

بعد لحظات من انتهائي، وبعد لحظات من سكوت صوتي ودمعي قال والدي في هدوئه:

- نحن في الحب لسنا عبيدًا.. نحن في الصداقة وحاجتنا إلى الطعام والشراب والجنس والحنان لسنا عبيدًا.. نحن بشر.. نحن أسياد بالمبادئ.. بالاختيار.. بالنقاء.. ما حدث اليوم اختبار من الله.. لقد أنجاك الله من شر أستاذك فلم تبعتِ شر نفسك؟! أنجاك الله مرتين.. فكيف مازلت لا تفهمين؟!

سألت والدي السؤال ذاته قائلة:

- هل من الممكن أن يكون رؤوف مذنبًا؟؟!

أمسك والدي بيدي، وهو يقول:

- شهيرة.. نحن لا نملك سوى قلوبنا وعقولنا.. قلبي وقلبك يجزمان ببراءة رؤوف.. وها هو صديقه يؤكد لك بحبه ووفائه له أنه حقًّا كما نظن.. لكن وإن كان رؤوف مذنبا فهو ليس فوق الخطأ.. الله يغفر.. الله يغفر يا شهيرة.. هيا يا ابنتي اغتسلي ونامي، وفي الصباح اختاري دربك..

أمامك دربان.. درب الصبر والنقاء وإما درب الشك والضياع.. هي لحظات.. هو اختبار.. وشهيرة عبد الرحمن زوجة رؤوف عبد الجواد ستختار ما خُلقت له.

قبل أن أدخل إلى غرفتي، التفت أسأل والدي يومها قائلة:

- وبهاء؟! ماذا أفعل معه؟! هل أخبر عمي بأمره؟!

أجابني والدي في نهاية تلك الليلة:

- سأخبر أنا زوجك عنه وعن لقائكما.. وحده يعلم ما لا نعلمه نحن!!

* * * * *

عند وصولي إلى الجامعة في اليوم التالي.. كنت مازلت مجهدة لكني كنت أكثر قوة وإدراكًا..

وضع الله بهاء وشباب القارب في طريقي؛ لأعلم وأدرك أن جسدي في لحظة أصبح أغلى من روحي.. أنا ما خشيت من سكين بهاء أن تقتلني.. لكني فزعت وصرخت وبقيت أدور كنحلة مجنونة في دوائر عشوائية ممزقة؛ لأني أردت ستر جسدي والاحتفاظ به كما تركه زوجي وحبيبي..

الظمأ لا يبرر أن نشرب أكوابًا لا نريدها ولا تقرها عقولنا ومبادئنا..

شباب القارب ما عادوا لأني أعلم أنهم في أحد أركان النيل غابوا في شهواتهم المحرمة، التي أنستهم الصواب والحق.. أنستهم حتى العودة ليأخذوا مالهم الذي وعدتهم به..

نعم.. خلق الله الجوع والعطش وظمأ الأجساد.. لكنه خلقنا إن لم نأكل أو نشرب نموت.. لكننا نبقى أحياء بحرمان أجسادنا.. عذابنا يطهرنا.. حرماننا يغسلنا.. كيف عاش أبي دون أمي كل هذه الأعوام؟ بل كيف يحيا رؤوف في سجنه؟

أنا بإمكاني دومًا أن أضم ضياء، وأرتمي على صدر والدي.. حنانهما يكفيني..

د. ابراهيم أحمق كاد يجعلني أفقد صوابي، وأظن أني بلا اختيار أحيا.. والدي على حق.. يجب أن أختار.. الاختيار وحده يصنع الفرق بين الإنسان وأي كائن سواه..

كما اخترت رؤوف يومًا.. وكما اخترت الطهر، يجب أن يكون اختياري اليوم هو اجتياز الاختبار..

نعم الحيرة اختبار.. والحرمان اختبار.. ولا أحد فوق الضعف أو الخطأ، لكن السقوط دونية، وأنا سأختار ما خلقت له..

خطوت يومها إلى مكتب الدكتور إبراهيم في ثبات، رغم أن عواصف الأمس كانت آثارها مازالت باقية على روحي وقلبي.. عندما دخلت مكتب أستاذي ألقيت عليه التحية، ونظرت في عينيه نظرة ثاقبة كأني أتحداه بها، وأتحدى نفسي.. ابتسم يومها قائلًا:

- مازال بإمكاننا تحديد موعد آخر..

وأجبته في هدوء:

- نعم مازال بإمكانك تحديد موعد آخر.. ولكن مع الجحيم!!

* * * * *

كيف يذهب مدحت عبد الرحمن وتوفيق عبد الجواد إلى زيارة رؤوف في كل موعد زيارة، ولم يلتق أحدهما مرة بهاء؟

هذا ما سألته عند عودة والدي من زيارة رؤوف، وبعد أن أخبرني أن زوجي قال إن بامكاني محادثة بهاء وقت أشاء، وإنه حقًّا صديقه وهو من منحه مفتاح البيت واللنش.

والدي قال إن أغلب الظن أن بهاء يذهب في الصباح الباكر، وينصرف قبل حضورهم؛ حيث إنهم لا يذهبون قبل انتصاف النهار.. والدي أيضًا أضاف أنه يرى ألا داعي للاتصال ببهاء دون داع.. لكن أنا حادثت بهاء بعد يومين من الزيارة.. معه أتحدث عن رؤوف بحرية أكبر.. معه أشعر أنني أرى رؤوف بوضوح أكبر.. وطلبت من بهاء أن يلقاني، وحددنا موعدًا بعد أيام..

معه.. كنت أشعر بثقة أكبر في زوجي.. كنت أشعر أنني أحب رؤوف أكثر..

هو مؤمن به.. وأنا كنت بحاجة إلى كل ما له صلة بالإيمان..

في ذاك اللقاء سألته كيف التقى رؤوف، وكيف يعرفني ويعرف اسمي، سألته كيف نثق الثقة العمياء، وكيف نؤمن الإيمان المطلق!

ابتسم بهاء وهو يقول ليس هناك ما يسمى ثقة عمياء.. نحن بعد رحلة طويلة ومواقف كبيرة نحياها، ونحن مفتوحو الأعين، نتعلم أن نثق في شخص.. قال إن لحظات ضعفنا وضياعنا تعلمنا من نتبع وبمن نثق.. نحن لا نثق أبدًا فيمن لم يروا ضعفنا وبكاءنا.. من يروننا دومًا في أقنعة صلابتنا وقوتنا هم آخر من نمنحهم الثقة.. وإن فعلنا، فقد نكتشف بسهولة كبرى أننا على خطأ كبير..

أنا لم أفهم وقلت له إنني يوم أحببت رؤوف ومنحته ثقتي.. لم أكن في ضعف أو انهيار.. بهاء قال لي يومها:

- وحدتك قبل لقائه.. حبك له يا شهيرة في اللحظة التي رأيته فيها كان ضعفًا.. قبولك لحبه وعرض زواجه كان ضعفًا.. تخليك عن حريتك وحياتك الطويلة قبل لقائه كان ضعفًا.. ما صنعه رؤوف بضعفك هو ما جعلك وجعله تصلان إلى الثقة العمياء.. حين بكيت ضمك وحين ضحكت شاركك الضحك.. حين منحته قلبك منحك اسمه وشرفه.. من الضعف جاءت القوة ومن الاستسلام ولدت الثقة.

رفعت وجهي يومها لأنظر إلى وجه بهاء الأسمر، وقلت في ثبات:

- أي ضعف جمعك برؤوف لتحبه هذا الحب؟ وأي استسلام خلق بداخلك هذه الثقة منه إلى الحد الذي يجعلك تعلن أنك عبد له؟!

بهاء رجل قد يبدو غامضًا.. في أعقاب كل كلمة يسمعها يتلو تفسيرًا يراه هو وحده.. هو رجل تشعر أنه يحيا وحده في عالم من صنعه.. عالم صغير لا سكان فيه إلا رؤوف وعمله والكتب.. رفض طويلًا أن يخبرني عن حقيقة علاقته برؤوف أو إصراره الواضح على عدم لقاء عمي توفيق أو دخول بيته، لكنني كنت في كل مرة أحادثه أو ألقاه أسأله السؤال ذاته: كيف التقى رؤوف ومتى ولماذا يحبه إلى هذا الحد، ويكره عائلته بأكملها وأيضًا إلى هذا الحد. وفي كل مرة كان يقول بابتسامته الصغيرة:

- النساء.. النساء آه منهن.. أخبرتك أنني لا أريد الحديث في هذا الأمر فأصبح هذا الأمر هو كل ما يهمك معرفته.. ظننت المرأة إن أصبحت أستاذًا في الجامعة تختلف.. لكن نبقى العمر نتعلم ونموت، ونحن نعلم كل شيء ولا نعلم عن النساء أي شيء..

* * * * *

أصر والدي على دعوة بهاء إلى بيته، عندما علم بتعدد لقاءاتنا وأحاديثنا.. أصر وقبل بهاء بعد تردد طويل.. ودعونا زياد وعزة يوم دعوناه.. كأننا اجتمعنا لنشهد مفاجأة جديدة من مفاجآت القدر ولوحاته..

جاء بهاء إلى زيارتنا في بيت والدي.. جاء وفي اللحظة التي رآه فيها، صاح وهو يضمه إلى صدره في ذهول، كأنه لا يصدق عينيه:

- بهاء!! بهاء مهران.. أيها العزيز..

استدار والدي ينظر إليَّ ليشرح:

الأرض صغيرة.. إنه بهاء مهران.. أتيتني بهدية يا شهيرة.. ليس زائرًا.. إنه هدية!

عاد والدي ضمه في فرحة كبرى، ورأيت بهاء يغمض عينيه على كتفي والدي، وقال يتمتم:

- والله ما اشتقت لأحد سواك..

حين جلس بهاء يومها على المقعد القريب قال وهو ينظر في وجهي:

- طوق جديد تضعينه حول عنقي.. لست زوجة رؤوف فحسب، ولكن ابنة سيد الرجال..

لم أستطع أبدًا أن أسأل.. فما رأيته في عيني بهاء ووالدي كان يفرض الصمت والسكون.. جلس والدي إلى جوار بهاء، وهو يربت على فخذه في سعادة، وقال بعد أن تمالك نفسه، وهو ينظر إلى وجهي الغارق في الدهشة:

- كان أفضل معلمي اللغة العربية في مدرستي، بل وفي المنطقة بأكملها.. أين اختفيت يا بهاء؟ أين يا ولدي؟! ما الذي حدث؟!

كعادة بهاء عندما يبتسم تلك الابتسامة الصغيرة، تعلم أنه لن يتحدث.. في تلك اللحظات خرج ضياء بخطواته الصغيرة من غرفتي، عندما سمع جرس الباب كأنه يعلم أن خلف الباب هذه المرة زياد وعزة وصديقته الصغيرة حنان.. كأنهم جاءوا لينقذوا بهاء من الإجابة..

تحادثنا جميعًا وأحب الجميع بهاء؛ خاصة بعد حديث والدي عنه واستعادتهما لكل ذكريات عمله في مدرسة والدي، منذ أكثر من عشرة أعوام.. وبعد انتهاء طعام العشاء، وحين جلسنا جميعًا نرتشف أكواب الشاي، وانشغل الطفلان ببعض الألعاب.. قفز إلى رأسي السؤال الذي لا أنساه، وفي تخابث أحمق قلت لبهاء في حضور والدي وزياد وعزة:

- ألا تعتقد أن الأوان قد آن لتحكي لنا كيف عرفت رؤوف على الأقل بعد أن اكتشفنا أنك ووالدي أصدقاء؟!

لم يبتسم بهاء هذه المرة ابتسامته الصغيرة.. لكنه وضع كوب الشاي المعلق بين أصابعه، ومد يده السمراء إلى حافة بنطاله يرفعه عن ساقه اليسرى في هدوء.. شهقت عزة في فزع، عندما رأت ما رأيناه جميعًا..

لم تكن هناك ساق.. ساق بهاء مبتورة من أسفل الركبة، وما يخطو عليه بهاء هو ساق تعويضية ترقد نهايتها في حذاء، وتختبئ خلف ملابسه، وقال وهو ينظر إلى والدي:

- مازلت أذكر يومي الأخير في مدرستك يا حضرة الناظر.. يومها استدعيتني في مكتبك، وأخبرتني عن هشام عبد السميع ذاك الطالب النجيب الذي مات أبوه العامل في شركة الغزل والنسيج.. طلبت مني أن أذهب إلى أمه لأخبرها بأننا سنساعده بمبلغ شهري؛ حتى يحصل على الثانوية العامة.. هل تذكر؟!

رفع والدي حاجبه، وهو يقول:

- نعم.. هشام عبد السميع.. أخبرني أنك لم تزره.. سألته عنك عندما طال غيابك عن المدرسة..

أرخى بهاء رأسه ينظر إلى ساقه المعدنية في ألم، وأكمل حديثه قائلًا:

- لم أجد أحدًا في البيت يومها.. أخبروني أن هشام أخذ والدته وذهب معها للإقامة عند خاله في أحد قصور المنصورية؛ حيث يعمل الرجل حارسًا هناك.. هممت بالعودة إلى منزلي.. لكنني خشيت أن يكون هذا معناه نهاية حياة هشام الدراسية، فما عساه شاب كهذا يفعل بعد موت أبيه، وكيف يحضر يوميًّا من المنصورية إلى مصر الجديدة.. أخبروني بعنوان المزرعة، وكانت زوجتي في تلك الليلة تبيت عند والدها، فقررت

الذهاب.. قررت أن أذهب وأخبر هشام أنني لن أدعه أبدًا يعبث بمستقبله.. كنت سأخبره أنه إن استحال وجوده إلى جوار مدرسة الطبري، فأنا سأقوم بإنهاء إجراءات نقله إلى مدرسة قريبة من المنصورية، وأننا سنتكفل بمساعدته حتى دخوله الجامعة.. هشام كان عبقريًّا وكان أيضًا على خلق..

أغمض بهاء عينيه، كأنه يرى صورة لا يريد تذكرها أو رؤيتها، ثم عاد يفتحهما قائلًا:

- لم أصل إلى هشام.. طريق المنصورية صعب ضيق ومظلم هبطت من الميكروباص ومشيت، حيث أخبروني أنه يجب أن أسير حوالي كيلومترين على قدمي حتى أصل.. الجو كان جميلًا، وكنت أعلم أن كل خطوة أخطوها هي رحمة من ربي.. أنا أحب هشام كثيرًا.. في ذاك الطريق المظلم الضيق، وأنا أنظر حولي في ذهول إلى تلك القصور المغلقة المظلمة.. سمعت في لحظة هدير سيارة، وقبل حتى أن أرفع قدمي لأبتعد بها أو أستدير لأرى ما أسمعه وجدتني أطير بعد صدمة عنيفة.. نعم كنت أطير وسقطت.. سقطت وأنا في كامل وعيي ورأيت وجه سائق السيارة.. رأيته رغم الظلام.. رأيته في ضوء مصابيح سيارته.. واقترب مني، انحنى حيث رفعت كفي أحاول الإمساك بكفه.. لكني غبت وكان آخر ما رأيته هو ذاك الوجه الذي لا أنساه..

سكت بهاء لحظات، نظر فيها إلى وجه والدي ووجهي، ورأيته يعض على شفتيه كأنه يكره أن يكمل ما بدأه، إلا أن والدي قال في حنان:

- أكمل يا بهاء.. ماذا حدث؟!

أكمل بهاء قائلًا:

- عندما أفقت لم أكن في المستشفى.. كنت في مكاني.. كنت وحدي على الطريق.. حاولت النهوض، فلم أستطع.. كانت قدماي مشلولتين، ورفعت نصفي الأعلى لأرى نزف دمائي.. لم أجد السيارة ولم أجد سائقها، عندما حاولت الصراخ.. ضحكت من يسمعني.. مازالت المنصورية طرقها مجهولة ومخيفة.. وكانت أكثر إظلامًا وبشاعة في ذاك الوقت..

.. ضحكت ودمعي يتساقط على جنبات وجهي، ألقيت بظهري على تراب الطريق.. ربما ذهب سائق السيارة لإحضار النجدة.. وضحكت أكثر وأنا أسخر من سذاجتي وألمي.. أما كان أولى به أن يحملني إلى سيارته.. لكن ربما عجز عن حملي.. غيابي عن الوعي جعلني أشبه بجثة أو ربما ظنني ميتًا.. نعم أنا حقًّا ميت.. قد تأتي سيارة أخرى وتمزقني في هذا الظلام، وهي لا تراني.. بقيت في وعيي أرقب دمائي الغزيرة.. تهرب من ساقي.. وأرقب أذني المفتوحة تبحث عن صوت قدم تقترب مني لتساعدني، أو حتى صوت سيارة تأتي على ما بقي مني وتريحني لا من الألم، ولكن من الأمل في النجاة..

.. لو كان عندي هاتف محمول ربما لاستطعت الاتصال بأحد.. لكن كنت أراه رفاهية، لا أملك ثمنها ولا أحتاجها ولا أحبها..

.. كل ما كنت أفكر فيه في تلك اللحظات هو هشام.. مسكين لن أساعده ولن يعلم بحضوري، أو رغبتك أنت أيضًا في مساعدته.. كنت في تلك اللحظات أفكر كيف أن موتي سيصاحبه موت هشام.. ذاك الشاب المسكين.. هو أيضًا لو كان لديه مال، لما احتاج حضوري، وما تسبب حضوري وبحثي عنه في موتي.. كنت أنظر إلى السماء المظلمة الخاوية من قمر أو نجمة.. وأضحك رغم سخونة الدمع على وجهي، ولهيب نزف الدم من ساقي.. لو كنت ثريًّا لكان عندي سيارة وهاتف محمول، ولو كان هشام ثريًّا ما كان موت والده رمى به إلى هذه الغابة، التي جئت أخرجه منها فمت على أرضها.. هل توجد ذئاب؟! هل توجد ضباع؟! هل يخرجون لتمزيق جسدي؟ ألا يمر من هذا الطريق أحد سوى قاتلي؟ وأين ذهب؟ وهل تراه يعود؟!

.. بعد دهر، سمعت صوتًا أشبه بصوت السيارة.. كنت قد بدأت أفقد قدرتي على التركيز لكثرة ما نزفت.. لكن رغم هذا سمعت صوتين أحدهما يصيح مؤكدًا موتي، والآخر يطلب منه أن يساعده في حملي إلى السيارة، واقترب الرجلان مني.. ورأيت وجه قاتلي، وسمعته يصيح قائلًا:

لن أذهب معك..

.. رفعت كفي حاولت الإمساك بعنقه.. لكنني كنت أغيب وساعد على استسلامي للغياب شعوري بأنني ما عدت ملقى على الأرض، وبأن ما بقي من جسدي لن تنهشه الذئاب.. الغريب قاد السيارة، وأنا ملقى على مقعدها الخلفي.. وفي لحظات عودتي من الغياب كنت أسمعه يردد

بعض الآيات القرآنية، ويحاول أن أتحدث معه.. كان يخبرني أني بخير.. وابتسمت وكان آخر ما رأيته قبل غيابي الأكبر هو وجهه، وهو ينحني محاولًا إخباري أننا بباب مستشفى الهرم نقف.. ذاك الوجه الذي أنقذني كان وجه رؤوف عبد الجواد..

شهقت أنا عندما سمعت اسم رؤوف، وقلت دون وعي:

- رؤوف هو من..

وقال بهاء مقاطعًا:

- رؤوف أنقذني.. كان في البيت عند عودة طارق إليه.. رآه كما أخبرني في حالة مزرية، بعد أن صدمني بسيارته، وهرب ليتركني أنزف وحدي ساعات.. أخبرني أنه رأى دماء على سيارة طارق، التي سقطت على مقدمتها بعد طيراني ذاك.. رفض طارق أن يخبره في البداية بما حدث ورفض أن يعود إلى مكان الحادث.. كان يظنني مت.. لكني أعلم أنه رآني حيًّا أتنفس.. رؤوف أرغمه على الحضور بعد ساعات، كان من الممكن فيها إنقاذ ساقي التي بترت.. بترت.. طارق بترها.. طارق عبد الجواد قتلني ورؤوف أحياني.. شهور وهو معي في المستشفى.. شهور وهو ينفق على علاجي في سخاء.. شهور وهو معي حتى شراء الساق المعدنية البديلة.. وحتى جلسات التدريب..

سكت بهاء لحظة ليقول والدي:

- اختفيت.. بحثت بنفسي عنك يا بهاء.. ذهبت إلى منزلك.. أخبروني أن زوجتك رحلت إلى الإسكندرية.. لا أحد يعرف عنك شيئًا.. لماذا لم تحادثني؟! حتى عملك لم تخطره بما حدث.. لماذا؟!

رفع بهاء وجهه الأسمر، وقال في حزن كبير:

- كرهت نفسي وأنا مبتور الساق.. كرهت أن يمد كل من يعرفني ذراعه نحوي لأستند عليه.. كرهت إيلامك وإشفاقك عليّ.

استدار بهاء ينظر في وجهي، ثم قال:

- يوم علمت أنك ترفضين زيارة رؤوف في سجنه أدركت أنه تزوج سيدة لها قلب حقيقي.. القلوب النقية تهرب من أن يراها من تحب في ألم.. لكنها أيضًا تذبح بسهولة.. ما كانت إصابتي في ساقي المبتورة وحدها.. كان هناك جراحات أخرى كثيرة تحملها رؤوف وحده، ويوم سألته إن كان يفعل هذا من أجل أخيه.. قال لي إنه يفعل كل هذا لأنه من الممكن أن يصبح يومًا مكاني.. وأنه يتمنى أن يجد من يمد له يديه في يوم كذاك.. وددت لحظتها لو أخبره أن الأثرياء لا يتركون على الطرقات.. وددت لو أخبره أن الأثرياء لا يتعذبون ولا يسحقون، لكني ما استطعت.. رؤوف ليس ثريًّا.. رؤوف رجل.. بين كل حين وآخر، كان يؤكد لي أنه مازال لي كل الحق في مقاضاة أخيه.. ولكن إن كان طارق قتلني فرؤوف أحياني.. ليس بما فعل، بل بصداقته.. بحبه ووفائه.. هكذا أصبحنا أصدقاء.. وهكذا ابتعدت تمامًا عن هناك، وسكنت أحد أحياء الهرم والتحقت بالعمل في إحدى المدارس الخاصة هناك وأيضًا بمساعدة رؤوف.. كيف لا أكون له عبدًا؟!

.. هو لم يخبر والده بشيء مما حدث.. عرض عليَّ مبلغًا كبيرًا كتعويض.. لكني رفضت، وطلبت منه أن يصرف ذاك المبلغ على تعليم هشام عبد السميع..

وشهق والدي قائلًا:

- أعوام وأنا أتمنى لو أعرف من ذاك الذي ينفق على هشام.. هشام الآن أستاذ مساعد في هندسة القاهرة..

ابتسم بهاء قائلًا:

- رؤوف عبد الجواد فعلها..

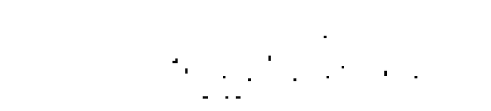
ومن بين دمعاتي، سمعت زياد يقول، وللمرة الأولى :

- رؤوف لم يفعلها.. أنت من فعلها.. أنت يا بهاء.

قلت أنا يومها في ذهول:

- أين زوجتك؟.. لم تخبرني أنك متزوج؟!

نظر بهاء في وجهي مبتسمًا، ثم عاد ينظر إلى والدي في مرارة، وهو يقول:



- سكندرية رائعة الجمال.. كنت تحبها يا حضرة الناظر.. كانت عاقلة متزنة.

وابتسم والدي كأنه وجد شيئًا، يخرجنا من هذا الكم الهائل من الألم والمفاجآت؛ فقال:

- منى.. نعم منى.. أين هي يا بهاء؟!

وقال بهاء في صوت خفيض:

- ألم أقل إنها متزنة وعاقلة وأيضًا رائعة الجمال.. هل تحيا امرأة عاقلة وجميلة مع رجل له ساق ونصف؟!

* * * * *

الصدفة وحدها قد تحمل لنا الحقائق الخفية.. قد نبحث أعوامًا عن الحقيقة حتى يقتلنا البحث يأسًا، ثم تأتينا الحقيقة على كف الصدفة كأن الحقائق والقصص أيضًا تتحدانا وتتحدى عقولنا وإرادتنا.

كم مرة سألت بهاء مهران عن حقيقة صلته برؤوف.. كم مرة التقيته ولم أعلم سر خطواته الثقيلة، وكم كان هو حريصًا على ألا يخبرني شيئًا.. الصدفة جعلته يحكي كل شيء.. الصدفة جعلت بهاء مهران، الذي كان يعمل مع والدي منذ أعوام طويلة، يعود ليلتقيه في بيتنا، بعد أعوام لأعلم منه ما لم أكن أعلم..

هل للصدفة اسم آخر؟! ربما كان اسمها القدر.. في كلمة الصدفة عشوائية ومفاجأة.. لكن في كلمة القدر ترتيبًا له أهداف وأسباب.. لم تكن الصدفة التي حملت بهاء مهران إلى بيت والدي، في حضور زياد وعزة.. إنه القدر..

أحببت بهاء مهران أكثر.. وأحببت رؤوف أكثر، وبدأت أنظر إلى طارق في دهشة أكبر.. كيف يفعل هذا؟! وكيف يكون بعد هذا شقيق رؤوف.. ربما كان خائفًا.. الخوف ينسينا المبادئ.. ولكن هل ينزع الرحمة من قلوبنا.. في كل يوم كنت أرى طارق بعدها كنت أشعر أني أرى رجلًا بلا قلب وجسدًا يتحرك بلا رحمة.. في كل يوم بعد يوم بهاء ذاك.. وكلما ضم ابني الصغير إلى صدره، أو أحضر له هدية أو حمله على ذراعيه، أجدني أرفع حاجبي وأنظر إليه في دهشة.. كيف يلاعب طفلًا ويضمه؟ كيف يحنو على صغير، وقد كاد في يوم أن يقتل كبيرًا ويتركه ملقى لذئاب الطريق، تنهش جسده قطعة قطعة؟ ولماذا؟! لأنه خائف!!

رغم هذا نسيت تفاصيل قصة بهاء ولم تعد تحتل تفكيري طوال الوقت.. لكني أبدًا ما استطعت أن أرى طارق عبد الجواد يومًا بعد ما عرفت، كما كنت أراه قبلها.

كانت الأيام تمضي وضياء يكبر وموعد عودة رؤوف يقترب.. حتى جسدي بدأ يهدأ وثورات نداءاته بدأت تخفت.. اقتربت عودته.. عزة أصبحت حاملًا للمرة الثانية، والأحرار بدأت تقف من جديد على قدميها؛ فقصص كثيرة أخرى سرقت منها أضواء التشهير والشهرة.. وبدأت أنا أعود إلى هويتي الأولى.. الدكتورة شهيرة عبد الرحمن.. لم تعد العيون تطاردني بحثًا عن رؤوف أو عن خبر، أو جديد في قضية الدواء المغشوش.. ربما لأن كل شيء في حياتنا أصبح مغشوشًا حتى وجوهنا ومشاعرنا.. حتى عمي توفيق بدأت ملامحه تتجهم من جديد، وعاد يفرض قرارات ويرفع أسسًا ويرسي أوامر وتعليمات.. كأنه حين شعر باقتراب عودة رؤوف، قرر أن يسقط أعوام غيابه من ذاكرته وذاكرة الأيام..

كل شيء بدأ يهدأ.. حتى أنا ما عدت أثير حولي الشهوات.. ربما علم كل من معي أنه لا أمل في الوصول معي إلى شيء، أو ربما علموا أن اقتراب عودة زوجي جعل مني زوجة يجب أن تحترم، لا أنثى وحيدة جائعة يجب أن تفترس.. الدكتور إبراهيم الصاوي، أصبح يعاملني من جديد مثل عالم جليل وأب رحيم.. وفي كل مرة كنا نلتقي فيها أو نجتمع في مجلس الجامعة، كنت ألملم أوراقي وأنظر إليه، وأنا ابتسم ابتسامة صغيرة ساخرة كأنني أخبره أنني مازلت أرى فيه وجهًا لن أنساه.. لكن أما كان ذاك الوجه وذاك اليوم هو طريقي إلى لقاء بهاء مهران، ورؤية وجه آخر لرؤوف عبد الجواد.. وجه جعلني أحبه أكثر وأحتمل معه ألمي وشوقي وظمئي بفخر واعتزاز؟!

ما عاد حتى الوصول إلى الحقيقة يشغلني كثيرًا.. ما عاد يعنيني أن تظهر براءة رؤوف.. كأني وصلت إلى حقيقة كبرى، وهي أن كل المجتمع قساة مذنبون.. ما يعنينا أن يُبرأ رؤوف في أعين هؤلاء؟!

الأنقياء قليلون، وهم يعلمون أن رؤوف عبد الجواد لم يفعلها..

بهاء مهران ووالدي وعزة وأنا وحتى طارق ووالده نعلم، علم اليقين، أن رؤوف لم يفعلها، فلماذا نهتم؟! سجن رؤوف والبراءة الآن لن تعيد له أو لي أعوام الشقاء.. لم تعد البراءة تعني الكثير.. نسيان القضية بأكملها هو الأهم.. عودة رؤوف إلى ضياء.. إلى عمله.. إلى ذراعيّ.. إلى بهاء هو الأهم.. لم يعد حتى هناك من يذكره أو يذكر قضيته.. وإن فعلوا استعادوها من ذاكرتهم قائلين: آه.. أوليست هذه زوجة رؤوف عبد الجواد، الذي سجن في تلك القضية..

أصبحنا «تلك» القضية... ما أصبحت الحقيقة تعنيني.. أصبح كل ما يعنيني هو الواقع، والواقع يعلن أن عودة رؤوف أصبحت قريبة.. أقرب

حتى من أن أفكر في شيء سواها!!

عمي توفيق عبد الجواد بدأ هو الآخر يستعيد نضارته، وأصبحت كل أحاديثه عن عودة الغائب.. أصبح يذكر اسمه في كل مرة نتناول فيها عشاءنا اليومي معًا، بل طلب مني أن أستخرج تأشيرة جديدة إلى باريس.. أخبرني أيضًا أنه قام بالاتفاق مع صديق له هناك بالاتفاق مع مربية إنجليزية، يعرفها لنترك لديها ضياء في سهراتنا الليلية أنا وهو.. أخبرني عمي توفيق أنه لا يمانع في أن نترك ضياء في مصر مع عزة.. لكنه يريده أن يسافر معنا؛ حتى يعتاد وجودي أنا ورؤوف معه وحدنا.. أصبح سعيدًا بكل يوم يمضي كأنه يعد لزفاف جديد، مازلت أذكر كيف ابتسم ذات مساء هامسًا في أذني أنه أعد لي خاتمًا جديدًا من الماس، يفوق وزنه القيراطين.. وضمني عندما رأى شهقتي قائلًا إنني زوجة تستحق أن نمنحها كل شيء بعد أن منحت زوجها أغلى الأشياء على الأرض.. منحته «الوفاء»!!

بدأت أحيا حلم عروس حقيقية حتى أنني طلبت أيامها من بهاء مهران أن يخبر رؤوف عند زيارته أنه لن يجدني في البيت عند عودته.. أخبرته أنني سأنتظره في بيت الجزيرة أنا وضياء..

أحلام كثيرة.. أحلام كبيرة.. مباحة ومشروعة بعد أعوام الفراق والحرمان.. لكن متى كانت شرعية الأحلام وحدها جواز مرورها إلى أرض الواقع؟!

كنت أتحرك في جنون بين ضياء والجامعة وبيت الجزيرة.. حملت إليه قطع أثاث صغيرة وجديدة.. حملت إليه أسطوانات لقطع موسيقى أردت أن أسمعها بصحبة رؤوف، وأسطوانات أخرى عليها أفلام ديزني وكارتون التي يحبها ضياء.. حملت أثوابًا حريرية وعطورًا جديدة لليلة حب كبيرة وعمر جديد..

أخبروني أن عام السجن ليس كأعوام الأحرار.. عامه أقل.. أخبروني أن رؤوف سيخرج في غضون شهرين وربما أقل.. وبدأت أزقزق وأغرد في أذني بهاء وعزة بكل أناشيد الحب، التي غزلتها على ألحان الصبر والألم..

عزة كانت سعيدة من أجلي، وكانت دومًا تخبرني أنها تشعر أنني سأحمل جنينًا آخر في أحشائي من رؤوف فور عودته.. كانت تضحك، وهي تقول إنها ستبقى ترضع طفلها القادم حتى انتهاء حملي وولادتي لترضع طفلي القادم ويصبح أطفالنا جميعهم أبناءها..

مدحت عبد الرحمن أيضًا كان يكثر من تسبيحه ودعائه بانقضاء الأيام الباقية لننسى جميعًا هذه الأيام كأنها ما كانت ولا كان منها يوم واحد.. لكن يبدو أن القدر هو الآخر كان يتحرك بنشاطنا وقوتنا ذاتها..

كما أعددت أنا بيت الجزيرة، واستخرجت تأشيرة السفر.. كما أعددت الأثواب والموسيقى والعطور.. كان هو أيضًا يعد لنا إحدى مفاجآته، التي يبدو أنه يسعد دومًا بتقديمها.. كأننا خصماء أو كأننا، ودون أن ندري، أقمنا بيننا وبينه تحديًا كبيرًا، أقسم ألا يخسره أبدًا!!

سقط توفيق عبد الجواد في مصنعه، وتم نقله إلى المستشفى، بالقرب من المصنع.. لم أكن في البداية أعلم شيئًا من تفاصيل الواقعة.. كل ما عرفته هو أنه سقط بعد مشادة حادة مع طارق.. حادثت والدي لأخبره أنني سأذهب إلى المستشفى، وأنني سأضطر لأخذ ضياء معي حيث يوصلني السائق، ويعود به إلى عزة إن اضطررت إلى البقاء طويلًا.. واتفقنا أن نلتقي هناك.

الأمور كانت أسوأ كثيرًا من كل ما تخيلت.. ظننته ارتفاعًا بسيطًا في ضغط الدم، الذي يعاني منه.. لكنه كان ارتفاعًا كبيرًا أدى إلى حدوث جلطة في المخ..

في المستشفى أخبروني أنه تم إسعافه وحقنه بمذيبات الجلطات، ولكن كان واضحًا ان الجلطة كانت عنيدة كعناده!!

أخبروني أنه في غيبوبة كاملة وأنه أصيب بشلل نصفي.. أخبروني أنه إن لم يظهر تحسنًا في خلال أربع وعشرين ساعة، فهذا يعني أن الأمور ستبقى، وأن أي تحسن بعد الأربع وعشرين ساعة لن يعني أبدًا عودته إلى حالته الطبيعية.

جلست إلى جوار عمي توفيق، أرقب وجهه الغائب في غيبوبته.. جلست أرقب أحلامه وقوته وصلابته، وقد حطمها القدر في لحظة ليغفو أمامي.. جسدًا لا حيلة له ولا أمل سوى الانتظار.. كنت أعلم أنه قد يبقى مشلولًا عاجزًا عن الحديث والحركة، ولكن ما كان يؤلمني أكثر هو رؤوف.. كيف يعود ويراه على هذا الحال؟ كيف يضمه عمي توفيق.. كيف يخبره بكل ما اختزنه له من قصص وذكريات عن رحلة باريس وعن الشوق والحب وأيضًا العمل؟

جلست أرقب عمي توفيق ساعات، وأنا أبكي في صمت حتى أنني نسيت أن ضياء مازال على مقعده الصغير في السيارة. ولم أخبر السائق بالذهاب به إلى عزة..

نسيت كل شيء حتى طفلي الصغير، وأنا أرى كيف سقط هرم الأحرار الكبير، وتكسّر على فراش صغير بمستشفى دار الفؤاد..

أفقت على صوت والدي يناديني من خلفي، واستدرت أنظر إليه، وأنا أهز رأسي في حزن كبير كأن شيئًا بصدري كان يخبرني أن توفيق عبد الجواد لن يعود كما عرفناه.

ضمني والدي في حنان، وهو يخبرني أنه أرسل السائق بضياء إلى عزة.. وبعد لحظات سمعته يسألني السؤال الكبير.. حيث رفع رأسه وقال في صوت خفيض:

- أين طارق؟!

* * * * *

أين طارق عبد الجواد؟! خابرته على هاتفه عشرات المرات.. لكن هاتفه بقي مغلقًا ساعات، يئست فيها من الوصول إليه، وأرسلت له رسالة أخبره فيها بحالة والده ليجدها عندما يفتح هاتفه..

قررنا العودة إلى بيت والدي والعودة إلى المستشفى في الغد؛ فوجودنا إلى جواره وإن اجتمعنا جميعًا لن يغير من الأمر شيئًا.. عدنا إلى بيت المنصورية هذه المرة.. عدنا اثنين فقط.. أنا ومعي والدي.. جلسنا أنا وهو في غرفة معيشة بيتي.. نحتسي كوبين من الشاي، بعد أن قمنا بإلقاء بعض اللقيمات في جوفنا، والتي لم نعلم حتى ما هي أو كيف كان طعمها.. كان طعم المرارة بقلوبنا أكبر..

ألقيت بعيني على مياه حمام السباحة الخلفي، الذي يقع أسفل نافذة غرفة المعيشة في ذهول..

ماذا يحدث؟! ولماذا يحدث؟! كنت حزينة على عمي توفيق.. حزينة على رجل كان على قدميه يقف.. وفي لحظة أصبح جثة مسجاة على فراش صغير ولا أحد يعلم إن كان سينهض منه مرة أخرى.. أم يبقى سجينه إلى الأبد.. بل ربما كان حزني وخوفي الأكبر هو من اللحظة، التي ينهض فيها عن ذاك الفراش.. كيف سيبدو؟ وكيف سيخطو؟! كان هناك أيضًا حزن أكبر وألم أكبر في أعماقي.. كنت أهرب منه في خجل.. وكأن الآلام نفسها هناك ما هو غير المباح منها.

شعرت بالخجل، وأنا أتألم على نفسي.. على أثوابي وعطوري.. على رحلة باريس.. على لقائي برؤوف إن رحل عمي أو ساءت حالته!!

من السهل أن نقول إن عمي توفيق أهم.. إن عودته إلى الحياة وشفاءه أهم من أحلام اللقاء والسفر وارتواء قلبي وجسدي من رؤوف، الذي اقتربت عودته، لكن مخجل.. مخجل جدًا أنني كنت حزينة؛ لأنني أخشى أن يطلق سراح زوجي ويتحرر، ويلقى مرض والده بكل ما أعددته وحلمت به إلى سجن لا أعرف إن كنا يومًا نتحرر منه..

من خلف النافذة الكبيرة، في غرفة المعيشة ببيتي في المنصورية، كنت أظن أن الألم كل الألم هو ما حدث لعمي توفيق، وتبدد أحلامي بلقاء رؤوف.. لكنني ما عرفت لحظتها أن الألم مازال له وجه آخر واسم آخر ليتني ما عرفته يومًا.

وضعت رأسي لحظتها بين كفي، وبكيت في ذل كبير.. في ذل الألم والضعف.. في ذل الخجل من كل ما كان برأسي يدور.. واقترب والدي مني واضعًا كفه الطيب الطاهر على رأسي في حنان، وهو يردد إن رحمة الله لابد وأن تغمر عمي وتغمرنا جميعًا..

آه لو كان مدحت عبد الرحمن يعلم أن ابنته سيأتي يوم عليها تخجل فيه حتى من طلب الرحمة من خالقها أو الغفران!!

* * * * *

جاء اليوم التالي وما جاء طارق..

جاء اليوم التالي وعلمنا إن حالة توفيق عبد الجواد لم تتحسن بالشكل المرجو.. لن يعود أبدًا كما كان.. قد يتحرك في خلال شهر.. لكنه سيتحرك بعكاز وستبقى حركته كالأطفال.. سيتعثر لأتفه الأسباب..سيقع إن وقف بطريقه مقعد صغير.. الضعف ضرب نصفه الأيسر بأكمله.. كلماته ستبقى قصيرة، وربما غير مفهومة.. باختصار أصبح توفيق عبد الجواد نصف رجل وبقايا إنسان!! وأيضًا ما ظهر طارق عبد الجواد رغم ثقتي بتسلمه لتلك الرسالة التي أرسلتها على هاتفه الصغير.. ما ظهر أو عاد.. عدت أنا - بعدها بأيام - بعمي توفيق إلى بيت المنصورية على مقعد متحرك.. عدت بنصف رجل إلى بيت، يوم خرج منه كانت الأرض تهتز تحت قدميه إن خطا عليها..

كان يجب أن أجد له ممرضة أو اثنتين.. لكنني كنت أعلم أنه يرفض وجود امرأة سواي في البيت.. ووعدنا الطبيب بتوفير ممرض أو اثنين، يتناوبان على رعايته في خلال أيام قضيتها وحدي في رعايته..

كم مرة سقط مني عمي توفيق، وأنا أخطو به إلى الحمام في أول يومين.. خمس مرات.. عشر مرات لا أذكر.. لكنني أذكر جيدًا أنني في كل مرة كنت أرى في عينيه دمعة تسقط لتعتصر قلبي.. إنه يحاول أن يخطو وحده.. يحاول أن يشعرني أنه بخير.. لكن لا هو على الخطى كان قادرًا، ولا أنا عن السقوط كان بإمكاني أن أمنعه.. ضعيفان يزيدهما الكبرياء والحب ضعفًا على ضعف..

أذكر أني في يومه الأول، وبعد دخوله إلى فراشه، صرخت صرخة صغيرة من الألم، الذي دقّ ظهري رغمًا عني وعن إرادتي.. لم أكن أفعل ما فعلت حبًّا فيه، ولكن كان رحمة بكبريائه الجريحة، وكتمت صرختي الصغيرة، التي كنت أعلم أنها هي الأخرى سكين حادة، أغمدها في صدره.. جلست على حافة فراشه، أنظر إليه في اعتذار وألم، وأمسكت بكفه اليمنى بين أصابعي وقلت:

كلانا سيصبح أفضل.. أثق في ذلك..

كم من الكلمات خرجت من شفتيه، وهو يحاول أن يقول كلمة أفهمها.. وكم من الدمعات سقطت من عيني، وأنا أحاول أن أفهم حتى أرحمه من محاولات جديدة، وأرحمه من شعوره بعجزه حتى عن الحديث.. محاولات كثيرة لكني لم أفهم.. عمي توفيق لم يفقد جزءه الأيسر بأكمله فحسب، بل ضربت الجلطة مركز النطق لديه.. لكن مازال الرجل العنيد يسكن باقي خلايا مخه المصاب.. عندما يئسنا كلانا من هزيمة الكلمة، استند عمي توفيق بذراعه اليمنى على مقعده محاولًا النهوض، وبدأت معركة أكثر شراسة أساعده فيها على السير بخطواته غير المنتظمة، وإلى حيث لا أعلم..

كيف تتحول أجسادنا إلى أطنان في لحظات.. لا أعلم لكن كنت أشعر أن كلينا سيقع وبدأت أفقد قدرتي على مساعدته والمشي به وسقط.. سقط بعد خطوتين داخل غرفته.. سقط تحت قدمي ولم يتوقف عن الهمهمة ولم أستطع أبدًا أن أرفعه وحدي هذه المرة.. خرجت من غرفته أبحث عن أحد ممن يعملون في البيت، وعدت بصحبة سفرجي البيت لنعود به إلى فراشه من جديد..

وقف السفرجي ينظر إلى عمي توفيق في ذهول ورثاء، وسارعت بإخراجه من الغرفة.. كنت أعلم أن كل ما حدث قد لا يقتل رجلًا مثل توفيق عبد الجواد.. لكن نظرة شفقة ورثاء من سفرجي منزله قد تفعل!!

ورقة وقلم.. هذا هو ما كان يريده عمي توفيق.. ورقة وقلم.. كلمتان ننطق بهما في أقل من ثانية واحدة.. لكن عجز هو عن نطقهما، وعجزت أنا عن فهمهما.. كانت تلك المعركة الكبيرة الشرسة من أجل قلم وورقة.. أمسكت الورقة بين أصابعي ووضعت له القلم في أصابع يده اليمنى السليمة، ورغم هذا كانت أصابعه ترتجف بقسوة وهو يكتب..

رأيت دمعة تسقط من عينيه، وهو يكتب كأنه يصوب سهامًا إلى الورقة وقرأت الكلمة، وكانت تلك الكلمة هي السهم الكبير الذي وضعه توفيق عبد الجواد في قلبي.. سهم حوّل أيامي كلها وغيَّر شكل حياتي وقلب موازينها.

حين نظرت بعيني إلى الورقة لأقرأ أول كلمة كتبها توفيق عبد الجواد في صورته الجديدة، وجدته يقول:

اغفري لي!!

* * * * *

الغفران!!

ما الغفران؟! ما معناه.. وهل نحصل عليه حقًّا؟ وكيف؟!

أن ننسى.. وهل كل شيء ننساه؟ وهل لنسيانه معنى سوى تفاهته؟ وإن كان تافهًا.. فهل حقًّا يستحق أن نطلب من أجله الغفران؟!

الغفران والصفح كلمات ننطقها.. نطلبها لكن الخطايا أفعال نرتكبها.. خناجر نرشقها في صدور الأبرياء..

هل تمحو كلمة طعنة خنجر؟! نحن ننسى.. لكن لا أحد يغفر ولا أحد يعفو إلا الله وحده..

إذا قال أحدنا إنه غفر فهو قد نسي.. الغفران الحقيقي شيء آخر.. في تلك اللحظة التي غيرت حياتي وحياة الأحرار وقلعة المنصورية بأكملها قرأت الكلمة أكثر من مرة وحاولت أن أفهم..

ظننته في البداية يطلب الصفح عن سقوطه وعن تحملي لتمريضه حتى ظهور طارق أو المرض الذي وعدنا به الطبيب.

ظننته يطلب الصفح عن بكائي حزنًا عليه أو ألم ظهري وأنا أحاول الوصول به إلى ورقة وقلم..

ظننت عمي توفيق يطلب الصفح عن ألم جسدي، قد يختفي بعد لحظات أو أيام وأنساه.. لكن عمي توفيق وبعد ساعات طويلة من محاولة الكتابة والشرح والدمع، كان يريدني أن أصفح عن خنجر في الروح.. خنجر في الكرامة.. روحي وروح رؤوف وكرامتنا جميعًا..

حضر والدي لزيارتنا كما طلب توفيق عبد الجواد، وفي حضوره كتب كلمات وأحرفًا علمنا منها الحقيقة..

علمنا كيف سقط توفيق عبد الجواد في شركة الأحرار للأدوية.. علمنا كيف سقط رؤوف عبد الجواد في الظلم والسجن.. علمنا كيف حرم ضياء طفلي الصغير من ذراعي والده، وكيف حرمت وأنا مازلت عروسًا من زوجي ورفيق رحلتي.. علمنا وأخبرنا أن من أشعل هذه الحرائق وأسقط هؤلاء الأبرياء هو طارق عبد الجواد.

الدواء المغشوش.. المادة الخام المستوردة والخالية تمامًا من المادة الفعالة ليست جريمة رؤوف، رغم أنه المسئول عن الكواليتي في الشركة.. طارق عبد الجواد بصفته المسئول عن التسويق، قام بعرض عينات من الدرجة الأولى على رؤوف، الذي وقَّع بدوره على موافقته على استيرادها وقام طارق باستيراد مادة خام من درجة أخرى أقل بفارق في السعر يصل إلى 60% من سعر الأولى التي أقرها رؤوف..

عند وصول المادة الخام الجديدة أيضًا قام طارق، هو وبعض أتباعه في قسم الكواليتي التابع لرؤوف بتقديم عينات من المادة الأولى، التي ما رأى رؤوف غيرها، وتم تصنيع الدواء من الشحنة التي لا فعالية فيها، والتي ثبت أنها أيضًا ملوثة بمادة تسبب العقم.

والدي صاح في جنون يسأل:

- ألا تقوم وزارة الصحة بإجراء تحليلات عشوائية على منتجات شركات الأدوية؟

أجبته أنا بالنفي.. وزارة الصحة ومعاملها تقر العينات المقدمة لها كتلك المادة التي قدمت لرؤوف، أما الدواء فلا يخضع للاختبارات بعد صدوره.

حالة الشاب الذي تعاطى دواء شركة الأحرار لعلاج سكره المرتفع وحدها كشفت النقاب عن الجريمة.. الشاب الذي كان لا يعاني من مرض سوى مرض السكر، والذي كان منتظما في تناول الدواء أصابته الغرغرينا وبتروا ساقه.. الشاب كان والده طبيبًا، استطاع تحليل الدواء، وعرف أن المادة الفعالة به صفر، بل أيضًا يحتوي على مواد تؤدي إلى العقم وأحيانًا إلى الفشل الكلوي.. تلك القضية التي جلدتنا بها الصحف ووسائل الإعلام، ووضعت رؤوف في السجن ثلاثة أعوام..

تذكرت دواء الصرع.. تذكرت والدة زياد.. تذكرت كلمات رؤوف وهو يصيح في وجه طارق.. تذكرته وهو يبكي..

تذكرت بهاء وساقه المبتورة التي بترها طارق عبد الجواد، وابتسمت في مرارة..

لماذا يفعل طارق ذلك؟! ألا تكفيه كل هذه الثروة؟! ألا يكفيه كل هذا الجاه؟!

كيف عرف عمي توفيق الحقيقة بعد هذه الأعوام؟! مسئول الكواليتي الجديد، الذي حل مكان رؤوف وحده كشف الحقيقة.. عندما عرضوا عليه

عينات جديدة كانت الشركة بحاجة لاستيرادها أيضًا وقع بقبولها واستيرادها.. لكنه وبعد تصنيع الدواء قام بنفسه بإجراء الاختبار لا على المادة المستوردة هذه المرة، ولكن على إحدى العبوات المصنعة.

ظهر وجه الحقيقة القبيح.. الحقيقة التي بحثت عنها كثيرًا، وتمنيت معرفتها طويلًا، ويوم عرفتها تمنيت لو أماتني الله وبقيت هي مجهولة.

حقًّا هناك حقائق إن ظهرت قتلت!

يطلب عمي توفيق الصفح لأنه وثق كثيرًا وطويلًا في طارق.. يطلب الصفح لأنه جعل من ابنيه حصنين، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منهما أو حتى الإشارة إليهما بسوء.. نسي أنهما بشر.. نسي أنهما من ظهره خرجا ومن ظهر آدم تخرج الخطايا دومًا.

أنا أيضًا أخطأت يوم عرفت قصة دواء الصرع.. ما كان يجب أبدًا أن أصدق أنه خطأ في التصنيع كما أخبرني رؤوف.. كان يجب أن أحاول إبلاغ عمي بما حدث.. يوم علمت بقصة بهاء مع طارق عبد الجواد كان يجب أن أتحدث.. يوم سكت رؤوف عن أخيه.. ويوم لم يحاول أن يصل إلى الحقيقة اخطأ هو الآخر.. نحن جميعًا مذنبون، ونحن جميعًا ضحايا..

رؤوف في السجن.. عمي توفيق في بقاياه وسجن جلطته.. بهاء في سجن عرفانه بالجميل.. نحن قتلى ومذبوحون!

كان آخر ما قاله عمي توفيق في ذاك اليوم هو ما قاله بصعوبة؛ حيث قال:

- شهيرة.. تولي المصنع!!

* * *

علمتني كلمات عمي توفيق تلك ألا شيء في الإنسان يبقى.. لا شيء سوى شيء واحد.. قد تسقط أعضاء الإنسان جميعها، وقد يفقد كل قدراته لكنه يبقى إنسانًا.. يبقى زهرة أو طوفانًا مادام ذاك الشيء الواحد باقيًا فيه يعمل..

قدماك لا تحركانك.. عيناك لا تقودانك.. أصابعك لا توجهانك.. حتى قلبك لا يسعدك أو يشقيك.. كل هذا لا يهم.. كل هذا لا يجعلك إنسانًا.. شيء واحد صغير يفعل.. شيء واحد اسمه العقل والرأس..

عمي توفيق فقد قدرته على الحركة والنطق السليم.. لكن ما بقي له أهم.. بقي فيه الرأس.. العقل!!

بذاك العقل رماني عمي توفيق إلى مصنعه.. بذاك العقل جاء محاميه وصديق عمره إلى غرفته.. ومن على مقعد عمي توفيق وبأصابعه المرتعشة التي تفوقها قدرة ومهارة أصابع ضياء طفلي الصغير، غيّر عمي توفيق خارطة الحياة.. أمر عمي توفيق محاميه أن يحرر عقد تعييني لإدارة شركة الأحرار، وبعد أن قام المحامي بتصديقه واستخراجه، وضعوه في يدي وخطوت بساقي لكن برأس جديد وعقل ثائر وقلب يرتعد نحو شركة الأحرار.

أي شيء عن الإدارة أعرف.. أي شيء عن عالم كبير ومعامل ورؤوس ورجال وتاريخ وملفات أعوام أعرف.. لا شيء.. لكن ما أعرفه أن كل من هناك خائن.. كل من هناك وضع رؤوف في السجن، إما بمشاركته لطارق أو بخرسه وصمته.. كل ما أعرفه أن دواء من هذا المكان خرج وكاد يقتل الكثيرين أو يجردهم من حلمهم في أن يكونوا آباء أو أمهات.. كل ما أعرفه أن في هذا المكان أشخاصًا حولوا شهيرة عبد الرحمن من عروس سعيدة تحيا حياة هادئة طبيعية إلى عجوز تمرِّض بقايا رجل، وتحتضن طفلًا، وتنتظر ضحية سقطت بيد أخيها في سجن طالت مدته.. من قال إن رؤوف عبد الجواد سيعود يومًا كما كان؟

دخلت شركة الأحرار، وأنا أعلم أن رؤوف قادم خلال شهر أو شهرين على الأكثر.. لكن من يعلم كيف يأتي..

دخلت الشركة بعد أن اختفى طارق عبد الجواد، كأنه فقاعة صغيرة من الهواء، تبددت في لحظة.. لكنه قد يظهر ولا أعلم كيف أواجهه وماذا أفعل معه وحدي؟

والدي قام بتعيين طبيبين في الصيدلية، وجاء زياد معي إلى الشركة.. قمت أنا وهو ومعنا عدد ممن نعرف من خريجي الصيدلة بمراجعة كل الأدوية التي ننتجها.. قمنا بأخذ عينات من عبوات الدواء الجاهزة للتسليم.. كنا نعمل في جنون حتى أننا قمنا بإرسال بعض الأدوية إلى معامل أخرى صديقة؛ لنتمكن من تغطية كل ما لدينا، ولنتمكن أيضًا من منع كارثة أخرى، قد تكون في طريقها إلى الحدوث، ونحن لا ندري.

تعاملت مع كل موظف وصيدلي في معامل الشركة بحزم واحترام.. لكن بشك كبير، كأنه طارق عبد الجواد أو عميل له.

عزة لم يعد باستطاعتها رعاية ضياء لظروف حملها، ولم يصبح أمامي سوى إحضار مربية إلى البيت.. أخبرت عمي توفيق أنني بحاجة إلى

امرأة في البيت ترعى ضياء.. أخبرته أنني لن أغضب إن رفض، وقال لي وقد بدأت كلماته تتضح قليلًا ما معناه أن كل شيء تغير، وأن الأحرار الآن أصبحوا في يد امرأة، ولا يضيرهم إن أصبحتا اثنتين!!

كنت أعمل في جنون.. وأتحرك في تصميم.. كنت أبحث عن طارق في كل مكان.. مازال هاتفه لا يجيب.. مازال كل من أسألهم عنه، يدعون أنهم لا يعرفون عنه شيئًا.. أصبح أملي أن أراه.. أن ألتقي به ولو مرة واحدة.. شعرت في تلك الأيام أنني أتمنى لقاءه أكثر؛ حتى من شوقي وتلهفي إلى لقاء رؤوف.

في نهاية يومي وعند سقوطي على فراشي وضياء بين ذراعي.. كنت أحدق في الظلام وأتخيل طارق يقف أمامي.. كنت أراني أحدق في عينيه، وأسأله في ألم سؤالًا واحدا :

لماذا؟!

لماذا يفعل هذا؟! لماذا وثروتهم ملايين؟! لماذا وهو يعلم أن من سيقع في الجحيم هو رؤوف شقيقه الوحيد.. شقيقه الذي تحمل عنه فعلته السوداء ببهاء؟ رؤوف كان دومًا يضمه كأنه طفله، وليس أبدًا أخاه الأصغر.

كنت أحدق في ظلام غرفتي كل ليل، وأتمنى لو أرى طارق أمامي لأمسك بكفه بين أصابعي وأضع أصابعه على شفتي اللتين شققتهما الدموع والظمأ.. أتمنى لو أمرّ بأصابعه على وجنتيّ ليرى كيف تحجرتا ونسيتا الابتسام، وأسأله من جديد: لماذا؟!

في كل ظلمة ليل كنت أدعو الله أن أرى طارق، وأن يظهر لأمسك بكفه وأركض به إلى غرفة عمي توفيق، وأدعه يتحسس فمه نصف المشلول وجسده نصف الميت وقلبه الذي تفتت بأصابع طارق، وأصرخ أسأله: لماذا؟!

لماذا؟!

أقسى سؤال على الأرض هو لماذا؟!

متى وأين وكيف وماذا ومن.. كلها لابد وأن لها أجوبة.. لكن «لماذا» وحدها قد تقتل وتذبح رجالًا ونساء؛ لأنها غالبًا بلا إجابة!!



* * * * *

بعد انقضاء الشهر، علمنا جميعًا أن هذا هو عمي توفيق عبد الجواد الجديد، وأن ما وصلت إليه حالته الصحية هو ما سيبقى عليه طال به العمر أو قصر.. سيخطو وحده.. لكنها خطوات ضعيفة مهزوزة، بحاجة دومًا إلى من يساعده عليها، حتى وهو يستند على عكازه.. يده اليسرى المشلولة يحرك أصابعها.. لكن بصعوبة.. وإن حاول التقاط شيء بها في عناده الكبير، لابد وأن يسقط من بينها في خلال ثوان قليلة.

كلماته ستبقى مهزوزة متقطعة وبحاجة إلى وقت ليفهمها من يسمعها.. لم يكن تحسنه بالشكل الرائع، الذي يحدث لبعض الحالات المشابهة لحالته.. لكن كنا جميعًا سعداء بما وصل إليه..

شيئان صريحان كان حريصًا على إيضاحهما، وبشكل لا يقبل النقاش أو الجدل.. طارق عبد الجواد لا يسمح له بدخول الشركة أو البيت تحت أي ظرف من الظروف، والشيء الآخر هو إعلانه أنه لن يضع قدمه في شركة الأحرار، إلا ويده في يد رؤوف عند عودته.

* * * * *

«بابا سيعود؟!».. نعم سيعود.. خابرني هذا الصباح، وأخبرني أنه قام بشراء السيارة الجيب الصغيرة التي تعمل بالكهرباء وسيحضرها معه.. أخيرًا بابا رؤوف «سيعود»..

هذه هي عبارات كل مساء منذ اقتربنا من النصف الثاني للعام الأخير لمدة سجن رؤوف.. هذه هي العبارات التي كنت أسكبها في أذني ضياء كل مساء.. وأصبح يحب سماعها أكثر مما يحب سماع قصص الأطفال وأفلام الكارتون..

السيارة الجيب كانت مخبأة في صندوق كبير في أحد أركان الجراج السفلي، كل من يعملون في البيت يعلمون أنها ستظهر يوم يعود رؤوف؛ لأنها هديته التي ينتظرها الصغير بفارغ الصبر.

رآها ضياء مرة في أحد الأفلام الأجنبية، وألح في طلبها كثيرًا من جده وعمه الذي أحضرها له من أمريكا.. لكن طلبت منه أنا أن نحتفظ بها بعيدًا عن عينيه لتكون هدية بابا الغائب حين يحضر.

نحن جميعًا لا نعلم متى يعود رؤوف بالتحديد.. قرار الإفراج المبكر عنه قرار خاص بإدارة السجون وحدها، فوحدها لها الحق في تطبيق المدة كاملة أو الإفراج عنه بثلثي المدة إن رأت ذلك.. لكن إن حدث ذلك حقًا، فهذا يعني أن عودة رؤوف أصبحت وشيكة..

عودة رؤوف أصبحت وشيكة!! كيف خفتت لهفتي إلى عودته؟! كيف بعد كل ذاك الفرح واللهفة أصبحت أخشى لحظة عودته؟! وكيف يحدث هذا بعد أن تأكدت من سؤال، بقيت أعوامًا أتمنى الوصول إلى إجابته..

رؤوف ضحية وليس متهمًا.. رؤوف بريء وما عدت بعودته هائمة.. ما عدت بعودته أحلق في سماء الفرح القديم.. كلما قال بهاء إن رؤوف قادم.. كلما قال والدي إن زيارته لرؤوف في السجن قد تكون الزيارة الأخيرة.. كلما صاح ضياء كل مساء يقول: هل يأتي غدًا؟ أتنهد في ألم كبير، وأتمنى ألا يأتي في الغد.

نعم ماذا يجد عند عودته؟!

سيجد شهيرة في المصنع على مقعد والده.. سيجد شهيرة في إجازة جديدة من الجامعة والصيدلية والحياة بأكملها، تلهث ككلب ضال في خوف كبير من كل شيء، ومن كل إنسان.. وهي لا تعلم من في كل هذه الوجوه أغمد السكين في صدرها وصدره.

سيعود ليرى توفيق عبد الجواد يهتز كفرع شجرة ضعيفة، توشك على السقوط.. سيجد أباه عاجزًا حتى عن ضمه بين ذراعيه.. عاجزًا حتى عن أن ينطق اسمه صحيحًا وكاملًا من بين شفتيه المشلولتين..

الغائب سيعود ليصبح وحيده فرحًا بعودته.. لكن ليس أبدًا لبنوته أو اشتياقه، بل فرحًا بسيارة يقودها في حديقة المنصورية ثم يملها ويعود ليسأل: أين كان؟ وهل سيبقى؟ ولم أخرجه من فراش أمه ومن بين ذراعيها؟!

رؤوف سيعود ليجد غائبًا جديدًا اختفى وغاب عن عائلة الأحرار.. غائب كان يومًا أخاه.. سيعود ليعلم أن حنوه عليه وحبه له ما علمه أن يرأف به.

أخوه الذي يومًا أخبرني أنه ابنه الأكبر هو قاتله.. قاتله وقاتلنا جميعًا..

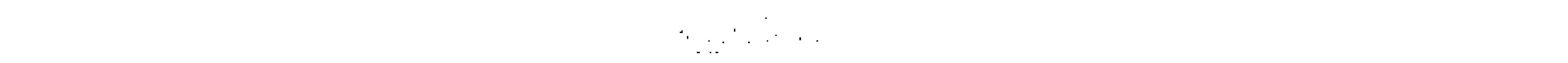
أصبح مصنع الأحرار همي الصباحي، وعودة رؤوف عبد الجواد هي هم همومي الأكبر!!

رؤوف سيبكي أيامًا حال والده.. لكنه سيعتاده.. سيبكي أيامًا ضعفي وحزني.. لكنه سيحييني إن شاء من جديد.. سيحتمل جفاء ضياء وتردده وخوفه.. لكنه سيراه ويضمه إلى صدره.. سيسترده بحنانه وبقطرات دمهما المشتركة.. كل شيء سيعود به رؤوف كما كان إن شاء.. كل شيء قد يصبح أجمل إلا طعنة طارق.. وحدها قد تبقي القبور مغلقة.. ووحدها قد تقتل ما بقي منه ومني..

رؤوف يجب ألا يعلم شيئًا.. يجب ألا يعلم أبدًا أن طارق هو الجاني، ولكن كيف نفسر له غيابه؟!

كم مرة ناقشت الأمر مع والدي.. مع بهاء مهران ومع عمي توفيق عشرات المرات.. ودومًا ينتهي النقاش بدمعة صغيرة في أعيننا جميعًا..

لا مفر.. سيعلم.. الأمل الوحيد الباقي هو ما مر به رؤوف.. من ذُبح مرة في قسوة.. ومن ذاق القتل مرة لن يقتل مرتين!! أنا إلى جواره..



ضياء سيكون معه كذلك بهاء.. رحمة الله ستدركه وتدركنا.. لكن خروج رؤوف من السجن ما عاد تلك النهاية السعيدة، التي أصبحنا جميعًا ننتظرها.. بات خروجه بداية نحاول جميعًا ألا نخشاها.. نحاول جميعًا أن نجعل منها شيئًا أكثر رحمة بكل من نالهم الظلم والألم والحرمان..

عودة رؤوف لا تعني أبدًا أن نهدأ ونرتاح، بل تعني أن نفكر ونتحرك ونخطو بحذر وحب وصبر؛ علَّ الأمور تعود كما كانت، وعلَّ قلوبنا تنبض يومًا بشيء غير الألم من جديد!!

* * * * *

كان يومًا ككل الأيام بعده في حياة سكان الأرض.. لكنه كان يومًا له اسم آخر عندي.. ذاك اليوم الذي غادرت فيه ككل صباح بيت المنصورية، في طريقي إلى شركة الأدوية بمدينة السادس من أكتوبر..

ككل صباح شربت كوب القهوة، ومنحت تعليماتي لمربية ضياء بكل ما تفعله عند استيقاظه، ثم مررت على غرفة عمي توفيق لأطمئن عليه، وأخبر ممرض المساء أن يحادثني إن جد شيء.. أو جاء والدي أو أحد أصدقاء عمي توفيق للزيارة.

في مقر الشركة أيضًا ككل يوم، كنت أتحرك بحذر وأقرأ كل الأوراق وأتابع كل ما أستطيع متابعته، وأقوم بتأجيل كل ما يمكن تأجيله حتى اليوم المنتظر.

في الرابعة خابرني بهاء ليقول في صوت هادئ إنه يريدني أن أعود الآن إلى المنصورية.. قال في صوته الحاسم إنه قرر أن يدخل منزل توفيق عبد الجواد.. ثم أضاف إنني إن لم أذهب قد لا يفعلها أبدًا وهو يشعر أنه يريد..

كان برأسي من المخاوف والأفكار ما يملؤه، ولا يدع فيه مكانًا لتفكير أو تحليل أو منطق..

كل ما فعلت أنني أجريت مكالمة سريعة، أطمئن بها على ضياء وعمي توفيق.. خشيت حقًّا أن يكون هناك شيء ما ألم بأحدهما ويؤجل بهاء إخباري به.. عند تأكدي أنهما بخير، حملت أوراقي التي أحمل كل يوم منها ما أريد مناقشة عمي توفيق فيه، وأخذت طريقي إلى المنصورية.

في الطريق الطويل المزدحم خاصة في التوقيت الذي شاء فيه بهاء عودتي.. أخذت أفكر من جديد..

لماذا يزورنا بهاء؟! لماذا يحضر؟! كم كنت أتمنى أن يكون طارق موجودًا.. ليرى ساق بهاء المبتورة تسأله، ويرى ساق والده وذراعه شبه المشلولة أيضًا تسأله.. كيف اختفى طارق كل هذه الأيام؟ وأين اختفى؟! وهل يعود؟ ومتى؟ وكيف تكون لحظة اللقاء؟!

يومها وفي زحام الطريق ابتسمت في مرارة.. حقًّا كل أدوات الاستفهام قد يحمل لنا العمر والزمن لها إجابة إلا أداة واحدة.. «لماذا؟!».

متى جاءتني تلك الرسالة القصيرة على هاتفي بالتحديد؟! قبل دخولنا المنصورية بلحظات، أو ربما ونحن على بداية حدودها..

رسالة ظننتها من عزة أو والدي أو ربما أحد الأصدقاء.. فتحتها دون اهتمام وقرأتها، وعيناي في الكسل غارقتان.. وعدت أفتح عيني من جديد على اتساعهما وأغمضهما ناظرة إلى حروفها في ذهول، ونظرت إلى اسم مرسلها.. إنه هو وإنها منه..

الرسالة من هاتف طارق عبد الجواد خرجت.. الرسالة من الغائب.. مازلت أذكر حروفها، كأنها مرسومة على جلدي وبعروقي.

«شهيرة.. أخبري رؤوف أنني أحبه وأنني بريء!!»

قرأتها مرة.. مرتين.. خمس مرات..

لا أعلم لكن أسرعت بطلب طارق مرة.. مرتين.. عشر مرات لا أعلم.. لكن لا هو يجيب ولا أنا أتوقف.. أخبرني السائق أننا نقف أمام الباب الداخلي، رفعت وجهي أنظر حولي في ذهول.. ورغم هذا لم أهبط من السيارة.. عدت أحاول وأحاول، وعندما يئست كتبت له رسالة، أقول فيها:

- طارق حادثني أرجوك..

ما فارق الهاتف الصغير أصابعي لحظة، وأنا أدخل البيت.. ما فارق أصابعي لحظة، حتى وأنا أحادث بهاء من جديد.. أسأله متى يحضر وهل يريدني أن أخبر عمي بزيارته..

بهاء أخبرني أنه اقترب من المنصورية، وأنه لا يريد شيئًا سوى أن أكون في انتظاره مع عمي توفيق..

رميت بجسدي لأجلس على فراش عمي توفيق، ومازال هاتفي بين أصابعي..

لماذا يرسل طارق هذه الكلمات؟! لماذا الآن؟! لماذا وهو يعلم أنني لا أزور رؤوف ولا أراه؟! ولماذا إن كان بريئًا لا يجيب؟ لماذا اختفى؟! ولماذا يجب أن أواجه أنا هذا النزف الهائل من أسئلة كلها تبدأ بكلمة لماذا؟!

رفعت وجهي أنظر إلى وجه عمي توفيق في إشفاق.. هل أخبره؟! وبماذا؟! هل يجب أن يأتي بهاء الآن؟ وأيضًا لماذا؟!

شعرت بكف عمي توفيق على كفي، والتقت عينانا كأنه هو الآخر يسأل وأنا وحدي من يجب أن تجيب.. سمعت طرقات على باب غرفة عمي

توفيق، جاءت بعد سماعي لصوت سيارة.. وقفت بباب البيت ونهضت في تثاقل..

ما اختار بهاء وقتًا مناسبًا للزيارة.

كان ممرض عمي توفيق هو الطارق، يخبرني أن زوارًا ما في البيت وخرجت من ردهة غرفة النوم.. خرجت وأنا مازلت أقبض على هاتفي الصغير بين أصابعي.. طارق قد يستجيب ويتصل.. خرجت وأنا أهيئ نفسي وأستعد للترحاب ببهاء.. لكن في منتصف البهو وجدته يقف بعيدًا..

سقط هاتفي من بين أصابعي في هدوء، وأنا أراه على البعد..

كان يقف وحده وكلتا ذراعيه ملقاة إلى جوار جسده.. كان ينظر في هدوء.. ورغم أنه يقف بعيدًا، إلا أنني رأيت في عينيه الواسعتين العميقتين أطياف دمعة، ووقفت أنا الأخرى مكاني كأن ألف ألف مسمار رشقت قدمي في الأرض.. وقفت أنظر إليه، وأنا أشعر أن ألف ألف دمعة تتكون.. وألف ألف صرخة تجتمع.. وألف ألف قصة تصيح في عروقي..

رؤوف!

كذبوا إن قالوا إن العشاق يركضون لعناق بعضهم بعد الغياب.. حمقى كل من يفعلونها!!

رؤوف.. هو الغائب..

لم أركض.. لم أصرخ.. لم أبك.. لم أتناثر ألف ألف قطعة ممزقة تحت قدمي رؤوف عبد الجواد..

أنا في مكاني.. كنت أقف في انتظار أن يتقدم هو ليطلق سراح الدمعات والقصص والصرخات.. ركضت كثيرًا.. صرخت طويلًا وبكيت حتى الذل زمنًا.. وحده من يجب أن يلملم ما بعثرته الأيام..

هو أيضًا كان في مكانه مرشوقًا.. لكني سمعته بعد لحظات، يقول في صوت خفيض:

- شهيرة!!

كم مرة في العمر نسمع أسماءنا.. كم شفاه نعرفها أو لا نعرفها نذكرها أو ننساها تنطق أسماءنا؟! لا أحد على الأرض يعلم العدد، لكن هناك يوم.. هناك لحظة.. هناك مرة واحدة كالموت والميلاد قد يسمع فيها بعض البشر أسماءهم لها معنى آخر.. لها رنين آخر..

أنا في تلك اللحظة علمت أن اسمي ليس للنداء.. ليس للتعريف، لكنه للبعث والإحياء!!

نعم.. أنا شهيرة!!

أرخيت جفني في صمت، وسقطت الدموع في استسلام.. واقترب رؤوف.. اقترب الغائب وضمني..

ضمني في حذر كبير.. كأنه يعلم وكأنني أعلم أننا قد نتكسر.. ضمني في هدوء، ورفعت ذراعي خلف ظهره كأنني ألقي بنفسي إليه.. شعرت أنني أسلم الأمانات جميعها وأردها إلى من يملكها..

شعرت أنني أُسقط عن كاهلي أطنانًا كثيرة رغمًا عني حملتها رغم علمي بضعفي وضآلتي وعجزي.. شعرت، وأنا أضع رأسي على كتفيه، أنني أريد أن أنام.. أريد أن أغفو وأنا مغمضة العينين.. نسيت تلك القصص التي أخبرت نفسي بها عن عودة رؤوف ولحظة اللقاء.. نسيت أنني كنت أنوي أن أضمه هو إلى ذراعي، وأن أخطو به إلى عالم لا يعرف عنه شيئًا.. نسيت أنني عاهدت نفسي على مساندته عند عودته.. شعرت أن دوري انتهى، وأن جسدي ما عاد يستطيع السير بكل هذه الأطنان على كتفيه خطوة أخرى.. أدركت أن قلبي وعيني ورأسي آن لها أن تهدأ!!

عاد سيد كل شيء.. فليسترد كل شيء.. أريد فقط أن أغفو!

طالت غفوتي على صدر رؤوف الساكن.. وكعادته فك وثاق شعري ليركع هو الآخر على كتفينا معًا في خشوع، وسمعته يرددها من جديد «شهيرة»..

غفت شهيرة على صدر الغائب وصحت.. لحظات لكنها بالعمر كله..

وبدأت أتذكر الغافي المريض.. بدأت أتذكر ضياء الصغير، وأطلقت آهة صغيرة.. يجب أن أصحو، فوالده وولدنا بحاجة إلى صحوتي لحظات

أخرى..

رفعت عيني أنظر إلى وجه رؤوف، وكأنه سمع كل شيء، وعلمت أنه يعلم كل شيء..

بهاء أخبره بكل شيء!!

أمسك بكفي، وقال ببطء كأنه يعلم أنني لن أفهم ما يقوله بسهولة.. كأنه يدرك أن نصف عقلي أذهبه الغياب والنصف الآخر أذهبه اللقاء..

مازلت أذكر كلماته وهو يقول:

- هل يحتمل والدي دخولي إليه.. أم تمهدين له القصة.. إن أسقطه طارق، فلن أجهز أنا عليه!!

مازلت أيضًا أذكر أن ابتعادي عن جسد رؤوف في تلك اللحظة كان مؤلمًا.. كأن جراحًا قام بقص خياطة جرح للتو أغلقوه.. عندما سحبت كفي من كفه، شعرت أن روحي تهتز وأطرافي ترتعش.. لم أقل له كلمة، لكني خطوت نحو غرفة عمي توفيق، وأنا أحاول أن أفكر ماذا أقول له؟!

قبل غيابي عن رؤوف، عدت أنظر إليه من بعيد..

نعم هو رؤوف.. نعم إنه هنا.. ليس حلمًا وليس وهمًا.. حتى الأحلام لا يمكنها أن تكون بهذه القسوة وهذه الحلاوة!!

دخلت غرفة عمي توفيق ونظرت إلى عينيه المغلقة، وهمست أناديه في صوت خفيض كصوت رؤوف.. كأننا نخشى أن تسمعنا الأقدار، وتغتال لحظة اللقاء.. ما عدنا بها نثق وما عادت ترحمنا منذ زمن طويل..

كنت على باب الغرفة أستند بظهري، وأنا أناديه.. وفتح عينيه يرقبني ولم أقل شيئًا.. بعد لحظة من لقاء أعيننا، هززت رأسي في هدوء كأنني سمعته يسأل على رؤوف. رأيته يهز رأسه كأنه يكذّبني ويكذّب نفسه.. وتقدمت نحوه لأجلس على حافة فراشه، وأمسكت بكفه اليمنى بين أصابعي الباردة، وعدت للمرة الثانية أهز رأسي دون كلمات، وهل على الأرض أو في قواميس اللغات جميعها كلمات يمكنها أن تشرح أو تعبّر؟

شعرت بانتفاضة جسده، وهو يحاول أن يتحرك في فراشه.. شعرت أنه أبدًا لا يريد أن يلقاه، وهو مسجى على فراشه.. وعلى عكس كل المرات كنت أنا أكثر قوة وكان هو أكثر خفة.. اعتدل الأب.. اعتدل وأمسكت بساقه أدليها من على فراشه، وسمعته يقول في صوته المتقطع:

- ر.. ر.. ر.. ؤف..

ضممت رأسه إلى صدري في حنان، وبحثت عن كلمة «نعم» فلم أجدها.. بحثت عن كلمة «هو» ولم أجدها.. لم أجد كلمة سوى أنني ضغطت رأسه إلى صدري في قوة ووضعت عليها قبلة، وأنا أقول:

- رؤوف!!

عدت برؤوف إلى غرفة عمي توفيق الذي وجدناه يستند على عكازه ليلقاه واقفًا، وأسرع رؤوف بخطوته نحوه ليأخذه على صدره في حنان بالغ، وهو يقول:

- بابا..

وقفت أرقب لحظة عناقهما الساكن.. أنت بعد الغياب تضم الغائب لحظات.. لا لأنك اشتقته.. ولكن لتشعر كل قطعة في جسدك أنه عاد.. إنه هو بذاته من فارقته زمنًا.. شعرت وأنا أراهما أن ذراعي رؤوف الملتفتين حول ظهره، تكادان تحملانه أكثر من كونهما تعانقانه.. شعرت أن ذراعيه تحادثان ظهر عمي توفيق، وتهمسان في خلايا جلده أن تستعيدهما من زمن العناق البعيد.. حتى ذراع عمي توفيق اليسرى المشلولة والملقاة إلى جواره شعرتها تتنفس رائحة رؤوف، وتسجل عودتها على كل شعرة صغيرة تسكنها.. وعاد رؤوف يقولها «بابا»..

تذكرت شخصًا آخر يجب أن ينطق هذه الكلمة الآن.. تسللت خارج الغرفة، وطلبت إحضار سيارة ضياء الكهربية، وإطلاق سراح سجنها هي الأخرى، وركضت إلى بيتي، وعدت أحمل ضياء بين ذراعي.. وأنا أخبره أن سيارته جاءت، وأن من جاء بها هو «بابا»..

في طريقي بضياء على ذراعي، رأيت هاتفي الصغير ملقى على أرض ردهة اللقاء ومضيت في سكون.. علمت لحظتها سر تلك الرسالة التي أرسلها طارق.. علمت أن طارق عبد الجواد كان يعلم أن رؤوف تم إطلاق سراحه وأنه كان في طريقه إلى البيت..

ابتسمت في مرارة.. طارق لم يبتعد.. طارق ليس بعيدًا أبدًا.. إن كان عرف بإطلاق سراح رؤوف.. فلابد أنه يعلم ما يدور في البيت والمصنع لحظة فلحظة، ولكن ما همني شيء..

عاد الغائب ووحده سيعيد الأمور إلى نصابها.. مضيت بضياء إلى غرفة عمي توفيق، وهو يحاول الهرب من ذراعيّ ليركض نحو صندوق سيارته الكبير.. لكني همست في أذنيه الصغيرة قائلة:

مصنع السيارات صنع منها العشرات، ولكن ما خلق الله له سوى أب واحد، وهو من يجب أن يلقاه أولًا وهو من أحضرها، وهو أيضا من سيفتح معه صندوق الهدايا!!

لم يكن لقاء رؤوف بضياء رائعًا كما نقرأ في الروايات ونشاهد في الأفلام.. بالكاد ترك ضياء والده يطبع على وجنته قبلة، ثم أفلت من بين ذراعيه، وقفز ليجلس على ركبتي.. يتابع في دهشة وجوهنا جميعًا..

أخبرنا رؤوف أنه ما كان يعلم موعد عودته إلا هذا الصباح، وهو في طريقه إلى إنهاء بعض الإجراءات الأمنية، حيث حادث بهاء، وأخبره أن يلقاه وحده في مديرية الأمن..

كان حريصًا على عدم ذكر كلمة السجن أمام ضياء.. لكن ضياء ما كان مهتمًّا بحرف واحد مما يقول.. بين كل لحظة وأخرى، كان يهمس في أذني ليسأل متى يفتح صندوق سيارته.. وكالغرباء سألني رؤوف عما يريده ضياء وقلت إن ضياء يريد أن يشكره على هديته التي طال انتظاره لها.. أخبرته أن ضياء لم يصدق أبدًا أن رؤوف أحضرها له من قارة بعيدة حيث بلاد العم سام وميكي وجزيرة الديزني..

أخبرته أن ضياء يريد أن يمنحه قبلة، ويرجوه أن يخرج معه إلى الردهة ليفتحاها معًا.

أردت بتلك الكلمات أن أخبر الاثنين عما يجب أن يفعلاه، وابتسم رؤوف ابتسامة عرفان كبيرة، وهو ينظر في وجهي.. ثم مد ذراعيه إلى ضياء قائلًا في حنانه البعيد:

- هديتك في انتظارك وليس شرطًا لفتحها لا العناق ولا القبلة.. ولكن إن فعلت ستسعدني كثيرًا..

هبط ضياء من على ركبتي ومد ذراعه إلى والده لا ليضمه.. ولكن لينهض به، ونهض رؤوف ممسكا بكف ضياء متوجهًا به لبهو البيت، وأنا أتبعهما في هدوء.. ووقف العائد ينظر إلى الصندوق الكبير، ثم قال يخاطب ضياء:

- نحن بحاجة إلى مقص ضخم نقص به أحزمة الصندوق.. هل تعلم من أين تأتي به؟ وهل تساعدني؟!

ركض ضياء وركضت خلفه مربيته ليعودا وهو يحمل ذاك المقص، الذي أطلقا به سراح صندوق هديته المنتظر، وصاح ضياء يسأل رؤوف كيف عرف اللون الذي يحبه وكيف عرف أنه أرادها «جيب»، وأمسك رؤوف بكفه في حنان قائلًا إنه شعر بكل ما يريده لأنه يحبه ولأنه أبوه..

رأيت ضياء يرتمي بين ذراعي الغائب، يشكره ويطلب منه هو لا مني أن يسمح له بتجربتها..

رأيت رؤوف يضع بطارية السيارة في مكبس التيار لشحنها، وعاد مع ضياء يدفعان السيارة لإخراجها من البيت إلى الحديقة استعدادا لرحلتها الأولى.. وقبل وصولهما إلى الباب الرئيسي، استدار رؤوف يسألني إن كنت أود الخروج معهما فأشرت له بيدي أن يذهب وحده معه..

أنا أعرف رؤوف وأحبه.. ولكن آن لهذا الصغير أن يتعرف عليه ويحبه ويمنحه الثقة هو الآخر!!

* * * * *

كنا نعلم جميعًا أن طارق هو الأثير لدى توفيق عبد الجواد.. كنا نعلم أن لو رؤوف من فعلها ما سقط عمي توفيق، وإلا حدث سقوطه عندما قامت قضية الدواء على رؤوف أو حتى عند دخوله السجن.

ما ذبح عمي توفيق وشل الدماء في شرايين رأسه، هو صدمته في أثيره الصغير.. كنا نعلم جميعًا أنه ورغم غضبه عليه وإصراره على إقصائه من العمل والبيت، إلا أنه مازال بداخله يرنو إليه ويحنو عليه..

أنت لا تملك قلبك إن أحب ابنًا أكثر من ابن آخر، أو أحب أخًا أكثر من أخ آخر.. كل ما نملكه هو ألا نظهر ذلك.. أن نعدل فقط في إظهار هذا الحب والتعبير عنه.. لكن حتى هذه ما نجح فيها عمي توفيق كثيرًا.. لهذا كنا جميعًا نعلم أنه يتمزق حنينًا وشوقًا إلى من ذبحنا جميعًا..

أكثر من ثلاث ليال مضت بعد عودة رؤوف، لا حديث لنا فيها سوى طارق، وما الذي يجب أن نفعله معه.. ليال أكثر من ثلاث.. ورؤوف يسقط بين ذراعيّ في النوم دون حتى أن يلمسني.. أنا أيضًا كنت أشعر أني أخاف وأهرب من اللحظة التي ظننت أنني أتوق إليها جنونًا.. وانتظارًا.. أعوام فراقنا.. خوف كل منا مما صنعه الفراق برفيقه..

وجود ضياء في فراشنا وطارق في رؤوسنا، كان يجعلنا نغفو نحن الثلاثة، في هدوء، كأننا نعتاد وجودنا معًا لأول مرة!!

أخبرني أنه سيحادث أخاه، وأخبرني أن طارق سيجيب عليه.. أخبرني أن الغباء أن ننبش فيما حدث.. حتى النبش فيه لن يمحو من صحيفة رؤوف الجنائية أعوام السجن، ولن يعيد إلى بهاء ساقه المبتورة.. لكن الصفح عن طارق وعودته قد يعيد على الأقل إلى عمي توفيق شيئًا من الطمأنينة.. شيئًا قد يساعده على الشفاء أو التحسن، أو حتى الموت بطريقة أفضل من العذاب والشقاء..

كنت في كل ليلة من ليالي عودة رؤوف الأولى أستيقظ وأرقب وجهه النائم وذراعيه حول ضياء أو حولي في سكون، وأسأل كيف عاد رؤوف إلى جواري.. وكيف حتى اليوم لم يأخذني.. كنت في تلك اللحظات أشعر أن كل قطعة في جسدي تناديه، حتى أني كثيرًا ما تمنيت لو أوقظه وأهمس في أذنيه أنني أريده.. أريده بجنون.. لكني كنت أبتلع أنفاسي وأربت على كفه النائم على صدر ضياء أو صدري وأغمض عيني وأحاول النوم.. وأنا أؤكد لنفسي وأطمئنها أنه لم يعد مهمًّا متى يحدث.. يكفيه ويكفيني أن لقاءنا أصبح ممكنا وقادمًا وقريبًا..

مازلت أذكر كيف طالب عمي توفيق رؤوف بكلماته المتقطعة استخراج تأشيرة لنسافر.. ابتسمت أنا تلك اللحظة، وأنا أتذكر عطورًا اشتريتها وأثوابًا أعددتها لرحلة عمي توفيق، ونظرت إلى وجه رؤوف الذي قال بعد لحظات إنه لن يسافر.. لكنه سيأخذني ليلتين بعيدًا عن المنصورية..

أعددنا كل شيء وأيضًا لم يخبرني رؤوف بشيء.. كلا الممرضين سيتناوبان في المبيت مع عمي توفيق، ووالدي أيضًا سيقضي معه الليلتين؛ ليكون إلى جواره وجوار ضياء..

لم يخبرني رؤوف إلى أين نذهب ولم أسأله..

لكن حين جلست إلى جواره في سيارته، التي ما قادها أحد طوال غيابه، وضع أصابعه على كفي، وقال:

- هل تعلمين إلى أين نذهب؟!

كنت حقًّا أشعر أني أعلم.. لكن خشيت أن أخبره بتخميني ألا يكون صائبًا، فقلت:

- أعلم أنني معك وهذا وحده يكفيني..

نعم إلى بيت الجزيرة أخذني وخطوت، وأنا أعلم هذه المرة أن بهاء هو من أشعل الشموع، ووضع الزهر وأعد الطعام..

علي حشائش الجزيرة جلسنا وعلى كتف رؤوف ألقيت برأسي في هدوء.. سمعت رؤوف يحكي عن سجنه لكن دون تفاصيل أليمة.. سمعته يحكي عن الصحفي الكبير طاهر وهدان، الذي التقاه هناك وكيف أصبح يحبه كثيرًا.. وأيضًا أخبرني أنه صديق لك.. حكى عن حرمانه مني وخوفه من أن أطلب لقاءه مرة واحدة هناك.. أخبرني أن في السجن قصصًا كثيرة أكثر ألمًا من قصتنا، وأن خلف القضبان أشخاصًا أكثر تحررًا منا؛ لأنهم فعلوا ما أرادوه دون خوف..

أخبرني رؤوف أن السجن علّمه أن يحبني أكثر، وأنني طوقته بقيد غير قيد الحب.. قال إنني قيدته بقيد الوفاء، وإن الحب قد يخبو أو يغفو..

لكن طوق الوفاء يبقى العمر في الروح والقلب..

* * * * *

من يشعر بقيمة أوراق النقد.. الفقير المعدم، أم من كان يومًا ثريًّا وفي لحظة جردوه حتى من ثيابه؟!

من يشعر بالدفء.. ذاك الذي ولد وعاش أعوامًا بثياب ممزقة على أرصفة الطرقات، أم ذاك الذي خلعوا عنه معطفه الوثير؟!

أنا ورؤوف في تلك الليلتين علمنا لأننا يومًا كنا فقراء وزمنا كنا أثرياء.. أن من ولد بلا بصر قد يموت محسورًا متألمًا.. لكن من سلبوه عينيه وأعادوها قد يفقد عقله من لهفته، وهو يُبصر من جديد!!

أنا ورؤوف عندما ضمني في تلك الليلة، وهو يتحسس جسدي كأنه يتعرف عليه للمرة الأولى، بكينا وضحكنا.. استغثنا وهدأنا وغفونا وصحونا ألف ألف مرة..

ليس الألم ألا تعرف طعم الماء.. ولكن الألم هو أن يجري بين كفيك زمنًا ثم رغمًا عنك تحرم منه..

ليس الجنون أن تشرب للمرة الأولى، ولكن الجنون أن يمنحوك الماء بعد جفاف أعوام وحرمان أعوام..

ليست اللذة أو النشوة أن ترتوي من جسد من تحب وأنفاسه.. ولكن كل المتعة أن يعود من غاب عنك بعد العذاب..

حين هدأت على صدر رؤوف بعد لقائنا الأول، ما فكرت في شيء ودموعي تنساب على وجنتي إلا في عمي توفيق عبد الجواد.. رأيت ذلك الرجل المنتصب في كبرياء، ورأيت ذاك المسكين الملقى على فراش الألم وسجن العجز.. نعم.. في لحظة نشوتي وارتوائي، علمت أن رؤوف على حق.. يجب أن نعود بطارق ويجب أن نتعلم كيف نغفر ونصفح.. هل كل الخطايا يمكن غفرانها؟ أبدًا لا أظن ذلك.. هناك خطايا قد يغفرها الله ونعجز نحن عن غفرانها لأنفسنا!

* * * * *

رفض رؤوف عودتي إلى الصيدلية، وهز والدي رأسه في حنان، وهو يبتسم كأنه كان يتوقع أن يحدث.. زياد أيضًا كان معنا في ذاك اللقاء الكبير في حديقة المنصورية، وأجاب أنه يرى أن الصواب هو ما يراه رؤوف.. أعود إلى الجامعة بعد إجازتي.. وأستمر في عملي مع رؤوف بشركة الأدوية..

علت همهمات عمي توفيق حينما قال إنه سيعود بطارق.. لكن خلف عينيه كان حريق شوق كبير، يلتهم صدق رفضه واعتراضه في ثبات..

قال رؤوف إنه ليس ملاكًا ولكن ما عسى غضبه أو عقابه لطارق أن يغير.. سيبقى شقيقه شريكًا في هذا الصرح، حتى وإن اختفى اسمه من مؤسسي الأحرار قانونًا.. لكنه شريك وسيبقى.. قال رؤوف وهو ينظر في عينيَّ المفتوحتين إني إن كنت أنا غفرت له فكيف لا يغفر الأب، وكيف لا ينسى الأخ وإن عجز حتى عن الصفح..

رغم إصرار عمي توفيق على اعتراضه.. إلا أن رؤوف أعلن أنه حادث طارق، وأنه سيلقاه في الشركة بعد أيام..

حذره عمي توفيق من إحضاره أو العودة به إلى المنزل، ووعده رؤوف ألا يفعل.. لكن نحن جميعًا شعرنا بأن عروق الرجل هدأت وقسمات وجهه لانت بوضوح..

بدأنا نعتاد رؤوف معنا، وبدأت أرى شفاهي تستعد لإطلاق ما نسيتُ اسمها وما نسيت هي الطريق إلى وجهي ووجنتي.. بدأت شفاهي تطلق ابتسامات صغيرة، وبدأت أستمع إلى دعابات ضياء وأراها للمرة الأولى تبعث على الابتسام والمرح، لا الحسرة والألم كأعوام السجن والغياب.

بدأنا نعيد ترتيب كل شيء؛ ليعود كل شيء أقرب إلى ما كانت عليه الأشياء.

كان رؤوف يعمل في هدوء ونظام وترتيب.. كان يعمل مع والده ومع والدي ومع ضياء، كأنه طبيب جاء يداوي، وهو يعلم أن جرعات دوائه يجب أن تمنح بحساب، وعلى جرعات منظمة وأيضًا مكثفة.. كان يدرك أن أعوام السجن لن يصلحها هو في شهور أو أيام.. لكنه سيمحو بصماتها من أرواحنا وروحه بالصبر والحنان.

مازلت أذكر تلك الليلة التي سألني فيها عن عزة، وعن التصاقنا الكبير إحدانا بالأخرى، وتحركت شفاهي تبتسم وأنا أخبره أنها أصبحت أفضل صديقاتي، وأنها أرضعت ضياء، وأضفت في خجل ما أخبرتني به عن أملها في إنجابي طفلًا آخر، ترضعه مع طفلها الذي أصبحت ولادته وشيكة..

رؤوف أخبرني أنه يريد تأجيل الإنجاب.. أخبرني أنه يريد أن يهنأ ويهدأ معي ومع ضياء زمنًا.. أخبرني أنه لا يحتمل أبدًا أن أحمل بين أحشائي جنينًا جديدًا وأتعرض في حملي هذه المرة لما تعرضت له في منتصف حملي السابق، ويحرم مني أو أحرم حتى من الذهاب معه إلى العمل..

قال وهو يحاول أن يتعلم المرح من جديد.. إن إنجابنا يجب أن يؤجل حتى نرتوي من جوعنا وظمئنا.. أخبرني وهو ينظر في عيني أنه يريدني معه، وإلى جواره في كل خطوة!!

وضعت رأسي في صدر رؤوف، كأنني حقًا أوافقه الرأي.. وكأنني أخبره أنني أكثر منه ظمأ وجوعًا.. شعرت لحظتها أنني أيضًا أحاول أن أكون أكثر مرحًا وانطلاقا، وقفزت من على صدره، وأنا أصيح في صوت مسرحي قائلة:

- هل تعلم لماذا أحب عزة إلى هذا الحد؟ لأنها جعلتني أحب أحدًا سواك وأستعين بهواه على وحدتي... و..

وابتسمت في خجل، ثم أكملت قائلة:

- وحاجتي إليك..

كان يرقبني في حنان، ورأيت في عينه خوفًا يلوح كأنه على وشك أن يسمع قصة مجنونة أو مغامرة بلهاء، وركضت أمد يدي نحوه وأركض به إلى صالة معيشة بيتنا، وأريته كل الكتب التي اشتريناها أنا وعزة، وكل الروايات التي قرأناها وأمسكت بإحدى رواياتِك وقلت في بساطة:

- علمتني عزة أن أحب هذه المرأة، وأن أتمنى أن أراها ولو لحظات..

ضمني رؤوف وهو يتنهد ويسأل في ضحكة صغيرة لماذا أنت بالتحديد، وضغطت رأسي إلى صدره قائلة: إن كلماتك دومًا كانت تمنحني «الأمل».

«الأمل».. قاتل الله الأمل وباركه..

نعم قاتله الله وباركه ألف مرة!!

* * * * *

كنت في مكتبي ذاك الصباح بشركة الدواء.. أصبح مكتب رؤوف هو مكتبي، وانتقل هو إلى مكتب والده بناء على طلبه..

عمي توفيق أعلن أنه لن يعود إلى الشركة، قبل أن تتحسن حالته، وأخبرني رؤوف أن إصرارنا على عودته قد يقتل فيه الأمل في تحسنه، رغم علمنا باستحالة عودته إلى كامل حالته الطبيعية..

أخبرني رؤوف أنه إن شعر بإيماننا في إمكانية التحسن، سيبذل جهدًا أكبر في العلاج الطبيعي، وسيحتمل آلامه وأيضًا سيلتزم بدوائه وأطبائه.. أخبرني أنه سيعتاد مع الوقت حالته، وعندما يعتاد الحياة والحركة بوضعه الجديد.. سيأتي هو نفسه إلى شركته من جديد، وهذا ما حدث بعد وقت قصير..

كنت في مكتبي ذاك الصباح، أتابع توزيع أدويتنا، وأعد تقريرًا طلبه رؤوف مني.

كان يعمل في هدوء وصبر.. كان يريد استعادة الثقة في شركة الأحرار؛ خاصة أنها الآن بين يديه، وهو وحده يتولى أمرها، وهو أيضًا المتهم الكبير بغش الدواء واستيراد المواد الخام المغشوشة.. لكنه كان يعمل بصبر وهدوء وذكاء كبير..

الحق أقول إن رؤوف كان يعمل في الشركة وفي البيت.. ففي البيت يداوي جراح والده، ويكتسب حب ابنه.. ويحاول أن يزرع في قلبه ما لم يعرفه ضياء أعوام عمره الثلاثة.. كان يحاول أن يعلمه ويتعلم معه كيف يكون أبًا وابنًا.

كان يتحرك مع ضياء في حب وحزم وحذر، وكان أيضًا يداوي جراحي ويحاول أن يعلمني، ويتعلم معي كيف نبتسم من جديد.. وكيف نحيا.. وكيف نمحو صورة المذنب السجين وزوجته؛ لنضع مكانها صورة جديدة.

كنت أعلم أنه ما كان في نزهة.. لكنه في السجن كان.. في الظلم كان.. ورغم هذا إلى المسئولية خرج.. إلى جرحي جاء.. إلى أعباء ثقيلة مؤلمة.. من قيد السجن تحرر.. لكن مداواتنا جميعًا كانت قيودًا، وضعها هو على كاهله ومعصمه.. حتى مسئولياته تجاه أميمة ابنة صديقه تلك التي أحببناها جميعًا، والتي كانت قيدًا اختار أن يرتديه وحده ، وإن تمنيت ألا يفعل علنا ننسى السجن وأعوامه وكل ما له به صلة .. لكن هذا هو حبيبي الذي يقيد نفسه بقيود الوفاء والحنان ما كان باستطاعتي أبدًا أن أحرره منها.. لكنني حاولت أن أساعده عليها قدر استطاعتي، فكلانا مازال جريحًا مجهدًا..

في إحدى تلك اللحظات، التي كنت فيها أراجع التقرير لأذهب به إلى رؤوف، حادثني وأخبرته أنه مازال أمامي لحظات لأنتهي مما يريد.. لكنه طلب مني أن أترك كل ما أفعله وأتوجه إلى مكتبه فورًا..

طرقت باب رؤوف في هدوء ودخلت، وما إن أغلقت خلفي الباب واستدرت، حتى سمعت صوته يقول في هدوء:

- شهيرة..

رأيته يقف أمامي، وهو ينظر في وجهي، كأنه يحاول أن يرى فيه إن كنت سأسمح بقبلة أو حتى مصافحة..

أرخيت عيني بسرعة كأني أنا الأخرى.. لا أريد أن يرتسم على وجهي ما لا أستطيعه أو ما أكره أن يراه فيه.

كان يقف في هدوء وما استطعت رفع عيني إلى وجهه مرة أخرى.. لكنني تقدمت بخطوات بطيئة نحوه، وأنا مازلت أحاول أن أعلم ماذا معه أفعل، وجاء صوت رؤوف قائلا:

- شهيرة.. أما أخبرتك أن «طارق» سيحضر؟ لا يرد الأخ أخاه أبدًا..

بزاوية عيني نظرت إلى رؤوف.. كان يقولها في مرارة كبيرة، جعلتني أستدير في اتجاه عين طارق كأنني ألومه.. كأنني أذبحه بعيني، وجلست على المقعد المقابل لطارق، دون حتى أن أصافحه ليجلس هو الآخر..

حل بيننا الصمت لحظات طويلة.. لم أكن أحاول أن أفكر فيما يفكر فيه طارق، أو فيما سيحاول أن يقوله رؤوف، أو حتى فيما يجب أن نخرج به من هذا اللقاء.

هالني حقًّا أنني في تلك اللحظات ما كنت أرى سوى خالي عثمان من جديد..

كيف كانت أمي تسعد بزيارته؟ وكيف كانت ترقص حول نفسها وهي تتمنى لو تعد له ألف صنف من الطعام، وألفا آخر من الشراب، رغم أنها تعلم أنها بيده مذبوحة وبظلمه مجردة من حقوقها؟

رأيت وجه أمي يطل من رأس رؤوف، ورأيت وجه خالي يطل من رأس طارق.. وأنا.. أنا بين الاثنين حائرة!!

دون وعي.. دون تفكير وبكل الألم.. بكل الألم الباقي من رحيل راوية وزيارة عثمان.. بكل الألم من نظرات الامتهان وصرخات لحظات الولادة.. بكل الألم وأنا أرتعد بجسدي العاري أمام بهاء، في بيت الجزيرة، قلت دون تفكير.. وأنا لا أعلم إن كنت أسأل عثمان أم طارق، قلت:

- لماذا؟! لماذا يا طارق؟ من منا كان يستحق أن تذبحه؟ ولماذا؟!

قال رؤوف في صوت جريح كأنه يفيقني:

- شهيرة.. ليس من أجل هذا...

قاطعه طارق في حدة، وهو يضع كفه على كفي قائلًا:

- أنا بريء يا شهيرة..

شعرت بدمعة تسقط في سخرية، وأنا أنظر في وجهه.. لكنه استكمل حديثه وهو يقسم أنه ما كان يعلم أن مواد الدواء الخام مغشوشة بمواد تسبب العقم، أو قد تؤدي إلى الوفاة.. قال إنه يعترف بأنه اعتاد أن يتعاقد مع بعض الشركات الصينية لاستيراد مواد خام بدرجة أقل فعالية من المواد التي كان يقرها رؤوف.. اعترف أن العملية كانت شبه منتظمة في شركة الأحرار.. رؤوف تعرض عليه العينات التي هي من Grade A، ثم يتم استبدالها بمواد من Grade C.. قال إن هذا يضيف أكثر من خمسين بالمائة إلى الأرباح.. قال إن رؤوف نفسه يعلم أن معظم شركات الدواء تفعل هذا، وأنه حتى الأطباء يعلمون هذا.. ألا يخبر الطبيب المريض أنه إن استطاع الحصول على المثيل المستورد سيشعر بفارق كبير؟!

قال إن المواد المضبوطة كانت من الهند وهو لم يتعامل يومًا مع شركة هندية.. كان يتحدث في انفعال كبير.. يقول إن اصرار رؤوف على استيراد الدرجات الأولى من المواد الخام في جميع أنواع الأدوية كان سيجعلهم فقراء.. كان سيجعل منهم حمقى.. حمقى في البيت.. والعمل، وعاد ينظر إلى رؤوف صائحًا أنه كان من الممكن أن يحتمل الحياة مع حمقى في البيت لكن في العمل.. في الثروة.. أبدًا..

وفي هدوء، سألت طارق لماذا يرى الشرف حماقة والطهارة غباء..

لا أنسى تلك النظرة التي رمقني بها في تلك اللحظة.. كانت نظرة ساخرة مريرة كأنها مغموسة في حمم بركانية، واستدار ينظر إلى رؤوف، ثم قال ساخرًا:

- هل نحن أنقياء يا رؤوف؟! هل نحن شرفاء؟ حقًّا؟!

شهق رؤوف شهقة كبيرة، كأن السكين المحمومة أصابت قلب كبده، وقال كأنه يئن:

- طارق نحن نحبك!

انتفض طارق واقفًا، وهو يقول:

- فرق كبير بين الحب وبين الشعور بالذنب..

مضى طارق نحو باب غرفة المكتب ورأيت رؤوف يلحق به ممسكًا بذراعه كأنه هو الجاني.. كأنه هو الذي يجب أن يعتذر ويستغفر ويطلب الصفح.. كان يرجوه أن يبقى.. كان يرجوه أن يعود إلى العمل، وسمعت طارق يخبره أنه سيعود في يوم ما.. سيعود.. سيعود لينقذ الأحرار من حماقة أصحابها ولكن ليس الآن أبدًا.. شعرت في كلماته أنه ينتظر رحيل عمي توفيق، يتمنى لو يموت، هززت رأسي في جنون كأنني لا أصدق.. لو كره رؤوف والده لربما فهمت.. ولكن أن يكره طارق من دلله وفضله على الجميع.. أن يكره رؤوف الذي تحمل السجن والظلم.. ورغم هذا يركض خلفه، وهو يستجديه البقاء.. لا أفهم.. في لحظة شعرت أنني أتمنى حقًّا لو أصفع طارق، وأطيح برأسه ورأس خالي عثمان.. ولكن كيف أفعل ووجه راوية المتلهف على أخيها يطل أمامي من عينيْ رؤوف الدامعتين..

كان آخر ما شاهدته تلك اللحظة هو رؤوف وهو يحاول أن يستبقي طارق.. وطارق وهو يلقي بذراعه بعيدًا، وهو يصيح:

- كنا نعلم أن هذا اليوم سيأتي.. أنت ضعيف يا رؤوف ضعيف..

خرج طارق.. صفق الباب وخرج.. وعاد رؤوف إلى الأريكة الموجودة في أحد أركان الغرفة؛ ليجلس عليها في هدوء..

لم أستطع أبدًا أن أسكت.. لم أستطع أبدًا ألا أسأل: لماذا؟! لماذا يرتعد المذبوح ويطلب الرحمة من القاتل؟! لماذا؟!

اقتربت من رؤوف في هدوء.. كان يخفي وجهه بين كفيه، ووضعت أصابعي على كفيه.. أحاول أن أطلق سراح وجهه علّه يرى الحقيقة.. علّه يرى أن من يبكيه.. هو من أذلّ والده ووضعه هو نفسه في السجن أعواما..

وسمعت رؤوف يقول:

- الجفاء والعداء لن يكتبا براءتي.. الجفاء والعداء لن يشفيا أبي.. عودته يا شهيرة تساعدنا أكثر..

في ألم وحزم، أجبت رؤوف قائلة:

- لا أصدق أنه شيطان إلى هذا الحد، وأيضًا لا أصدق أنك ملاك.. هناك شيء لا أفهمه!

كان واضحًا ما أعنيه.. كان واضحًا جدًا أن سرًا ما يجب أن يعلن. وحقيقة ما يجب أن تحكى.. رأيت وجه رؤوف يتكسر قطعًا صغيرة وسمعته يتحدث كأن صوته قادم من أغوار سحيقة بعيدة.. رأيته ينهض عن مكانه في تهالك واضح ليخطو نحو شرفة المكتب ووقف يتحدث، كأنه لا يريد أن يراني أو يرى ما تفعله بي الكلمات.. سمعته يقول:

- نعم.. طارق على حق.. نحن حمقى.. أمي ماتت يا شهيرة يوم ولدت طارق.. كانت جميلة حانية، قتلها توفيق عبد الجواد بقسوته.. كانت جميلة.. كانت تحبني كثيرًا.. منذ وعيت الحروف والكلمات، ولا حروف بيننا سوى شكواها من والدي وقسوته.. كانت ترجوه أن نخرج يومًا فيرفض.. كانت ترجوه أن يزورها أحد وأيضًا كان يرفض.. كانت تتمنى حتى لو يسمح لها بالجلوس معنا في حديقة البيت أو أمام جهاز التليفزيون فيرفض.. كنت أرجوه أنا أيضًا وأيضًا كان يرفض.. كان دومًا يقول إن النساء لا مكان لهن بين الرجال، وإنهن خلقن فقط للمتعة والخدمة..

حين حملت في أحشائها طارق، كنت على مشارف السابعة من عمري.. كانت كل يوم تخبو أمام عيني وفي كل شهر ينتفخ فيه بطنها كانت تلتصق بي أكثر.. كنت أتسلل ليلًا إلى فراشها لتضمني، وهي تخبرني أنها تشعر بالموت قادمًا.. كانت توصيني بالقادم.. كانت تدعو الله ألا يكون أنثى.. كانت تعلمني كيف أهتم بالأطفال، وكانت تضع الوسادة بين ذراعيّ؛ حتى أتعلم كيف أحمل الرضيع.

لا تسأليني كيف كانت تعلم أنها ستموت، لكن كان طبيعيًا أن تموت بعد قسوة الأعوام التي عاشتها معنا.. يوم ولدت ماتت.. ماتت أمي وتركت طارق.. تركته بين ذراعي طفلًا صغيرًا.. أحببته في جنون.. أخبروني أنه من جوفها خرج.. كنت أضمه إلى صدري وأقبله كأنني أقبل القطعة الباقية من جسدها الذي اختفى.. أخطأت كثيرًا عندما بدأ طارق يكبر، وبدأت أحكي له عن قسوة والدي وعن قتله لأمي.. لم أكن أريده أبدًا أن يصدق ذاك الحنان الكبير الذي كان والدي يمنحه له.. شعرت بطفولتي وغبائي أن حنوّ والدي عليه لم يكن شعورًا بالذنب لفقده أمي، دون حتى أن تضمه مرة واحدة إلى صدرها.. ظننت أنه يفعل حتى لا يحبني طارق.. أنا ووالدي أصبحنا نقدم لطارق الحب في جنون.. هو لشعوره بالذنب لحرمانه من أمه، وأنا لأنني أريده أن يذكرها وليعلم أن أبانا قتلها.. أخطأت خطأ كبيرًا.. كنت طفلًا.. كنت أنفذ وصية أمي بقدر ما فهمها رأسي الصغير.. أخطأت.. أصبح طارق ممزقًا لا هو يعلم كيف يحبه، ولا هو ينسى كيف يجب أن يكرهه.. أنا أيضًا عشت زمنًا لا أعلم كيف أضم والدي، ولا أرى وجه أمي وهي تخبرني أنها تموت.

أطرق رؤوف برأسه قليلًا، واستدار ينظر نحوي، وقال:

- حتى إن لم يكن حبًا وكان شعورًا بالذنب.. هل نشعر بالذنب سوى تجاه من نحب؟ نحن إن قتلنا عدوًا هل نشعر بالذنب.. نحن نشعر به إن جرحنا أصبع من نحب.. أنا.. أنا من فعلها يا شهيرة.. ما كان يجب أن أسمِّم رأسه، ولكن..

كان يتحدث كأنه ينبش في قبر بعيد.. وكنت أستمع وأنا أتمزق حزنا عليه وعلى أمه وأمي وعلى طارق.. مسكين توفيق عبد الجواد.. لماذا كان يكرهها؟ بل لماذا يكره كل النساء؟! لماذا؟! وماذا فعلت به القسوة؟ المرأة ماتت وهو قدر.. لكن بقي هو ورؤوف يشعران بالذنب لأنهما استسلما معًا.. استسلم توفيق لشعوره بأنه قتلها واستسلم رؤوف لشعوره بالذنب لأنه ما كتم السر عن أخيه.. مسكين طارق.. أرادوا إطعامه حبًا فأطعموه سمًّا، ووجدتني في تلك اللحظة أفكر في أمي رحمها الله..

ترى هل هناك قصة كهذه بين خالي عثمان وأمي.. هناك قصص وأسرار لا نعرفها.. وهناك قصص وأسرار نتمنى لو لم نعرفها أبدًا..

ضممت رؤوف إلى صدري وأخبرته أنه ما بقي شيء يفعله.. كان طفلًا والله نفسه لا يحاسب الأطفال.. أخبرته أن طارق هو الأحمق الكبير؛ لأنه بعناده مازال يصر على حرمان نفسه من الأب والأخ.. وكأن حرمانه من أمه ما كفاه..

نحن لا نزرع الخطايا، ولكن إن زرعها آباؤنا.. إن زرعتها أقدارنا، فنحن لا يجب أن نتحول إلى حمقى، نأتي بأيدينا على ما بقي منا ومنهم!!

* * * * *

قبلت العمل في شركة الأحرار مع رؤوف.. قبلت التخلي عن صيدلية شهيرة عبد الرحمن، من أجل وقوفي إلى جوار زوجي.. وهذا يعني الكثير له ولي ولوحيدنا.. قبلت الحياة في قلعة الأحرار والزواج من رؤوفهم، وإن لم أكن أعلم عقدهم وماضيهم.. إلا أنني أصبحت جزءًا منهم، وأصبح طفلي يحمل اسمهم، وهذا أيضًا له ثمن يجب أن أدفعه بحب وصبر.. كل هذا كنت أفكر فيه أيامًا طويلة بعد لقاء طارق ذاك اليوم.. كل هذا دفعني إلى أن أنظر إلى وجه عمي توفيق، وأخبره في هدوء عن زيارة طارق.. أخبرته عن ألم رؤوف وعن صفحه عن أخيه.. أخبرته عن شعور طارق الدفين بأنهم يومًا ما أحبوه، لكنهم لشعور ما بالذنب فقط دللوه.. لم أخبر عمي توفيق عما حكاه لي رؤوف.. لم أشأ أن أجرحه، فأنا أعلم أن توفيق عبد الجواد لم يكره زوجته وحدها.. لكنه يكره النساء جميعًا، وإلا ما أعلن رفضه لوجود إحداهن في البيت أو الشركة طوال هذه الأعوام.. أيضًا كنت أعلم أنه حقًّا بدأ يحبني بعد سجن رؤوف، وغياب طارق وسقوطه هو في براثن الشلل والمرض.. ما أردت محاسبته ولا أردت القسوة عليه، لكني حقًّا كنت أؤمن بما كان رؤوف يخبرني به.. الغضب لن يعيد شيئًا فقدناه.. كنت حقًّا أريد الحفاظ على ما بقي منا.. طارق عبد الجواد سيبقى منا، وسيبقى هو الآخر مظلومًا بما فعله والده، وأيضًا ما فعلته طفولة رؤوف وبراءته في ذاك الماضي.

حاول عمي توفيق أن يظهر رفضه لعودة طارق.. حاول كأنه يخبرنا أنه يقتص لرؤوف ولسجنه.. لكن كان واضحًا أنه هو الآخر يريد أن يغسل ذنوبه ويغتسل منها.. كان واضحًا أنه يعلم أنه زرع في قلب أبنائه حريقًا لا ذنب لهم فيه، أو في احتراقهم به.. رؤوف بضعفه أمام أخيه.. وطارق بضعفه أمام تمزقه بين الحب والكراهية.. بين الانتقام والصفح.. وبين الحنان والقسوة..

همهم توفيق عبد الجواد كثيرًا يومها، وهو يقاوم شوقه إلى طارق.. وبعد طول حديث بينه وبيني رأيته يضع كفه اليمنى على كفي، ثم قال كلمة واحدة:

- «شكرًا»..

رأيت في عينيه شيئًا كالحب.. رأيت في عينيه شيئًا كالاعتذار.. وشيئًا كالندم.. شعرت للمرة الأولى في تاريخي معهم أن عمي توفيق يتحرر من كراهيته للنساء.. يتمنى لو يعتذر.. يتمنى لو عادت به الأيام حتى لا يذبح بالقسوة امرأة أحبته، ومنحته رجلين كان من الممكن أن يكونا شيئًا آخر.

اقتربت لحظتها من عمي توفيق، وضممت رأسه إلى صدري، وأنا أدعو الله أن يعود طارق حقًّا قبل أن يرحل الرجل.. دعوت الله إن كانت مشيئته أن يموت توفيق عبد الجواد.. فلتكن رحمته أن يموت وقد تخلص أبناؤه من نزف جراحهم القديمة..

* * * * *

ليس المرضى دومًا من يرحلون.. الأصحاء يرحلون في لحظة، ويبقى المرضى زمنًا في الألم والندم يحيون!!

منذ لقائنا بطارق ذاك اليوم ومنذ علم عمي توفيق به.. ورؤوف يعمل ويتحرك في جنون، وأنا ألهث خلفه ومعه.. كان يقيم دعوات ونخرج إلى سهرات، ونرسل هدايا لنرفع اسم الشركة من جديد، ونستعيد فيها الثقة وندفع بها إلى ما كانت عليه.. كان رؤوف يخبرني أن نهوض شركة الأحرار وتفوقها سيعيد طارق.. سيعيده ويعيد إليه الثقة في أن النقاء يبقى، والنزاهة تنتصر.. والحب يستيقظ والجراح قد تلتئم.

في أحد الأيام، دعاني رؤوف إلى تناول العشاء وحدنا.. بعيدًا عن حملة الدعوات والسهرات الإعلامية المكثفة.. إلى أحد النوادي الاجتماعية الشهيرة والخاصة جدًا.. أخذني، وإلى طاولة صغيرة، أجلسني إلى جواره بعد أن كنت أنوي الجلوس على المقعد المقابل له، ابتسمت حين وضع ذراعه حول كتفي في حنان، وهمس في أذني يطلب مني أن أرقب تلك المجموعة التي تحتل طاولة كبيرة أمامنا.. ابتسمت.. وأنا أتجول على وجوه الجالسين إليها.. ووقفت عيني على وجهكِ وعرفتُكِ.. صحت وابتسم رؤوف، وهو يضمني بذراعه إلى صدره قائلًا:

- وعدتك أن تريها.. علمت أنها تأتي هنا كل أسبوع.

ضحكت في طفولية بعيدة وقبَّلته على وجنتيه قبلة صغيرة سريعة.. التقطتها أنتِ بعينيك، ورأيتك تنظرين في وجه رؤوف، وتبحثين في كفي عن شيء ما، أرخيت أنا عينيَّ في خجل ثم عدت أرفعهما لتلتقي عينانا لحظة، ورأيتك تبتسمين لي ابتسامة صغيرة، عدت أنت بعدها إلى الحديث مع من كانوا معك..

أخرجت هاتفي الصغير من حقيبتي.. وصحت في أذني عزة أخبرها أني أراك، وأنك تجلسين على بعد خطوات مني.. كانت عزة في آخر أيام حملها وسألتني كيف أراك وهل تشبهين صورك في الصحف، وعدت أتفحص وجهك وقلت ضاحكة إنك أكبر سنًا من الصور.. لكنك أيضًا أكثر رقة وسكونًا..

كنت سعيدة لأنني أراك، وكنت أكثر سعادة لأن رؤوف ما نسي تلك الرغبة الصغيرة التي أخبرته بها يومًا، وأنه سعى وبحث حتى علم أين نجدك وحضر بي لأراك.. أذكر في ذاك اليوم أنك نهضت بعيدًا عن رفقائك واختفيت بعيدًا في ركن بعيد تتحدثين على الهاتف.. وفي لحظة قررت الذهاب إليك وذهبت حيث تقفين انتظرت انتهاء مكالمتك.. وعندما استدرت للعودة إلى طاولتك، تقدمت منك وفي خجل مددت كفي نحوك، وقلتها كأني ما وجدت غيرها.. قلت لك في خجل وفرح وارتباك:

- أنا شهيرة!!

رأيت عينيك ترقصان بشيء كالدهشة والحنان، وابتسمت تمدين كفك نحوي قائلة:

- أما أنا فمغمورة..

ضحكنا معًا ضحكة صغيرة، أخبرتك بعدها أنني أعرفك، وأنني حقًا أحبك.. كانت كلماتنا قصيرة قليلة.. لكنك عندما هممتُ بالعودة إلى رؤوف، وضعت كفك على ذراعي قائلة:

- شهيرة.. منذ متى تزوجتما؟!

ابتسمت.. ابتسمت سعيدة بذكائي.. عندما رأيتني أقبل رؤوف وأضع رأسي على صدره.. بحثت في أصبعي وأصبعه عن خاتم الزواج.. وعندما وجدته سألتني عن عمر الزواج لتعلمي كم يدوم الحب وتدوم القبلات.. ابتسمت وأنا أقول:

- خمسة أعوام تقريبًا..

هل تذكرتِ ذاك اللقاء؟ هل تذكرتِ تلك اللحظات؟ هل تذكرين ردك الذي لا أنساه؟!

عندما أخبرتك أن عمر زواجي برؤوف آنذاك خمسة أعوام، ابتسمت في حنان فائض قائلة:

- تملكين ثروة.. ثروة حافظي عليها ما بقي من أعوام.. أنت لست فقط شهيرة، بل أنت بهذا الحب محظوظة وثرية..

مضيت أنتِ إلى أصدقائك.. ومضيت أنا إلى ثروتي ورجلي، وجلست إلى جواره ووضعت رأسي على كتفه من جديد أمام عينيك، كأنني أعدك

أن أبقى العمر أحبه، ويبقى العمر يحبني.. ونبقى أثرياء..
هل تذكرتِ ذاك اللقاء؟! آه يا سيدتي.. أضاع رؤوف ثروته وأضعت أنا ثروتي!!

* * * * *

مرت بنا الأيام بعدها والشهور.. وكانت عزة قد وضعت طفلتها الثانية وأطلقت عليها اسم «لقاء».. أخبرتني أن مولدها جاء بعد عام حافل بلقاءات كبيرة ونادرة.. مثل لقائنا ببهاء.. ولقائنا برؤوف الغائب.. ولقائي بك.. مرت الأيام والشهور، وما عاد طارق ولا دخل بهاء بيت عبد الجواد..

كانت عينا عمي توفيق تسأل عن طارق كل صباح أو هكذا كان يراها رؤوف.. أخبرني أنه لن يتوقف أبدًا عن محاولاته لاستعادة طارق؛ لأنه وحده المسئول عما وصل إليه.. رؤوف كان يقتل نفسه لومًا على ما كان يخبر به طارق في طفولتهما.. يظن أنه وحده من زرع في قلب الصغير كراهية أبيه.. بدأ رؤوف يتحدث عن قصة أمه وقسوة أبيه، واعتقاده بأنه هو من قتلها حزنا وهمًّا.. أخبرني أنه كان يرى في حنان توفيق الفائض على طارق اعترافًا ضمنيًّا منه بالجريمة، وكان يرى ذاك الحنان دافعًا أكبر لرؤوف لتحذير طارق منه..

كنت أشعر بمعاناة رؤوف النفسية وشعوره الدفين بالذنب والألم والحرمان.. لكن ما كان يدهشني، هو كيف يكره طارق والده ورؤوف لا يفعل!! عندما سألته أجابني في مرارة أن هناك فارقًا كبيرًا بين الحب والواجب.. أخبرني أن توفيق عبد الجواد رغم قسوته على زوجته كان أبًا حنونًا.. أخبرني أنه رفض أن يتزوج ليتولى، هو وحده، الإشراف على ابنيه ومتابعة تعليمهما.. أخبرني رؤوف وأنا بين ذراعيه ذات ليلة في ألم كبير أنه يعلم أن سرًّا كبيرًا في صدر توفيق عبد الجواد يفسر قسوته على زوجته، بل وعلى النساء جميعًا.. سر أضاع طارق وحرم رؤوف من أن يحيا، دون هذا الشعور الدفين بالذنب، تجاه ما فعله وهو طفل مع أخيه.. سر شعرت أنه يعرفه لكني لم أجرؤ أبدًا على السؤال عنه ..

أذكر كيف ضممته إلى صدري ليلتها، وأنا أخبره أننا جميعًا نحيا وبين ضلوعنا عقد صغيرة تمزقها.. لكن يجب ألا ندع تمزق ضلوعنا يمزق حياتنا بأكملها.. أنا أيضًا مازالت بين ضلوعي عقدتي من خالي واستسلام أمي وضعفها أمامه، حتى أنني أنا الأخرى أشعر أن سرًّا ما كان بينهما، جعله يحرمها وجعلها ترضى الحرمان!!

أخبرت رؤوف أن طارق يعلم أنه سيحافظ على نصيبه، وأنه أبدًا لن يظلمه حتى إن ظلمه عمي وحرمه.. أخبرته أن طارق يعلم أنه نقطة ضعف قلب رؤوف؛ لهذا يلقي بخطاياه على كتفيه، وهو يعلم أنه سيحملها دون تذمر.. أخبرته أنه وإن ظلم طارق في طفولته فهو أيضًا كان طفلًا لا يعي ما يفعل، وأنه كفّر عن خطيئته إن كانت خطيئة.. كفّر عنها يومًا مع بهاء وأعوامًا في السجن، والعمر بأكمله في تحمله وتحمل أخطائه..

أخبرته أن ابتعاد طارق قد يخلقه من جديد؛ ليرى ما رآه رؤوف في نفسه وأبيه.. أخبرته أن نجاح الأحرار واستمرارها بشرف ونزاهة سيعيدان طارق إليها ذات يوم قريب.. يوم قد تلتئم فيه الجراح، حتى إن لم نعلم نحن فيه الأسرار والخفايا!!

* * * * *

بعد أقل من عام واحد من عودة رؤوف، عادت الأحرار إلى الصفوف الأولى.. وعاد عمي توفيق إليها.. عاد مع «سالم» مرافقه الدائم الذي يتبعه ويستند إليه.. عاد بعد أن علم أنه أبدًا لن يعود كسابق عهده، لكن يجب أن يعتاد حياته الجديدة.. عاد إلى مكتبه وانتقل رؤوف إلى مكتب أخيه بالشركة، وبقيت أنا في مكتب رؤوف..

ظننت في البداية أن عمي توفيق سيطلب مني العودة إلى الصيدلية.. لكنه أعلن أنه يرحب ببقاء المرأة الأولى التي دخلت الأحرار وأتقنت فيها دورها..

عادت حياتنا هادئة وعادت الابتسامات تسكن وجوهنا.

رفض عمي في ألم واضح عودة طارق إلى الشركة، ورفض طارق أن يلقاه أو يجتمع به.. رؤوف كان يعتقد أنه مازال غاضبًا من رفض والده له وطرده من الشركة.. أما أنا، فكنت أعتقد أنه يرفض أن يرى والده على هذه الحالة ليواجه ما فعله به.. كنت أعتقد أن طارق رغم كل شيء يحب أباه، ولا يقوى على رؤية ما صنعه به.. فقرر الهرب حتى يختفي والده من على ظهر الأرض.. لكن أيًا كانت الحقيقة وأيًّا كان السبب الحقيقي، فلقد رفض طارق العودة إلى الأحرار وانتشرت الأنباء في أروقة شركات الأدوية عن شراء طارق لخط إنتاج بعض المستلزمات الطبية وافتتاحه شركة خاصة به.

كان طارق يعمل، وهو يعلم أننا أيضًا نعمل من أجله ومن أجلنا..

في نهاية العام الأول، عاد عمي توفيق يدعوني أنا ورؤوف إلى السفر إلى رحلة باريس القديمة، ولم يعترض أحدنا.. أنا ورؤوف كنا حقًّا نشتاق إلى السفر وحدنا من جديد.. واتفقنا أن نترك ضياء مع عزة وزياد ويحضر والدي للإقامة مع صديقه توفيق عبد الجواد..

سافرنا.. سافرنا أنا ورؤوف وحدنا كما فعلنا أول مرة.. لكنه كان أسبوعًا له سحر، وله لون لا سحر مثله ولا ألوان..

شعرت في أسبوع باريس أنني نسيت كل شيء، واستعدت كل شيء، وأضعت كل شيء..

شعرت أن رؤوف هو الآخر يغتسل كل صباح من أحزان طفولته، ومن آلام سجنه، ومن براكين غضبه..

في حدائق فرساي قبلت زهرة حمراء وأخبرتها أنني حقًّا صفحت عن الأيام وسامحت القدر، وأن أيام الألم والحرمان التي مرت بي منذ خروجي من بيت أبي، إن كانت ثمنًا لهذا الحب وهذه السعادة، فهي ثمن زهيد لا أمانع في أن أدفع أضعافه عشرات المرات.

تحت قوس النصر في الشانزليزيه، ضمني رؤوف في جنون، وهو يخبرني أن يومين مرا ولم نسأل عن ضياء ولا عن والدي ووالده، فتحت عيني في ذهول، وأنا أشهق ضاحكة كيف حقًّا نسيناهم.. أخرجت هاتفي الصغير من معطفي، وأمسك رؤوف به ليقذفه عاليًا في الهواء، راكضًا بي بعيدًا عنه..

كان يركض وكنت أركض خلفه.. وأنا أسمعه يقول إنهم بخير، وإن سكان الأرض كلهم بخير.. كان يضحك كالأطفال، وهو يقول إنه يشعر أن حروب العالم توقفت، وأن كوارث الأرض أيضًا توقفت.

كان يخبرني في جنون وهو يركض في حدائق فرساي حيث وقفت في لحظة لأسقط على الأرض، ويسقط هو إلى جواري أمام مئات الزوار، حيث اقترب بوجهه الضاحك مني قائلًا إنه يتحداني لو نهضت الآن وذهبت إلى أي مستشفى على أرض فرنسا لوجدتها خاوية من مرضاها.. قال إنه يتحداني لو ذهبت معه إلى أي سجن على أرض فرنسا لوجدت مساجينه جميعهم تحرروا..

كنت مستلقية على حشائش حدائق فرساي البهية الجمال، وأنا أرقب وجهه وشفتيه، وسمعته يسألني إن كنت أقبل الرهان وأغمضت عيني، وأنا أسأله أي أحمق على الأرض ذاك الذي يقول إني لا أصدقه!!

شفينا أنا ورؤوف.. شفينا من كل شيء، وعدنا من باريس محملين بالهدايا.. عدنا من باريس وكأن رساميها ونحاتيها نحتوا على وجهي أنا ورؤوف ابتسامة لن تغيب.

كان الشتاء وكان العام يوشك على الرحيل، وطلب مني والدي وعمي توفيق أن نبقى لنحتفل بمولد العام الجديد في باريس.. عزة أخبرتنا أن

ضياء سعيد بوجوده معهم، وأنه بخير، وأن بإمكاننا البقاء شهرًا آخر لا أسبوعًا واحدًا فقط، تمنيت لو نبقى لكن رؤوف قال إنه يريد الاحتفال بمولد العام الجديد في بيت الجزيرة.. أخبرني أنه يريد أن يعود في اليوم الأول من العام القادم؛ ليجد ضياء غافيًا في فراشه، وقلت إنني أريد كل ما يريد.

عدنا لنجد توفيق كالغاضب لعودتنا؛ لأن عودتنا لا معنى لها سوى أن يعود والدي إلى بيته.. عدنا لنحتفل بمولد العام الجديد، ولكن أما قالوا إن في كل لحظة يولد فيها مولود يختفي فيها موجود؟!

* * * * *

لم نستعن هذه المرة ببهاء لإعداد بيت الجزيرة.. أخبرت رؤوف أني وحدي سأعد البيت.. أخبرته أنني لا أريده أن يرى ما سأفعله به إلا ليلة رأس السنة..

بقيت طوال الأسبوع الأخير من العام الماضي، وبعد عودتنا من رحلتنا الباريسية، أذهب إلى بيت الجزيرة مع بهاء الذي كنت ألتقيه كل يوم في الثالثة، وسيارتي محملة بعشرات الصناديق لنأخذ لنش رؤوف ونذهب هناك.

في تلك الأيام تحولت إلى طفلة صغيرة، تحلم بحفل كبير، وتعده بأصابع مراهقة وعقل امرأة عاشقة..

رشقت مئات الشرائط الملونة وعشرات عشرات البالونات الوردية على كل أسقف البيت الصغير.. أحضرت دبة وردية وعشرات من أصيصات «بنت القنصل» الحمراء ووضعتها في أوان فخارية بيضاء، وعلى كل آنية لففت شريطًا أحمر كتبت عليه بقلم مفضض «أحبك»..

أحضرت شموعًا في كؤوس زجاجية.. كلها أخذت شكل قلوب شفافة ونثرتها في بيت الجزيرة..

كان بهاء يرقبني، وأنا أفتح صناديق مشترواتي، وأوزعها في جنبات البيت في صفاء وحنان.. كان يحاول كثيرًا أن يقف على مقاعد البيت ليدلي الشرائط أو يجدلها مع مثيلاتها من اللون الوردي أو الأبيض.. إلا أنني كلما رأيته يتأرجح في خطواته، أرفض بشدة أن يفعلها لأقفز وحدي على السلم الخشبي القديم..

نعم السعادة تعود والضحكات تجلجل، بعد أن نظنها دفنت بيد الأحزان والدمع.

كنت سعيدة كما لم أكن حتى ليلة زفافي.. كنت سعيدة لأن سعادتي باستعادة ضحكاتي وأنوثتي وعائلتي ونجاحها أضافت إلى روحي سعادة فوق السعادة..

كنت أرقب وجه بهاء، وهو يمسك لي السلم الخشبي، ويرقبني وأنا على أعلى درجاته في ذعر؛ خشية أن أقع وأضحك في صخب.. لم أكن حتى أفكر في ألمه، وهو يتمنى لو كان باستطاعته أن يكون هو من يفعل ما أفعله.. كل ما كنت أفكر فيه هو أن أخيفه أكثر، وأنا أتمايل متظاهرة بأنني أكاد أسقط لأراه يتشبث بالسلم أكثر، وأضحك أنا أكثر وأكثر..

في الليلة الأخيرة جلسنا أنا وبهاء نتناول بعض الساندويتشات، التي أحضرتها معي بعد انتهائنا مما فعلت في صالة بيت الجزيرة، وشرائط الاحتفال الطويلة تتدلى فوق رؤوسنا.. كنت أضع في فمي قضمة صغيرة ثم أنتفض لأغير مكان نبتة أو أبدّل مكان مقعد، ثم أعود لأجلس إلى جواره ولا أنظر إليه.. بل أنظر حولي وأنا أتخيل ليلة الغد.. ليلة رأس السنة، وأتخيل كيف سينظر رؤوف حوله ويشهق، وهو لا يصدق أني وحدي فعلت كل هذا..

كنت أتخيل ثوبي العاري الذي أعددته للغد، وأرى رؤوف يحملني بين ذراعيه وكفيه تتجول على ظهري العاري، وأغمض عيني، كأني ما لمسني رؤوف يومًا من قبل..

بعد انتهائنا من تلك الوجبة الصغيرة، أخرجت من إحدى تلك الحقائب الصغيرة التي أحضرتها مفرشًا من الساتان الأبيض.. وضعته على تلك الطاولة الصغيرة، التي كنا نأكل عليها، ووضعت عليه مفرشًا أصغر مربع من الأورجنزا الحمراء، تتدلى منه شرائط ملونة كثيرة على مفرش الساتان الأبيض.. وعلى استدارة تلك الطاولة الصغيرة، وضعت أكوابًا زجاجية صغيرة، بداخل كل منها شمعة بيضاء صغيرة، ووقفت أنظر إلى الطاولة من بعيد في حنان.. والتفت خلفي، أبحث عن الصندوق الكبير الذي أحضرته معي منذ أيام.. وعندما وجدته في أحد الأركان، ركضت إليه لأحمله وصاح بهاء يطلب مني ألا أفعل فالصندوق كبير وثقيل، وضحكت وأنا أخبره في مرح أنه هو أيضًا لن يستطيع حمله وانحنى بهاء مستجمعًا كل قواه؛ ليحمل صندوق الورق الكبير واختل توازنه قليلًا لأن الصندوق كان على عكس حجمه الكبير خفيف الوزن، ضحك بهاء وهو يخطو به ويسألني أين يضعه.. أنا التقطته منه ووضعته في منتصف الطاولة المستديرة، التي زينتها بقناني الشمع الصغيرة، وعدت إلى الخلف خطوات ووقفت أرقبه في حنان.

إنه صندوق كبير من صناديق الهدايا الورقية من اللون الوردي، وحوله شريطة حمراء كبيرة تحتها بطاقة صغيرة كتبت عليها «لأني أحبك»!

ضحك بهاء وهو يقول إني سأفسد رؤوف دلالًا، النساء لا تحمل إلى الرجال هدايا في هذا الحجم، وضحكت إن بداخل هذا الصندوق الوردي الكبير صندوقًا آخر والآخر بداخله آخر أصغر منه حجمًا، وأغمضت عيني وأنا أتخيل رؤوف وهو يضحك معي.. فكلما فتح غطاء صندوق ظهر له آخر.. خمسة صناديق حتى يصل إلى الأخير والذي عندما يفتحه في الغد.. وبعد أن تدق الساعة الثانية عشرة، سيجد بداخل الصندوق الأخير عروس Baby Born الألمانية الشهيرة تغفو بداخله.. نعم دمية صغيرة تشبه طفلًا حديث الولادة..

أريد رؤوف في الغد أن يعلم أنني أريد منه طفلًا آخر.. أريد في أحشائي منه شيئًا.. يبقى يتكون ويتحرك ما يقارب العام، ثم يخرج ليشاركني ويشارك ضياء قلب رؤوف واسمه وحياته ما بقي من العمر..

في الغد سيعلم رؤوف أنني أريد طفلًا آخر لأني أحبه..

كنت لحظتها هائمة في تخيلاتي لا أرى بهاء.. وعندما أفقت نظرت إلى وجهه الهادئ لأجده يرقبني في حنان، ورأيت في عينيه أطياف دمعة وألم كبير، وسكتت ضحكاتي فجأة وشعرت بالألم على بهاء.. إنه وحيد.. كيف تراه يقضي ليلة الغد؟ فقد المرأة التي أحب، وفقد ساقه وها أنا أعذبه إلى جواري، وهو يرقبني أستعد لإسعاد من أحب والارتواء منه.. واقتربت من بهاء لحظتها ووضعت كفي على كتفيه قائلة:

- بهاء.. ألا تصفح عنها؟ ألا تنسى؟ ألا تصفح عن طارق؟ ابحث عن امرأة أخرى.. الحياة لا شيء سوى الحب.. والحب لا يولد إلا من الصفح والغفران.. اغفر وانس..

سقطت دمعة بهاء وهو يرقبني في حنان، كأنه يرقب طفلة صغيرة بريئة مازالت لا تعلم عن حقيقة الحياة شيئًا، رأيته يتحسس ساقه المبتورة، ويبتسم ابتسامة تقطر ألمًا ومرارة ثم قال:

- هناك أشياء لا تنسى.. أشياء لا صفح فيها ولا غفران!

* * * * *

عندما عدت إلى بيت المنصورية ليلتها.. وجدت مفاجأة كبرى في انتظاري.. وجدت رؤوف هو الآخر، وقد أعد احتفالًا صغيرًا في حديقة المنزل الخلفية.. رأيت بالونات وصناديق هدايا كثيرة حول حمام السباحة الكبير.. وعندما وقفت أنظر في دهشة.. ضمني من خلفي، وهمس في أذني أنه احتفال صغير لعائلتنا برأس العام؛ لأننا في الغد لن نكون معهم.

في العاشرة حضر زياد وعزة وابنتاهما، وحضرت أيضًا أميمة وهدان.. وحضر والدي وجلسنا معًا في الحديقة، رغم برودة الجو.. كنا جميعًا سعداء..

كان عمي توفيق يجلس على طاولة مع والدي، يلعبان الشطرنج لعبتهما المفضلة، والتي اعتادا لعبها في ذاك الأسبوع الذي قضاه والدي معه أثناء سفري أنا ورؤوف.. كانت عزة تركض خلف حنان وضياء وأميمة معهما، وأنا أحمل لقاء الصغيرة بين ذراعيّ، وأنظر إلى وجهها الصغير، وأتذكر وجه الدمية الصغيرة النائمة في الصندوق الأخير، كنت أبتسم في حنان وأنا أضمها وأنظر إلى رؤوف، الذي كان يجلس إلى زياد أمامي، وأدعو الله أن يوافقني الرأي في إنجاب طفل آخر..

بعد تناولنا العشاء فتح رؤوف لكل من كان هناك هديته.. كانت هداياه رائعة وثمينة.. حتى لقاء الصغيرة، التي لم تخط بعد كان لها صندوق صغير بداخله قرط من الماس.. رؤوف كان مثلي يحب عزة كثيرًا، بعد كل ما منحته لي ولضياء طوال غيابه.

السعادة تعود.. حقًّا تعود وإن طال غيابها.. لكن أنا اليوم أجزم أنها إن عادت بذاك الجنون، فهي لابد وأن ترحل بقسوة وبجنون أكبر..

كان عمي توفيق يحرك قطع الشطرنج بيده اليمنى، بل وفي بعض الأحيان بكفه اليسرى التي أصبحت تتحرك رغم صعوبة حركته.. حتى كلماته اعتدناها وبدأنا جميعًا نفهمها في وقت أقل من سابق الأيام الماضية بأكملها.. عزة حملت لقاء من بين ذراعي لتضعها في عربتها الصغيرة، وتدخلها مرة أخرى إلى داخل المنزل لتكون أكثر دفئًا، وفي تلك اللحظة ذهبت إلى طاولة الشطرنج، لأجلس إلى جوار عمي توفيق ووالدي، ورأيت والدي يضع قطعة الشطرنج التي في يده، ويشير لي بيده إلى المقعد المجاور له حيث جلست، ووضع كفه على فخذي ليربت عليه في حنان، ونظر إلى وجه عمي توفيق ثم قال:

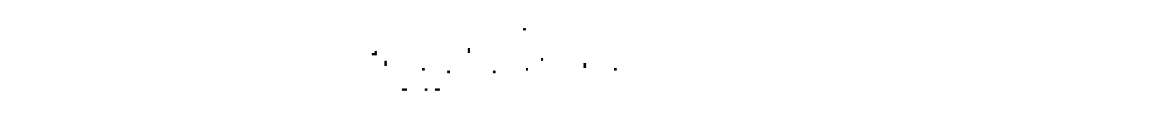
- شهيرة لم تعد زوجة رؤوف.. شهيرة الآن ابنتك.. ارعها وضعها في عينيك..

نظرت إلى والدي في دهشة كبيرة، وشعرت بيد قوية تقبض روحي.. استدرت أنظر إلى عمي توفيق الذي أعاد هو الآخر قطعة الشطرنج، التي بين أصابعه إلى مكانها، وأخذ ينظر إلينا معًا في وجوم..

لا أدري لم قالها والدي.. لكن لا أنا سألته ولا عمي توفيق فعلها.. لا أنسى الغصة التي شعرت بها في صدري، عندما سمعتها وأمسكت بكف والدي لأرفعها إلى فمي وأطبع عليها قبلة كأنني أبكي.. وعندما حاولت النهوض عن مكاني لأضمه إلى صدري، وأخبره أنه وحده سيرعاني العمر بأكمله.. شعرت بكف رؤوف على كتفي، حيث جاء من خلفي يسأل في مرح أيهما كسب الدور.. أجابه والدي في هدوء أنهما قررا تأجيل النهاية إلى الغد!!

رؤوف أخذني من كفي ليريني هديتي، التي لم أفتحها بعد، وذهبت معه وفي صدري شيء كالألم؛ لأنني لم أضم والدي بعد ما قال.. لكني تبعت رؤوف وأخذتني دهشتي وانبهاري بمعطف الفراء الثمين، الذي وضعه حول كتفي وانطلقت عزة تصيح، وهي تضع كفها عليه بأنها ما تمنت يومًا شيئًا كما تمنت دومًا أن تضع كفها على فراء المنك، همس رؤوف في أذني أن عمي توفيق هو من دفع ثمنه، وهو أيضًا من طلب منه شراءه.. واستدرت لأذهب إلى عمي توفيق لأشكره حيث وجدت والدي يضم ضياء في صدره كأنه يودعه.. انقبض قلبي ونفضت رأسي كأنني أطرد عنه فكرة شيطانية تحاصره.. ذهبت ومعطف المنك حول جسدي لأقبل رأس عمي توفيق، وأخذت أدور بجسدي في معطف المنك وأنا أحاول أن أكون مرحة لأكذب ذاك الشعور الخفي بأن مدحت عبد الرحمن يودعنا الوداع الأخير!!

خرجت أميمة وعزة مع ابنتيها مصطحبة ضياء معها ليكون في صحبتها عند مبيتنا في بيت الجزيرة أنا ورؤوف في الغد.. وعندما عدنا من وداعهم، رأيت عمي يستند إلى ذراعي والدي ليدخلا كل إلى غرفته للنوم..



وددت لحظتها لو أذهب إلى والدي وأضمه.. لكن شعرت أنني إن فعلت، فهذا يعني أنني أستسلم لذاك الشعور القميء، الذي راودني وأنا أسمعه يوصي عمي توفيق بي وعندما ضم ضياء إلى صدره.. لوحت لهما من بعيد، وأنا أخبرهما أننا سنتناول طعام الإفطار معًا جميعًا، وذهبت أنا ورؤوف من حديقة البيت إلى مدخل بيتنا لننام وننتظر الغد الذي ليته ما جاء!

* * * * *

نعم.. رحل مدحت عبد الرحمن في صباح الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر.. رحل وهو ينام في غرفة النوم المجاورة لغرفة عمي توفيق.. رحل وحده بعد أن أوصى عمي توفيق بي، وبعد أن ضمّ ضياء وودعه.. رحل وبيت الجزيرة ينتظر وصولي أنا ورؤوف بزهوره الحمراء وشرائطه الملونة وصندوق الهدايا الكبير.. رحل وأنا نائمة في فراشي، كما رحلت راوية ذاك اليوم..

أيقظني رؤوف في حنان.. عندما فتحت عيني ونظرت إلى عينيه، رأيت ما رأيته في عيني والدي يوم دخل غرفتي في بيته يقول لي: «أصبحنا اثنين»..

بقيت لحظات أنظر إلى عيني رؤوف الدامعتين، وأنا أحاول أن أخبر نفسي أنني مخطئة، وأنني مازلت واقعة تحت تأثير أفكار الأمس الحمقاء أو حتى إن لم يكن فمن رحل ليس والدي.. ربما كان عمي توفيق، فهو مريض، وهززت رأسي في خوف كبير..

أنا لا أريد أن يموت عمي توفيق.. لكن أنا أتمنى الموت أو أن يموت والدي.. في تلك اللحظات عاد رؤوف يضمني ونفضت ذراعيه من حولي، نهضت عن فراشي لأركض في ذعر.. ركضت حافية.. ركضت رغم البرودة القارسة شبه عارية.. ومن ذاك الجسر العلوي، ركضت، وكان رؤوف يركض خلفي وهو يناديني في حنان.. فتحت باب بيت عمي توفيق العلوي، وأسرعت إلى الغرفة التي ينام فيها والدي.. كان رؤوف إلى جواري، لكنه لم يقل شيئًا وفتحت الباب لأجد عمي توفيق يجلس على حافة فراش والدي، ويمسك بكفه بين يديه ودموع غزيرة تسقط على وجهه، وشهقت شهقة كبيرة ضمني رؤوف بعدها إلى صدره، وأخذت أبكي في ألم، لم أعرف مثله وأنا أردد:

- أخبرنا بالأمس أنه راحل.. أخبرنا.. كان يجب أن أضمه.. أن أودعه.. كان يجب أن أودعه..

كان رؤوف يغلق حول جسدي ذراعيه في قوة.. ورغم هذا كان يبكي هو الآخر في جنون..

بصعوبة كبيرة أفلتُّ من بين ذراعيه، وركضت إلى جوار فراش أبي.. وكفه مازال بين كفي عمي توفيق، ومن خلف جيوش دمعي نظرت إلى وجهه المضيء الهادئ لأرى طيف ابتسامة، تخبرني أنه بخير.. وأنه سعيد.. وأنه بين ذراعي راوية، وأنهما معًا وأنا وحدي..

عمي توفيق وضع أحد كفيه على رأسي، ورفعت رأسي أنظر إلى وجه أبي من جديد، وقلت:

- ما بقينا اثنين.. أصبحت وحدي يا حبيبي.. وحدي!!

* * * * *

ليلة مولد العام الجديد هي ليلة رحيل كل من كان لي وما كان لي..

في الليلة التي كانت الأرض تحتفل بإشراقة شمس جديدة عليها، كنت أنا أودع شمس عمري ونور عيني.. في الوقت الذي كانت فيه النساء تعد أحلى أثوابها وعطورها؛ استعدادًا للخروج إلى الاحتفال والرقص والغناء، كنت أنا أضع جسدي في ثوب أسود قاتم، ويلتف جسد والدي في قطع بيضاء بسيطة لا ثمن لها ليودع جسده التراب..

العالم كله كان يستعد لأن يضيء ويرقص ويغني.. وفي نقطة صغيرة جدًّا منه اسمها المنصورية، كنت وحدي بداخلي من الحزن والألم ما يكفي لأن يغتال احتفال الكرة الأرضية بأكملها من شرقها إلى غربها، ولكن لا العالم يشعر بحزني، ولا أنا كنت أرى فيه سوى الظلام والسكون والألم..

رحل مدحت عبد الرحمن.. خرجوا به من بيت المنصورية، وخرجت معهم في سكون، وبقيت أرقبهم وإلى جواري عمي توفيق في سيارته.. بقيت أرقبهم وهم يحملون جسده الطاهر إلى الشرقية؛ حيث أوصى بدفنه، من خلف دموعي في صمت..

كان رؤوف يحمله.. كان بهاء معه وزياد وعامل الصيدلية وطبيبها الآخر.. وكنت أنا إلى جوار عمي من خلف الزجاج نرقبهم.. عمي توفيق يمنعه المرض عن حمله معهم، وأنا يشلّني الألم والخوف والضياع..

رأيتهم بعدها يعودون.. رؤوف وبهاء وزياد.. عادوا وحدهم وتركوه.. عاد الثلاثة الذين أحبهم والدي كثيرًا.

ائتمن أولهم على ابنته، وثانيهم على بيته وأسراره، وثالثهم على ماله وحلمه.. عادوا وحدهم وتركوه.. وبلا وعي فتحت باب السيارة، وأنا أراهم يخرجون من المقابر، وهبطت لأقف ويقف الثلاثة أمامي، نظرت إلى عيني رؤوف كأني أسأله هل حقًّا نمضي ونتركه؟ بكى رؤوف وبكى بهاء وزياد في جنون، وسقطت أنا بين ذراع الثلاثة في سكون!!

* * * * *

دخل بهاء بيت توفيق عبد الجواد، بعد أن ظننا جميعًا أنه لن يفعل..

في الليلة الأولى لليوم الأول من العام الجديد، جاء بهاء وزياد وبعض المقربين، وعندما حاول عمي النهوض لمصافحة بهاء أقسم عليه ألا يفعل..

كنت أعلم أن عمي توفيق لا يعرف بهاء ولا يعرف قصته.. لكني ما عرفت أن طارق سيدخل هو أيضًا البيت في تلك الليلة، وما كان رؤوف يظن بهاء سيأتي..

رؤوف أخبرني وأنا بين ذراعيه أن طارق سيأتي لعزائي، بعد أن حادثه رؤوف وأخبره بوفاة والدي..

كنت في ذهولي وأحزاني غارقة.. لكن حين حضر بهاء توتر رأسي.. ورغم سياط الحزن التي كانت تجلد روحي، إلا أنني كنت أتمنى لو يغادر بهاء البيت قبل أن يدخله طارق، لكنه جلس في صمت كأنه هو الآخر في ذهول، كأنه هو نفسه لا يصدق أنه جاء، وأنه يجلس أمام عمي وفي بيته.

تحاملت على نفسي ونهضت عن مقعدي، وطلبت من زياد أن يصحبني بعيدًا عن الزائرين الذين جاءوا جميعهم من أجلي، فليلة العزاء الكبيرة تحددت ليلة الرابع من يناير، ونهض زياد يتبعني إلى أحد أركان البيت لأطلب منه أن يخبر بهاء باحتمال ظهور طارق، وأن يصطحبه في سيارته عائدًا به إن شاء ألا يرى طارق أو يلتقيه، لكن وقبل حتى أن أخبر زياد نفسه بالأمر رأيت طارق يقف على باب البيت في وجوم، وتجمدت عيني وعروقي ليس لوصول طارق.. ولكن لمن جاء في صحبته..

طارق لم يحضر وحده بل حضر ومعه آخر من كنت أتمنى أن أراه، وآخر من تحتمل بقايا روحي أن تصافح يده..

طارق دخل البيت وإلى جواره خالي عثمان وابنه الدكتور إبراهيم.. شعرت بعروقي تتمزق في أنين صاخب.. أولا يكفيه أنه كان موجودًا عند دفن والدي؟ ألا يكفيه أنه جاء يستعرض حبه وحنانه هناك؟ لماذا يأتي هنا أيضا؟

خالي يأتي لتعزيتي وبصحبة من؟! بصحبة طارق، وفي وجود بهاء..

بعد كل الألم الذي سببه لي زائرا العزاء ولعمي ورؤوف..

شعرت برؤوف يسرع بخطواته عندما رآهما.. شعرت برؤوف يسرع لا نحوهما ولكن نحوي.. الجميع يعلم ما أكنّه لخالي.. والجميع يعلم أن دخول طارق البيت بعد كل ما كان وحدث ليس بالأمر اليسير..

اقترب رؤوف مني وأمسك بكفي بين يديه، وتقدم مرحبًا بخالي وولده، ومددت كفي أصافح خالي.. كأنني أحاول أن أخبره ألا يفكر في شيء أكثر من المصافحة، وتمتم خالي بعبارات العزاء.. وتمتمت أشكره وضمني طارق إلى صدره واتجهنا جميعًا إلى حيث يجلس عمي توفيق وبهاء والقلائل الموجودون.

تقدمنا خالي عثمان إلى عمي توفيق، وانحنى يضمه ويعزيه، ورأيت وجه عمي يرتعش وشفتيه تنتفضان، وطارق إلى جواري يقف في سكون..

كل الوجوه أمام عيني كانت تتحرك كصور غائمة.. ورأيت وجه بهاء ينتفض هو الآخر، لكنه لم يحرك ساكنًا، وسمعت خالي يقول:

- الأحزان الكبيرة توحد القلوب يا توفيق.. طارق جاء معي ليكون معكم فهو منكم وإليكم..

رأيت طارق يتقدم نحو والده في هدوء ليلتقط كفه ويقبلها.. ورأيت عمي يدير وجهه بعيدًا، ويغلق عينيه على دمعة لا أعرف إن كانت في عيني أم عينيه.. رأيت بهاء ينهض وهو يوشك أن يقع ليلقي السلام على الجميع، مودعًا إياهم، وأسرع زياد نحوه يخبره أنه ماض معه..

رأيت طارق يرمق بهاء، وخطواته اللامنتظمة في ذهول..

كان واضحًا أنه لم يذكره.. لكن كان واضحًا أيضًا أن نظرات عينيه وخطواته ووجوهنا جميعًا دقت في رأس طارق ناقوسًا، عاد به إلى ليلة ذاك الحادث!

رؤوف خرج يودع بهاء وزياد.. وسقطت أنا على مقعد بهاء إلى جوار عمي، كأنه لا مكان لنا سوى أن نكون معًا..

هو يحاول الهرب من قصته مع طارق.. وأنا أحاول الهرب من قصتي مع من كان يومًا شقيق أمي وحبيبها..

شعرت برأسي يسقط على كتفي.. كأنه لا يحتمل كل هذا التوتر والألم والحزن.. وضع عمي كفه على كفي الملقاة على ساقي، وقال في صوته المتقطع كأنه ينقذني وينقذ نفسه:

- شهيرة.. خذيني إلى غرفتي!!

* * * * *

مازال الزارع موجودًا فالزهر آتيك آتيك، وإن طال عن الحقول غيابه..

أنا الحقل ورؤوف زارعي.. بأصابعه عاد يزرع ضحكات، وينبت زهرات على روحي التي كسرها موت والدي..

عدت أبتسم رغم الانكسار.. وعدت أضحك رغم الوحدة.. أصبحنا أنا ورؤوف لا نفترق إلا في تلك الأيام التي أتوجه فيها إلى الجامعة لإلقاء المحاضرات..

نحن في الأحرار معًا نحقق نجاحات كبيرة، ونقيم سهرات ونُدعى إلى احتفالات حتى كدنا نصبح من نجوم المجتمع..

في البيت نحن معًا نلاعب ضياء ونتابع دروسه؛ حيث التحق بمدرسة الحرانية، وأصبح له هو الآخر صداقات وزيارات يتبادلها مع أصدقائه وصديقاته.

لم نفلح أنا ورؤوف في الإنجاب مرة أخرى.. وبعد إجراء كل الفحوصات الطبية، قررنا أن نترك الموضوع ليد القدر لتكتب هي الموعد وتختاره..

في نهايات الأسبوع، كنا نجتمع نحن وزياد وعزة وابنتاهما وأميمة وهدان التي تعلق بها رؤوف وعمي وللحق أقول وأنا أيضًا .. ما كان يؤلمني في وجود تلك اليتيمة الرقيقة سوى أنها تذكرني بسجن رؤوف .. لكن أحببناها واعتدنا أن نلتقي جميعًا إما في المنصورية أو في النوادي، أو في أحد بيوت عمي توفيق بالعين السخنة أو الساحل الشمالي..

حنان ولقاء.. ابنتا زياد وعزة كانتا تشعراني بأني أنجبت ثلاثة أطفال، وضياء كان كعادته يطلق على عزة أمه وزياد أباه..

كان رؤوف زارعي وكانت ذراعاه فأسًا ماهرًا يقلب تراب أحزاني، ويخرج من قلبه في كل يوم زهرة صفاء وحب ورضا..

بعد عام تقريبًا من رحيل والدي، أعلن طارق رغبته في الزواج من أخت صديق دراسته، وكانت المفاجأة أن العروس هي وردة ابنة خالي عثمان.

حاول عمي توفيق أن يرفض إكرامًا لمشاعري.. لكن أنا أخبرته أنني لا أبالي.

طارق ما عاد منا رغم زياراته المتقطعة لنا.. ورغم حضوره يومين أسبوعيًّا إلى شركة الأحرار.. إلا أنه أنشأ مزرعة كبيرة مناصفة مع خالي وابنه لتسمين العجول ومنتجات الألبان.. في أقل من عام آخر، كانت منتجاته تتصدر كل المحال الكبيرة، وتورِّد إلى فنادق مصر الكبرى ومنتجعاتها.. وأطلق على كل منتجاتها «الأحرار»!!

لم أذهب إلى حفل خطبة وردة وطارق.. لكن في الزفاف، كان يجب أن أفعل.. العريس شقيق زوجي والعروس ابنة خالي الوحيدة..

ذهبنا أنا ورؤوف وعمي توفيق كالغرباء.. وحده رؤوف كان يتنقل كفراشة حمقاء بين ذراعي طارق وبين المدعوين.

كنت أرتدي أغلى أثوابي الباريسية.. كنت أضع أغلى مجوهراتي وقطع الماس، التي أهداني إياها رؤوف وعمي توفيق.. اخترت يومها ثوبًا أسود كأنني لا أعرف كيف أذهب إلى خالي أو طارق بلون آخر.. كنت يوم زفاف طارق.. في قمة أنوثتي وجمالي.. كان ثوبي مكشوف الظهر عاري الصدر معلقًا حول عنقي بحبل من قطع اللؤلؤ البيضاء المذهبة، وكان باقي الثوب مشدودًا على جسدي.. كأنه يحتمي به ويهدهد كل قطعة فيه ويهدئها من لقائي بخالي وعائلته.. كان شعري مصففًا في عناية، ومكياجي أكثر جمالاً وبهاء من مكياج العروس نفسها.

كنت حقًّا أريد أن أبدو أكثر جمالاً وأناقة من العروس، وكل مدعُوِّي الحفل.. وقد كان..

لم يبق رأس أو عين لم تستدر نحوي.. كان الحفل كبيرًا والمدعوون قاربوا الألف مدعو.. وتقدمت في ثبات نحو خالي، أمد له كفي على بعد.. كأنني أخبره للمرة الثانية أنه لا حق له في عناقي أو تقبيلي..

زوجة خالي وحدها ضمتني إلى صدرها في حنان، كأنها تعتذر.. لكن هل يمحو الاعتذار طعنات القلوب الكبيرة!!

وردة أيضًا عانقتني وقد أصبحت شابة وعروسًا جميلة.. ضممتها إلى صدري في إشفاق كبير.. مسكينة وردة.. قد تدور بها الأيام وتكتوي هي الأخرى، كما اكتوت راوية ذات يوم..

أصبحت شابة وأرى في مستقبلها مع طارق رواية أخرى للألم.. أرى في صلابة إخوتها وجه أبيهم، وفي وجهها أرى وجه أمي رحمها الله..

أراهم يحرمونها هي الأخرى مال أبيها.. لكن طارق لن يكون أبدًا كوالدي..

أراها ممزقة بين زوجها وعائلتها.. الأيام تدور، وفي كل دورة لها قصة تعود وجراح تستيقظ وأبرياء يدفعون ثمن جرائم، لا يد لهم فيها أو حيلة.

ربما كان هذا هو العدل.. ربما كان هذا هو انتقام السماء لروح أمي وأبي.. طارق سيذيق وردة وأبناء خالي الأمرين!! وربما كان هذا هو أيضًا انتقام السماء لعمي توفيق، والشلل الذي مازال يتحرك به.. ربما كان هذا هو انتقام السماء لرؤوف ولأعوام سجنه وأعوام عطائه وحنانه على طارق..

إنه ليس زفافًا.. هو حفل لتوزيع الجوائز!!

رفعت رأسي في كبرياء.. ومددت ذراعي لأضع كفي على كف عمي توفيق في حنان.. أنا أعلم أن الرجل يتألم.. الرجل الذي زرع بداخل طفليه الألم، ربما دون قصد، يتألم، فيومًا كان كل شيء، وها هو اليوم يجلس إلى جواري مدعوًّا يرقب من منحهم وقتلوه في صمت..

رؤوف كان يتحرك في حنان كأنه يحاول أن يعلن أن طارق أخوه، وسيبقى رغم كل شيء يحبه حتى اللحظة الأخيرة في الحياة.

تبعت رؤوف بعيني وأغمضتهما في لهفة وسعادة.. أنا أيضًا نلت جائزتي.. منحني الله الكثير.. لم يمنحني ثراء وماسًا ومكانة اجتماعية فحسب.. لم يمنحني قامة أجلس بها أمام خالي وعائلته، وأنا أقوى منهم بعد أن ذهبت يومًا أستجديهم ما هو حق لي.. لكن منحني الله أيضًا حبًّا ورجلًا، هو قلعة وثروة، إن ضاعت الثروات وذابت الماسات كان هو بحنانه وحبه أغلى وأبقى وأجمل!!

أذكر في ليلة زفاف طارق تلك أنني ما كنت أرى خالي ولا أرى العروس ولا أسمع الموسيقى أو مطربي الحفل.. كانت عيني لا ترى سوى رؤوف، وهو يضمني ويراقصني، ثم تراه وهو يلتقط صورة لأخيه، أو يمسك ذراعي عمي توفيق لينهض به أو يعود به إلى مقعده..

إن السماء منحتني ما يجعلني أصفح عن الأرض وسكانها.. منحتني رؤوف عبد الجواد!!

لكن مازلت أذكر أنه رغم زهدي وقناعتي.. إلا أن شيئًا بداخلي بقي يتمنى لو أستطيع أن أسلب خالي شيئًا كما سلبني يومًا حقي.. ليس كافيًا أن يتم تعويضك أو انتصارك.. أحيانًا لا تهدأ إلا عندما تنتقم.

اقترب مني أحد السقاة يحمل بين يديه صندوقًا كبيرًا، ازدانت أطرافه بالشرائط الملونة.. وعندما انحنى أمامي، نظرت بداخل الصندوق لأجد قطع الحلوى والشيكولاتة تغفو إحداها جوار الأخرى.. رفعت وجهي أنظر إلى حاملها بوجهه الأسمر الضئيل.. رأيتني.. رأيت شهيرة منذ أعوام، وهي تحمل صندوق الحلوى ذاك إلى خالي عثمان..

إنها الأيام.. كنت في ضعف هذا الساقي.. كنت في ضآلته أحمل صندوق الحلوى لمن لا يستحق سوى قطع الحنظل والصبار.. ولكن أنا اليوم أجمل نساء الاحتفال وسيدة نسائه.

اليوم يشير خالي بأصابعه نحوي، عندما يسألونه عني قائلًا في زهو: هي ابنة أختي!!

قد أكون ابنة أخته.. لكنه ليس خالي وما كان..

تزوج طارق وردة وتم توزيع الجوائز والعقوبات، وشكرت حامل الحلوى في رقة، ورفعت يدي ألوح لرؤوف ليأتيني في لهفة يسألني ما أريد.. وعندما جلس على مقعده إلى جواري، وضعت رأسي على كتفه، وهمست في أذنيه رغم الصخب.. أخبرته أني به وأني معه أخذت من الأرض كل ما أريد!!

* * * * *

هل تعاقب السماء الأشرار وتدمرهم حقًّا؟!

هل لكل ظالم نهاية ولكل قاتل عقاب؟!

لا أعلم.. هكذا قالوا لنا.. وهكذا اعتدنا القول، لكن أنا اليوم أستطيع أن أجزم أن هذا ليس أبدًا قانون السماء..

طارق عبد الجواد أصبح في أقل من عام من أثرياء البلاد، وأصبحت منتجات أحراره بفضل علاقاته وذكائه الاجتماعي، هي الأولى في البلاد.. وحده بهاء يرفض أن يأكل أو يشتري أيا منها!!

خالي عثمان أصبح صديقنا اللدود، الذي يذكرنا بالزيارات والمخابرات الهاتفية كل حين وآخر..

بهاء مازال على ساقه الصناعية يتوكز، وعمي توفيق يبتلع خسارته وحرمانه من ذاك الذي كان يومًا أثير قلبه وروحه.

أنا ورغم سعادتي مازلت بين حين وآخر، أتمنى لو أعلم أن خالي سقط أو فقد ثروته، أو حتى أبكته الأيام كما أبكى أمي زمنًا وأبكاني..

للسماء قوانين أخرى لا نعرفها..

عزة الرقيقة الحانية التي تضم ابنتيها ووحيدي بعد أعوام اليتم.. وبعد سنوات العشق والعطاء لزياد مازالت بين سطور القصائد والروايات تحيا وتتنهد.. مازلت أرى في عينيها حسرة ولهفة وظمأ، كلما قبّل رؤوف وجنتي أمامها أو ضمني.. بقيت عزة رغم كل هذا الحب تتمنى لو يهمس زياد يومًا في أذنيها بكلمة حب، أو يمنحها شيئًا سوى نقوده واسمه.

للسماء قوانين أخرى لا نعرفها... لا نعرفها أبدا..

* * * * *

متى بدأت النهاية؟ لا أعلم بالتحديد.. متى بدأت نهاية قصتي؟ وفي أي يوم؟ لا أذكر..

مع إطلالة صيف هذا العام، ومن أعلى قمة التصاقي برؤوف.. وعند بداية محاولاتي للاستعداد لولادة وردة وزيارتها هي وزوجها بعد الولادة.. لا أذكر بالتحديد.. لكن لنقل منذ ثلاثة شهور تقريبًا بدأت نهاية قصتي..

رؤوف عكاز أيامي ولؤلؤة قلبي وروحي.. رؤوف عشق عمري ورفيق دربي ما عاد هو نفسه.. أصبح رجلًا آخر.. أصبح شيئًا آخر..

بدأت ألحظ عصبيته في شركة الأحرار.. بدأت أسمع صوته يعلو في عصبية، لم أرها يومًا أو أسمعها منه على كل موظفي الشركة وعلى ضياء، حتى مع والده، وعلى حبيبة أيامه.. شهيرة عبد الرحمن!!

في أوقات كثيرة كان يغلق باب مكتبه، حتى في وجهي أنا.. وفي إحدى المرات فتحت الباب عنوة ودخلت إليه، لأجده يضع رأسه بين كفيه ويبكي في صمت..

أذكر يومها أني شهقت في جنون، وركضت إليه ليرفع وجهه نحوي، ويصيح في غضب طالبًا مني أن أغادر لا المكتب بل الشركة، مادمت لا أحترم رغبته في الانفراد بنفسه..

لم يؤلمني صياحه.. لم تؤلمني كلماته وقسوتها.. أغلقت الباب خلفي، ووقفت أمامه بعد أن نهض عن مكتبه أسأله أن يصرخ أكثر.. أن يبكي أكثر.. سألته أن يفعل أي شيء.. وكل شيء يريد لكن على صدري..

كان ثائرًا ممزقًا ووجدتني أبكي في جنون، وهو يدفع ذراعي بعيدًا عنه كلما حاولت ضمه إلى صدري.. أفزعني أن يرفض عناقي.. ذبحني أن يصد رجائي وتوسلاتي وبكيت أكثر.. بكيت خوفًا عليه.. بكيت دمعًا ونزفت توسلات كثيرة.. لكنه أبدًا ما أخذني بين ذراعيه، وما تركني أضمه إلى صدري..

حينما رفضت الخروج من مكتبه انطلق كقذيفة مجنونة خارج المكتب تاركًا الشركة بأكملها، لأسقط وحدي على أحد المقاعد، وأنا مازلت أبكي في خوف وجنون..

كم بقيت يومها أبكي؟ دقائق ربما ساعات.. ولكن لو كان بكائي ذاك لحظة واحدة فقط، فقد كان أقسى وأمر من بكاء العمر كله.

أذكر يومها أنني وبعد أن هدأت دموعي قليلًا، جلست إلى مكتبه واستدعيت مسئول قسم حسابات الشركة، كما استدعيت رئيس شئونها القانونية.. خابرت كل الشركات والصيدليات الكبرى التي نتعامل معها.. نحن في قمة نجاحنا.. لا خسائر مادية ولا قضايا.. كل شيء في العمل كما أعرفه، وكما لم نحلم به يومًا من قبل..

حادثت بهاء يومها وأقسمت عليه بأغلظ الأيمان والأقسام.. أقسمت عليه بروح أبي أن يخبرني إن كان رؤوف مريضًا أو يعاني من أزمة ما.. بهاء أقسم بالله العظيم.. وبروح والدي الطاهرة أن رؤوف بخير.. لم يسألني بهاء لماذا أسأل.. لم أشعر حتى أني فاجأته، ولم أفهم لماذا كان صوته حزينا شجيًا لا قلق فيه أو فزع.. كان يهمني فقط أن أعلم أن رؤوف بخير!!

خابرت طارق وسألته في حدة عن رؤوف.. خشيت أن يكون شيء ما حدث بينهما.. لكن طارق هو الآخر أقسم أنه مطمئن على أحوال الشركة، فهو مشغول بمزرعة الأحرار وإنتاجها، وهو أيضًا مشغول بحمل وردة واقتراب موعد ولادتها.

طارق في نهاية المكالمة سألني في سخرية هل أقيم الدنيا وأقعدها لأن زوجي يبدو عصبيًا بعد سبعة أعوام تقريبًا من الزواج.. طارق قال إن الرومانسية التي أحيا فيها يجب أن تخفت نارها، وإنني يجب أن أعلم أن هناك لحظات بين الأزواج، تعلو فيها أصواتهم، دون أن يقيموا الدنيا أو يقعدوها!

من حديث طارق علمت أنه بعيد عن أزمة رؤوف.. من أوراق وموظفي الشركة علمت أنها بخير.. ومن حديث بهاء علمت أن رؤوف يتألم من شيء يجب أن أضع أصابعي وحدي عليه؛ لأن أصابعي وحدها فيها الترياق..

عدت ذاك اليوم إلى المنصورية، انتظرت عودة رؤوف طويلًا.. التقطت أصابعي هاتفي الصغير ألف مرة، وأعدته إلى مكانه دون أن أحادثه.. لا

أريد أبدًا أن أطارده أو أشعره بالألم على قلقي.. سأنتظر أن يتصل وحده أو يعود وحده.. أذكر أنه عاد بعد منتصف الليل.. كنت على الأريكة أنتظره، عندما شعرت بخطواته على سلالم البيت الداخلية.. سحبت من صدري أعمق أنفاسي ورسمت على وجهي ابتسامة، وتشاغلت بجهاز التليفزيون.. لا أريده أن يشعر أنني غاضبة مما حدث في الصباح.. أردت أن يشعر أن كل شيء طبيعي لا غضب فيه أو عتاب.. شعرت به يقف خلفي يرقبني، وعندما طال سكونه التفت أنظر خلفي.. كأني شعرت بشيء ما والتقت عينانا.. كان على البعد يرقبني في سكون، وصحت في مرح قائلة:

- أفزعتني.. متى عدت؟!

لم يجب.. بقي ساكنًا يرقبني.. نهضت عن مقعدي لأقف أمامه من جديد تمامًا كما وقفت ذاك الصباح في مكتبه.. الفارق الوحيد هو أنني لم أحاول ضمه، ولم أسأله عناقي..

تركت عينيّ تغوصان في عينيه العميقتين الواسعتين في حب.. أردت من عينيّ أن تخبراه أني أحبه وأني لست غاضبة مما فعله، وإن فعل أضعاف أضعافه.. رأيت دموع رؤوف تسقط على وجنتيه من جديد، وقال في حزن كبير:

- ضميني يا شهيرة.. ضميني إليك!!

مازلت أذكر مذاق ذاك العناق.. بل أنا أذكر تفاصيل كل لحظة بعد هذه اللحظة كأنها جميعها تحدث اللحظة..

كان يرتعد بين ذراعيّ كعصفور.. وكنت أضمه وأشعر أني أضم ضياء أو لقاء صغيرة عزة وصغيرتي أو أميمة ابنة أحب الرجال إليه .. كنت أغلق حول ظهره ذراعي بكل ما استطعت من قوة أن أخبره أني معه.. معه أيا كان ما يؤله.. أيا كان ما يبكيه معه أنا..

لا أدري لماذا كان كل رأسي في ذاك الوقت يرجح أن يكون رؤوف مريضًا أو يموت.. كنت في عناقي تلك اللحظة أخبره أنه إن كان مريضًا سيشفيه الله، من أجلي ومن أجل ضياء.. وإن كان يموت سأموت معه.. لكن رؤوف ما كان مريضا وما كان يموت، وما كنت أعلم حقيقة ما به، وما كان هو يعلم أني أنا من ستقتله..

وقف العصفور على صدري لحظات مرددًا اعتذارات كثيرة وكبيرة من خلف دمعاته.. كنت أضمه وأخبره أني أبدًا لست غاضبة مما فعله في الصباح، وكلما أقسمت له ألا شيء على الأرض يغضبني منه، زاد على صدري بكاؤه.. لم يتناول ليلتها أي شيء.. وعندما دخل إلى فراشه جواري، أخذته على صدري من جديد لكن ما أخذته أخذة ضياء.. أردت رؤوف أن يقبلني.. أن ينزف حزنه وغضبه وأله داخل جسدي.. كنت حقًّا أشتهيه.. أريده أن يقتحم أيضًا حزني وخوفي، ويسكب عليه قطرات طمأنينة وحنان.. حاولت أن ألتقط شفتيه لكنه ابتعد عن شفتي.. حاولت أن أتحسس جسده لأنثر حول وجهه أنفاسي الملهوفة الثائرة.. لكنه أغمض عينيه، وهز رأسه في ألم ثم ألقى برأسه على صدري ونام، أو هكذا ظننته فعل!!

* * * * *

عاد رؤوف يعمل في الأحرار.. لكن دون حماس.. عاد يضم عمي توفيق ويلاعب ضياء.. لكن دون روح.. عاد يدعوني إلى العشاء في دعوات العمل الرسمية.. عاد يخطط لإجازة الصيف ونزهات ضياء وابنتيْ عزة.. لكن في سكون مازالت له رائحة غيوم داكنة سوداء..

كان من الممكن أن أتقبل كل هذا وأسعد به كتحسن كبير، بعد زمن عصبيته وبكائه وانفراده بنفسه.. كان من الممكن حقًّا أن يسعدني كل هذا.. لكن شيئًا ما امتنع عنه رؤوف، كان يشعل في قلبي حريق دهشة وألم لا حدود لهما..

مضى على رؤوف أسابيع لم يلمس فيها جسدي، ولم يستسلم يومًا لقبلة أو عناق..

في بداية الأمر ظننته الألم والحزن، لكن ما كان يؤلمني أكثر ويحزنني أكثر أن أشتعل أنا بين ذراعيه شوقًا ورغبة ويغمض هو عينيه، ويهز رأسه كتلك الليلة، ثم يضعها على صدري وينام أو يتظاهر بالنوم..

في كل ليلة كنت أحاول.. وفي كل ليلة كنت أتحسس جسده في لهفة أكبر.. وفي كل ليلة كان يتركني أنام، دون حتى قبلة واحدة على شفتي.. بكيت ذاك الصباح على ذراعي عزة في جنون، بعد خروجي من الجامعة، وأخبرتها كل شيء.. لم أعد حقًّا أستطيع أن أحتمل جنون كل ليلة، دون حتى أن أتحدث عنه.. سألتني لم لا أصارحه وأسأله، وأخبرتها أنني أخشى أن يكون به مرض أو عجز ما، فيشعر بالألم إن أنا سألته.. ولكن ألا يشعر بالألم، وأنا أتلوى بين ذراعيه رغبة فيه وحيرة وخوفًا؟

بعد ساعات طويلة من النقاش والأسئلة والتخمينات، صاحت عزة تطلب مني أن أصطحب رؤوف وحدنا إلى بيت الجزيرة بعيدًا عن كل شيء.. أخبرتها في ألم أنني طلبت منه الذهاب هناك ألف ألف مرة، لكنه دومًا يرفض ويختلق الأعذار.. عادت المسكينة تخبرني عن انتهاء تجهيز فيلا عمي توفيق بمنتجع هاسيندا، واقترحت أن أصطحبه وحدنا إليها في نهاية الأسبوع تاركة ضياء عندها، وأخبرتها أن فيلا هاسيندا تم تجهيزها؛ لتذهب هي وزياد إليها الأسبوع القادم، وأن عملاء من شركة أجنبية سيحضرون إلى القاهرة في هذا الأسبوع للقاء رؤوف؛ مما يتعذر به ومعه سفرنا نحن.

في نهاية لقائي بعزة، تم الاتفاق على أن تأخذ هي ضياء معها وتسافر إلى هاسيندا لقضاء أسبوع أتفرغ فيه أنا لرؤوف، وأحاول إما مصارحته أو اصطحابه إلى الطبيب النفسي، الذي تزوره عزة من وقت لآخر..

أخبرت رؤوف بسفر ضياء مع عزة وبناتها وزياد، وتنهد في ارتياح كأنه بحاجة إلى ابتعاد ضياء..

سافرت عزة وضياء وابنتاها، وذهب زياد معهم لقضاء ليلة، يعود بعدها لمتابعة شئون الصيدلية، وبقيت وحدي في المنزل، أعد كل ما أقوله وما أفعله مع رؤوف؛ حتى أصل إلى نهاية لكل ذاك الخوف والألم..

كم مرة رددت على نفسي أنه يجب أن أتحدث في القصة مباشرة بلا خجل أو حياء.. لن أنتظر حتى أصبح بين ذراعيه، ويصدني ثم يسقط وحده في النوم، وأبقى وحدي على جمر الحيرة، أبحث عن أسباب ما حدث.. ولكن كيف أسأل رؤوف وماذا أسأله.. عزة لم تصدقني عندما أخبرتها أنني أبدًا لا أستطيع أن أسأله إن كان يعاني من مرض جنسي، يمنعه عني، أو كما قالت في أحد تخميناتها إنه يخشى انتقال المرض إليّ.

لم تصدق أبدًا أنني أخجل من إدارة حديث كهذا بيني وبينه..

أذكر ليلتها أيضًا أنني فكرت في اقتراح عزة باستثارة رؤوف بكل الطرق التي تفعلها النساء.. مسكينة عزة ومسكينة كل امرأة تخلع ملابسها وترقص عارية أمام رجل لاستثارته.. الجنس لا يُستجدى!!

في كل أعوام زواجنا، وفي كل لقاءاتنا الهادئة والمحمومة لم يستثر أحدنا الآخر.. لم يسع أحدنا أبدًا إلى استنفار جسد الآخر وتحريك أعضائه.

أنا ورؤوف نلتقي لأننا فقط نريد أن يذوب أحدنا في الآخر..

لم نمارس الجنس يومًا لأننا نريده.. نحن نحيا الجنس؛ لأنه هو من يريدنا..

لن أغويه ولا أريده حتى أن يضاجعني رغمًا عنه.. أنا كل ما أريده رغم شوقي أن أطمئن أنه بخير، وأنه مازال حقًّا يهواني ولم يزهدني أو يملني!!

عاد رؤوف وتحدثنا كثيرًا وطويلًا عن وصول عزة إلى هاسيندا.. عن سعادتهم جميعًا بالبحر والشاطئ.. تحدثنا عن عمي توفيق وأهمية أن نصطحبه معنا عند عودة عزة إلى الساحل الشمالي لقضاء يومين هناك.. تحادثنا عن كل شيء إلا الشيء الكبير، الذي يشغل رأسي وينهش لحمي وعظامي..

عندما دخلنا إلى فراشنا رميت رأسي على صدر رؤوف، وأنا أحاول ألا أحاول معه شيئًا.. لكن ما إن طوقني بذراعيه حتى شعرت بجسدي يتحرك بريده، ورأسي يتحرك هو الآخر بريده.. يريد أن تهدأ ظنونه ومخاوفه، وانكمشت بين ذراعي رؤوف هامسة أنني أحبه وأنني أشتاقه.. وأطلق رؤوف تنهيدة كبيرة من صدره وضغطني إلى صدره وجسده، وانطلقت شفتاي تقبل صدره وذراعيه في حنان وهدوء، تعالت صيحات أنفاسي واقتربت بشفتي من شفتيه كأني أرجوه ألا يبتعد عنهما.. لكن رؤوف عاد يضمني إلى صدره كأنه يهرب من لقاء الشفاه، وابتلعت أنفاسي في ألم كبير.. في لحظة شعرت به يغفو لحظات كأنه غاب، وقررت أن أنسى وأغفو على صدره، وفي لحظة أخرى قررت ألا أفعل.. إن فعلت سأبقى الغد كله أسأل وأفكر وأتألم.. وبكفي دفعت جسد رؤوف عني برفق، وفتح عينيه لأمسك بوجهه بين كفيّ، نظرت إلى عينيه وقلت في صوت خفيض، وهو ينتفض:

- رؤوف.. اشتقت اليك..

رأيته يغمض عينيه في الألم ذاته الذي أراه فيهما كل يوم وكل ليلة.. شعرت بدمعة تسقط من عيني، وشعرت أنني حقًّا أنهار وأتمزق، وعدت أقول:

- رؤوف.. قبلني.. أرجوك..

ضمني رؤوف إلى صدره في لهفة، وسمعته يهمس في جنون:

- شهيرة.. أنا أحبك..

عدت أبتعد عن صدره، ودمعات كثيرة تسقط على وجهي، وأنا أعيد:

- قبلني أرجوك..

رأيت في عينيه أطياف ألم وخوف.. رأيت تلك الشهوة التي أعرفها وذاك الحب الذي اعتدته.. رأيت أشياءً كثيرةً كلها تتزاحم.. كلها تتجمع وتفترق تصرخ وتهدأ، ولم أستطع أن أقاوم نفسي.. اقتربت بشفتي من وجه رؤوف.. ووضعت عليه قبلات صغيرة، كأني بشفتي أتحسس كل قطعة في وجهه.. كأني أسألها.. و بنفسي أذكرها، أحاول أن أستردها، وشعرت بأنفاس رؤوف تشتعل.. شعرت به يقاوم ويحاول أن يبتعد، كلما حاول أن يهدأ اشتعلت أنا أكثر وحاولت إشعاله..

لماذا يبتعد؟! لماذا يقاوم؟!

في اللحظة التي اقتربت فيها من جديد من شفتيه، رأيته ينظر في عيني في جنون.. كأنه يسألني.. كأنه هو من يستجديني، أخذت شفتيه والتقط رؤوف شفتي بجنون، وانطلق يقبلني في قوة كأنه يستغيث.. كأنه يومًا لم يقبلني من قبل..

كانت تلك القبلة غير قبلاتنا كلها.. كان بها شيء مختلف.. شيء اختلطت فيه كل الأشياء.. شوق ورغبة وألم بلا حدود.. كانت قبلة سقط فيها دمعي وشعرت بدمع رؤوف يختلط به، ويتسلل إلى شفتي.. ورغم هذا لم أغادر شفتيه.. لم أستطع حتى أن أسأله إن كنت أنا أبكي من حيرتي وشوقي وخوفي، فما عساه يبكيه هو ؟!

كنت أحاول أن أتكور لأصبح مجرد شفاه.. أتقلص ليبتلعني، ثم أغوص في دمه علّني أعلم ما الذي يبكيه، أو لماذا يبكيني وتبكيني شفتاه!

كان يتحسس جسدي وشفتي ويأكلهما، ويضمهما ويبكي بين ذراعيّ، وسمعتني كأن امرأة أخرى بداخلي قررت أن تتحدث.. أن تقول ما لم أقله يومًا.. سمعت صوتي، يخرج من شفتي المقيدتين بين شفتيه يقول في استجداء:

- اشتقت إليك.. كثيرًا..

ابتعد عن شفتي المقيدة كأنه يحاول أن يلتقط أنفاسه.. كأنه يحاول أن يفهم ما الذي أقول.. ونفضت أنا رأسي هذه المرة وهززته في عنف.. خشيت أن يتركني.. خشيت ألا يعود إليهما.. عدت أضمه بين ذراعيّ، وسقط رؤوف.. سقط وهو يهمس باسمي عشرات المرات.. كان يتحسس جسدي ويخلع عني قميصي.. وفي لحظة اقتحمني وانتفضت أبكي.. وأنا أضمه إلى جسدي كما لم أفعل حتى بعد خروجه من السجن.. كنت أفتح عيني وأنظر إليه.. كنت أرى دمعات كثيفة تسقط من عينيه.. كنت أسمع بكائي وأردد أني اشتقت إليه.. كما لم أفعل يومًا.. كم طال ذاك اللقاء؟ لا أعلم.. ما أعلمه أنه كان غير كل مرة.. وغير كل لقاء.. ما أعلمه أنه كان لقاء عاصفًا حانيا مجنونًا وحزينا محمومًا.. وأيضًا كان لقاء لم يكتمل.

غادرني رؤوف.. غادرني ثم أجهش في بكاء حاد مجنون، أفاقني ولطم وجه فرحتي، وفتحت عيني في ذهول، أحاول أن أستعيد نفسي ورأسي.. أخذته على صدري العاري، وشعرت به يرتجف كيمامة قطعوا رأسها، وقلت في جنون:

- رؤوف.. ما الذي يحدث؟!

كان يبكي على صدري في جنون، وعدت أستجديه أن يتحدث.. أن يفعل شيئًا، وليتني ما فعلت وليته ما قال..

ابتعد عن صدري وهو مازال يبكي، وأسرعت أغادر فراشي بجسدي العاري وأنا حتى لا أعلم أو أذكر كيف ومتى أصبح عاريًا.. رأيته يلتقط قطعة من ملابسه، محاولًا أن يرتديها وأمسكت بكفه، وأخذت أستجديه أن يرحمني.. أن يخبرني ما الذي يدور..

ماذا قال بالتحديد.. لا أنسى حرفًا مما قال.. رغم أنني بقيت دقائق لا أفهم حرفًا من كل الحروف، التي قالها كأنه لا يعي ما يقول..

قال وهو يبكي:

- شهيرة.. لا أستطيع.. أنا ضاجعت امرأة أخرى.. أنا ملوث.. ملوث بالخيانة.

كان لحظتها يجلس على حافة الفراش، وأنا أقف أمامه في ذهول.. لا أفهم لكني سقطت على ركبتي أسفل الفراش.. أسفل قدميه.. ورفعت ذراعي أطلق بكفي سراح وجهه من بين كفيه، وعدت أسأل في هدوء قائلة:

- اهدأ.. اهدأ قليلًا.. أي شيء تقول؟ أي امرأة؟ رؤوف .

انطلق يتحدث ويحكي.. أخبرني أنه ومنذ أسابيع التقاها.. أخبرني أنها حادثته.. أخبرني أنها طلبت لقاءه لشيء هام.. أخبرني أنه قاوم كثيرًا.. لكنها أبدًا ما أوحت إليه بحب أو شوق.. أخبرني أنها أخبرته أنها تعلم أنه زوج، وأنه عاشق لزوجته، وهي أيضًا زوجة وأم.. لكنها تريد أن تسأله معروفًا..

أخبرني أنه لم يستطع أن يقاوم رغبته في رؤيتها.. أقسم، وهو يبكي، أنه كان يريدها أن تراه سعيدًا قويًا، وأنه حقًّا كان يريد أن يقدم لها الخدمة التي ادّعت حاجتها لها.. قال إنه أراد أن يخبرني بل فكر في دعوتها إلى المكتب أو البيت.. لكنها طلبت منه أن يلقاها في بيت والدها.. كان يبكي، وهو ينظر في وجهي، يسألني هل يشك إنسان على الأرض في نوايا امرأة تدعوه إلى بيت والدها؟ أخبرني أنه ذهب وأنها وحدها كانت هناك.. أخبرني أنها كانت تعاني من أزمة.. لكنها ليست أزمة مادية.. كان في كل لحظة ينتظر ظهور أحد والديها..

كان رؤوف يحدق في الفراغ كأنه يرى ويستعيد كل ما حدث؛ وأخذ يصيح في جنون أنه حقًّا لا يعلم كيف وفي تلك اللحظة حدث كل شيء..

كنت أنا أسمع ولا أسمع.. كنت معه أشعر أنني أرى ولا أتخيل.

وعاد يقول إنه أفاق على بكائها كأنها هي الأخرى غابت معه عن الوعي..

أخبرني أنه يكتوي منذ تلك اللحظة، ويتمنى لو يحرق جسده قطعة قطعة.. أخبرني أنه يحبني.. لكنه يشعر أنه ملوث، وأن جسده تلوث؛ لهذا لا يستطع أن يلمسني لأنه يخشى أن يدنسني ويلوثني..

نهض بي رؤوف وضمني إلى صدره، وهو يبكي من جديد قائلًا:

- شهيرة.. هل يمكن أن أنسى؟ هل يمكن أن تنسي؟.. أنا أتعذب.. هي الأخرى لابد أنها تتعذب.. لكن عذابي أنا أكبر..

في هدوء، ابتعدت عن صدر رؤوف، خطوت نحو خزانة ملابسي حيث التقطت قميصًا وبنطلونًا، وأرخيت عيني أنظر في قاع خزانتي، ثم انحنيت ألتقط أول حذاء رأيته.. شعرت بدمعات كثيفة تسقط من عيني في هدوء..

كنت عارية وكل ما كنت أفكر فيه هو أن أخبئ جسدي عن عيني رؤوف.. شعرت في لحظة أن هذا الرجل الذي كان يتجول في جسدي منذ دقائق غريب لا أعرفه.. غريب لا أريده أن يرى قطعة من جسدي.. استدرت وملابسي بين يدي أخطو نحو حمام غرفتنا، ورأيته يقف بعيدًا وقد هدأ وسكت دمعه كأنه يفيق.. كأنه لا يصدق أنه قال وفعل كل ما كان.. لم يكن رؤوف ينظر نحوي لكن أنا كنت أملأ عيني منه كأنني أحاول أن أعرف من هو وكيف أحببته يومًا إلى هذا الحد! قبل أن أستدير، وقفت عيني على فراشنا لحظة.. ورأيتني بين ذراعيه أنتفض منذ لحظات.. رأيتني وأنا أتمنى لو أبتلع رؤوف بأكمله، وأسكنه قلبي ورحمي.. لكن كان هذا منذ لحظات.. ابتسمت في مرارة كأني أودع فراشنا..

حقًّا على هذه القطعة الصغيرة إما يولد الحب أو يموت!!

* * * * *

عندما عدت إلى الغرفة بعد أن ارتديت ملابسي.. كان رؤوف مازال في صمته وذهوله، دخلت أبحث عن حقيبة يدي ومفاتيحي التي التقطتها، وقبل أن أغادر الغرفة اقترب مني رؤوف رافعًا كفه، كأنه يحاول أن يقترب به من وجهي واتسعت عيناي في جنون.. هل يجرؤ حقًّا أن يلمس وجهي؟ أرخى ذراعه وقال كأنه يئن:

- هل تتركينني؟! هل حقًّا تتركينني؟!

نظرت إليه في ألم.. هل يظنني أقوى على فراقه؟ وهل حقًّا يظنني أملك إلا الرحيل؟! قبل أن أغادر غرفة المنصورية، عاد يقول للمرة الأخيرة:

- شهيرة..

استدرت أنظر إليه، وقلت كأني أتوسل إليه:

يقف بيني وبينك سؤال.. بيني وبينك سؤال لو تعرف إجابته.. لو تجد له إجابة.. أبقى.. إن أجبته أخلع ملابسي، وأنثني على ركبتي، وأقبل قدميك وأرجوك أن تأخذني من جديد.. سؤال إن عرفت إجابته أبقى.. أبقى العمر كأن شيئًا ما كان.

برقت عينا رؤوف رغم الحزن.. رغم الألم برقت، وهو ينظر في عيني بشيء كالأمل، ونظرت في عينيه أسأله:

- لماذا؟!!

* * * * *

فتحت بيت أبي المهجور ودخلت.. لم أذهب إلى غرفتي.. ولم أسقط على أحد مقاعد صالة البيت.. توجهت في هدوء إلى غرفة والدي، وجلست على فراشه أتحسس مكان نومه ومكان نوم أمي..

لماذا لم يخن أبي أمي يومًا؟!.. لماذا خانني رؤوف؟! ولماذا يخون الرجال النساء؟!

كان ضعيفًا.. أبدًا.. رؤوف لم يهزمه الظلم ولا السجن حتى في يوم عودته إلى البيت، بعد غياب الأعوام، لم يسقط أمام مرض والده، ولم يسقط حتى أمام حرماني وحرمانه.. بقي أيامًا يداوي ويعد للقائنا..

كان محرومًا.. أبدًا.. في كل ليلة كنت أتناثر حول جسده وتحت قدميه..

لأنه يحبها! لكن أنا حبه الكبير..

لأنه لا مبدأ له ولا شرف.. أبدًا ما أشقى رؤوف وأشقاني سوى مبادئه وشرفه..

لماذا؟! لأني لا أستحق أن يكون لي وحدي؟!

أنا جميلة شابة.. في زفاف أخيه استدارت لي الرؤوس، وشهق الرجال.. أنا أعمل في شركة أبيه في تفان وإخلاص عبيد العصور الوسطى.. أنا أستاذة في الجامعة.. ورغم هذا أقف أمامه كتلميذة تستمد منه العلم والحياة..

لماذا خانني رؤوف؟ لأنني لا أستحق الوفاء..

تركني السجين بين ألف رجل.. منهم من هو أكثر منه وسامة وجاهًا وما سقطت يومًا.. بقيت أحمله في رأسي وعلى صدري وفي قلبي كل لحظة.. لم أسقط أمام من لهثوا خلفي، فكيف سقط هو أمام من هجرته؟ وبعد مكالمة هاتفية واحدة منها ركض يلقاها ويمنحها جسدًا أصبح لي.. جسدًا طبعت على كل قطعة فيه قبلة.. وكتبت على كل شبر منه قصيدة عشق ووفاء.

كنت أنظر إلى فراش أبي من خلف دموعي، التي تسيل على وجهي في سخاء وحزن، ولا شيء في رأسي سوى لماذا.. لماذا خانني؟!

هل ظنها تحبه أكثر مني؟ هل ظنها تمتعه أكثر مني؟ هل ظن أنه معها سيصبح أكثر رجولة وفحولة؟! لماذا؟! ألف مرة قلتها.. وألف مرة صرخت بها وأنا أنظر إلى فراش أبي كأنني أستجديه أن يظهر عليه ويجيبني.. وحده مدحت عبد الرحمن يملك الأجوبة.. وحده كان يسمع ويهدهد وينير الظلمات بحكمته.. بحنانه وبنقائه.

أنا على فراش أبي بقيت ساعات أسأل لماذا؟

حين علمت أنه لا رؤوف ولا أنا يومًا سنجد الإجابة.. وجدتني أفكر ماذا أفعل؟!

أبقى هنا.. في بيت الطهارة.. لكن بيت توفيق عبد الجواد طاهر.. أنا المدنسة.. أنا الملوثة.. انتفضت من على فراش والدي في جنون.. لا أريد أن ألمسه بجسدي الذي لوثه رؤوف ودنسه..

لو تحممت بحمم من نار لن أتطهر.. لو اغتسلت في نهر من أنهار الجنة لن أتطهر..

هل أبقى هنا وأعود إلى صيدليتي وجامعتي، وأحيا مع ضياء وأطوي صفحة رؤوف وأنساه؟!

هل أنكس رأسي كما فعلت وأنا أغادر بيت خالي مسلوبة الحق، مدعية أنني أترفع عن المطالبة بحقي الذي فرضه لي الله في مال أمي، وأبيها؟!

هل أموت مثلما ماتت أمي وهي تشتهي أن يتفضل عليها سارقها بإحسان من مالها؟!

هل أنكس رأسي وأبقى وحدي هنا، كما ترك بهاء زوجته.. لكن زوجة بهاء لم تخنه.. زوجة بهاء هجرته.. لو أن رؤوف هجرني.. لو أنه تركني وذهب إليها يتزوجها لكان في ذاك عزة له ولي..

خانني رؤوف ولا أعلم لماذا؟!

صرخت وبكيت.. تكسرت وتكورت.. انصهرت دمعًا ساعات طويلة، سقطت بعدها أسفل فراش والدي في سكون وغبت، ولم أفق إلا بعد

ساعات فتحت عيني لأرى كل ما حدث يحدث أمامها من جديد.. اشتعلت النار في رأسي وجسدي من جديد..

نهضت واغتسلت.. نزعت عني ملابسي، التي خرجت بها من بيت رؤوف ومزقتها في جنون، ارتديت أحد قمصان نوم أمي رحمها الله، التي احتفظت بها، رغم الأعوام، وبقيت في فراش غرفتي أحدق في اللاشيء..

رأسي يشتعل.. عروقي تنتفض.. لماذا يخون الرجال؟ ولماذا تخون النساء؟ ولماذا يعودون.. كأن شيئًا ما كان يطلبون الصفح والنسيان؟! كانت حرائق سوداء تشتعل في رأسي وقلبي.. كلما بكيت.. كلما سألت وكلما عجزت عن الإجابة، اشتعلت الحرائق أكثر وتعالت غيومها السوداء في عيني..

كانت الشمس تكاد تغيب، عندما سمعت جرس الباب يدق، وانتفض جسدي.. لابد أنه رؤوف.. أسرعت أغادر غرفتي.. سأفتح الباب وأمزقه قطعًا صغيرة بين أظافري.. بالأمس كنت شاردة.. لكن اليوم أنا رأيت كل شيء.. كل شيء..

يستحق القتل.. أليس هذا هو حكم الله؟!

ركضت إلى الباب وعندما فتحته أطل وجه بهاء.. أشحت بوجهي بعيدًا وأنا أتذكر ذاك اليوم الذي خابرته ولم يفاجئه سؤالي..

ابتعدت عن الباب، وسمعته يدخل، ويغلقه خلفي في سكون.. بعد لحظات، استدرت أنظر إلى وجهه لأراه يغمض عينيه في ألم، ثم قال:

- أعلم ويعلم رؤوف أن الصفح مستحيل.. ألم أقل لك يومًا إن هناك أشياء لا تغتفر؟ شهيرة.. هل أنت بخير؟!

صرخت في جنون.. أطلقت آهة كبيرة جريحة، لم أعلم كيف خرجت من صدري، وكيف علا صوتها حتى كدت أضع يدي على شفتي.. وبكيت.. بكيت من جديد في ضعف.. في جنون.. في ذهول، وعندما لم أجد ما أقوله، عدت أقول:

- لماذا؟ لماذا يا بهاء؟! لماذا؟ لماذا يخون؟! ألم تخبره كم أحبه إن لم يكن يرى أو يشعر؟ ألم تخبره كم اشتقته ورغم هذا انتظرته؟! ألا يعلم؟ ألا يشعر؟ كيف لم أر أنه بلا قلب أو عين؟

- لماذا؟! سبب واحد يهدئني.. سبب واحد قد يجعلني بخير.. أنا لست بخير ولن أكون.. امنحني سببًا واحدًا..

عدت أجهش بالبكاء من جديد وأنا أسقط على أحد المقاعد، وتقدم بهاء نحوي وسمعت صوته يبكي قائلًا:

- لحظة.. لحظة يا شهيرة.. لا تدعي لحظة تغتال عمرًا وحبًّا وقصة، ما صدقت يومًا أنها واقع.. لحظة يا شهيرة.. ألا ننسى لحظة وننسى الأعوام؟ لحظة واحدة..

رفعت رأسي، أنظر إليه في جنون، وأنا أصيح:

- في لحظة واحدة يحدث القتل.. في لحظة واحدة يتحول المؤمن كافرًا.. وبعد أن كانت الجنة مصيره يصبح الجحيم مثواه.. في لحظة واحدة نتحول من أتقياء إلى ظلمة.. هناك لحظات ليست كاللحظات..

وعاد بهاء يقول بصوته الباكي كأنه يتوسل إليّ:

- وهناك قصص ليست كالقصص.. هناك رجال ليسوا كالرجال ونساء ليست كالنساء.. هؤلاء أقوى من اللحظة.. هؤلاء هم من يتجاوزونها ويعبرونها ويعودون إلى الشاطئ.. عودي به.. عودي معه.. لا رؤوف كالرجال ولا أنت كالنساء..

كان توسل بهاء يثير غضبي.. كان دمعه يحرق عروقي ويلهب جرحي.. وعدت أصرخ في وجهه قائلة:

- سأقتص منه.. سأقتص منه يا بهاء.. السن بالسن والعين بالعين.. أليس هذا هو حكم الله تعالى؟ ألم يقل في كتابه العزيز: الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى؟ لوثني رؤوف وسألوثه..

لم أكن أعي ما أقول ولم أكن حتى أعنيه.. لكن كانت بداخلي ذبيحة تشعل النار وتجمع الحطب لإشعال المزيد.. كان بداخلي كسيرة كسيحة تحاول النهوض ولو على أشلاء بقاياها.. أنا مثل بهاء.. سمعتها تصرخ وهي تقسم أنها ستقتص وتثأر.. سمعتها تكمل قائلة:

لأني لست كالنساء، سأقتص منه.. لأني لست كالنساء، لن أدلي عنقي المقطوع وأدّعي الألوهية.. لن أفعل.. كما خانني دون سبب سأخونه، عندي لخيانته ألف سبب.. خديعة وهجر.. حيرة ودمع مسفوح على خائن.. بهاء.. كما خان سأخون..

أمسك بهاء بذراعيّ في جنون وهو يصيح:

- شهيرة.. هل تقتلين نفسك؟ أنت حتى لا تملكينها.
وصحت في غضب قائلة:
- لا هو يملكها..
وعاد بهاء يقول:
- الله يملكها.. صغيرك يملكها.. والدك يملكها.. هل ترتضينها لمدحت عبد الرحمن؟
عدت أصرخ وأنا أنفض ذراعيّ في قسوة؛ حتى شعرت ببهاء يتأرجح، ويكاد يفقد توازنه، قائلة:
- من أجل ضياء سأفعل.. من أجل مدحت عبد الرحمن سأفعلها..
أخبرني والدي يومًا قصة عمر بن الخطاب الذي أحضر عمرو بن العاص وولده ووقف بهما أمام القبطي الفقير ليقول له : اضرب ابن عمرو بن العاص كما ضربك.. علمني أن الإنسان يجب أن يقتص.. يجب أن يثأر.. علمني العدل.. العدل هو أن أفعلها.. من أجل والدي سأفعلها..
وبكى بهاء قائلًا:
- مدحت عبد الرحمن لم يقتص يومًا ممن ظلموه.. ما ذنبه؟! ترفع أبوكِ عن الحقد من أجلك.. من أجل ضياء.. ضياء يا شهيرة.
عدت أصرخ من جديد قائلة:
- لا أريد لابني أمًّا ضعيفة بلهاء.. يُغتصب مالها فتسكت.. ويُلوث جسدها فتصمت.. من أجل والدي سأفعل.. من أجل الرجل الذي علمني العدل سأفعل.. من أجل الرجل الذي سلّمني له طاهرة فلوثني سأفعل..
جلس بهاء على أحد المقاعد، وأخذ يتحدث بصوت خفيض، كأنه يحادث نفسه قائلًا:
- شهيرة.. لن تقتلي رؤوف فهو شبه ميت ولكن لا تقتليني أنا.. لا توجهي رصاصاتك إلى القبور.. لا تقتلي نفسك يا شهيرة.. اهدئي.. يجب أن تهدئي.. هي قصة أخرى لو تعلمين.. هي أيضًا مسكينة.
نظرت إليه في جنون.. عن عشيقة رؤوف يتحدث.. معه ومعها يتعاطف.. وزاد جنوني ونيران قلبي..
كنت كالمذبوحة.. كنت كالمجنونة.. لا أصدق ما أسمعه.. كنت أنظر إلى بهاء، وكل ما أفكر فيه هو فحيح صوتي، الذي يخرج من صدري كخيوط دخان، يحرق عيني فتتقد بالحقد أكثر، ويوقد صدري فيشتعل بالجنون والألم والشعور بالمهانة والذل..
لم يبق بهاء كثيرًا.. شعرت به يتلوى على مقعده.. شعرت به يود الركض إلى خارج البيت.. شعرت به يريد أن يخبر رؤوف بما سمع.. وزاد شعوري هذا في جنوني.. عندما نهض بهاء شعرت أنه هو الآخر خائن.. لا أحبني ولا أحب والدي يومًا.. هو فقط عبد لرؤوف كما قال يومًا.. ووقفت أنظر إليه في غضب.. أتمنى لو أدفعه خارج البيت وأراه يسقط ويتكور فوق ساقه المبتورة..
كانت المجنونة بداخلي بدأت تمسك بكل أطراف خيوط عقلي، وكانت حرائقها أكبر من إنسانيتي القديمة، التي كرهتها لأنها وحدها جعلت مني امرأة بلهاء تمنح الحب، وتتلقى الغدر والطعنات.
بهاء هو خالي.. هو طارق.. هو رؤوف..
قبل أن يصل بهاء إلى الباب، استدار ينظر في عيني كأنه يتفحصها.. وقال كأنه يرجوني من جديد:
- شهيرة.. ورحمة من أحببناه اذكري الله كثيرًا..
بكل الغضب.. بكل الألم.. أسرعت أفتح له الباب، وأنا أقول:
- كلما ذكرت الله تذكرت عدله.. تذكرت قصاصه.. أخبر سيدك هو وعشيقته أني سأقتص منه..
خرج بهاء وبقيت وحدي أدور في بيتنا الصغير كنحلة مجنونة.. ما الذي قلت؟ ومن أين أتيت به؟ لماذا قلته؟ وما الذي أنتظره؟!
كانت المجنونة بداخلي توقد حرائق أكثر وتلقي بألف قطعة من الحطب وأنا أستنشق الدخان الأسود في استسلام كبير..
خانني رؤوف.. هل يمكن أن أنسى حقًّا وأعود إليه؟! هل يمكن أن أتركه يتجول في جسدي، وبين ثنايا شعري كما كان من قبل؟!
هل أءتمنه؟.. هل أصدقه.. هل أصدق آهاته وهمساته؟ وهل يصبح لهما المذاق نفسه الذي كان؟! أبدًا.. ضاع كل شيء..

هل أبقى هنا وحدي أكتوي بالذل والعار، دون حتى أن أثأر لنفسي مرة واحدة؟

إن أنا لم أثأر من خالي، فقد كان لأن النقود ما كانت يومًا في جيبي، ولم أشعر بحلاوة مذاقها..

إن أنا لم أثأر من طارق، فأنا لم أفعل لأن مخالبه ما طالتني، وما كنت بحبه يومًا أتدفأ قبلها..

لكن رؤوف كان لي.. كنت له.. أضاعني.. ذبحني.. فهل أقف كالمسمار؟

نحن في وطن لا شريعة فيه.. نحن على أرض يحكمها قانون أخرق لا يعلم ولا يشعر بما أشعر به.. شرع الله حكمه قتل رؤوف، وشرع البشر حكمه الصفح عن رؤوف لأنه رجل..

لأنه رجل فهي دائمًا نزوة.. لأنه رجل يجب أن ننسى ونصفح ونغفر.. من قال إن الرجل غير المرأة.. القرآن؟! العقل؟! المنطق؟! أبدًا كما ذكر الله الرجل في قرآنه ذكر المرأة.. كما أثابها أثابه وكما عاقبها عاقبه.. لم يقل الله يومًا الزانية تموت والزاني نمنحه فرصة أخرى..

الله ساوى بين الرجل والمرأة.. نحن فقط من جعلنا منهما جنسًا قويًا، وآخر ضعيفًا.. عندما يخون القوي نطلب من الضعيف النسيان والصفح.. لماذا أصفح عن رؤوف؟ لأنه رجل؟!

لأنها كما قال بهاء «لحظة».. أنا لا أملك أن أنفذ شرع الخالق، وأيضًا لا أملك أن أستسلم لشرع البشر..

كما خانني سأخونه.. من يدري؟ ربما كانت الخيانة متعة.. ربما كان الجسد المسروق أحلى.. لو كانت الخيانة مرة، ما امتلأت البيوت بالخائنين والخائنات.

لو كانت الخيانة مُرة ما تركوا شرع السماء ووضعوا قوانين مخففة.. ما سخروا وابتسموا إن صاحت امرأة تتألم من خيانة زوجها، وقالوا لها: اغفري.. إنها لحظة..

كل شيء في رأسي تحول وتبدل.. أنا لن أهدأ إلا بعد أن أعيش اللحظة.

نظرت حولي في جنون.. بهاء سيخبر رؤوف.. رأيتها في عينيه.. في خطواته المترنحة.. في تعجله الرحيل.. إن عاد به سأبكي كما بكى في مرارة وأرفع رأسي في كبرياء، وأخبره أنا أيضًا أنها كانت لحظة!! ولكن مع من أعيشها؟ مع من؟!

لا حب قديم في حياتي.. الخائن كان حبي الأول والأخير!!

نسيت كل شيء.. نسيت حتى أن أشرب قطرات ماء.. كل ما كنت أفكر فيه هو ألا خلاص أمامي سوى الثأر، ولا ثأر سوى أن أفعل ما فعله، وأن أحيا اللحظة.. الخلاص والنجاة من كل ما أنا فيه في الثأر وحده!!

* * * * *

في التاسعة دق هاتفي الصغير، وبرقت عيناي في جنون، وأنا أنظر إلى من جاء يطلبني.. برقت عيناي وانتفضت عروقي وقالت المجنونة التي تسكنني إن السماء معي.. نعم السماء دبرت كل شيء.. السماء تريد تحقيق العدالة، وها هي ترسل لي من أحققها به..

زياد على الهاتف!!

فتحت الخط وقلت: «أهلا زياد.. هل عدت؟!».

أجاب: نعم.

انطلق يسأل عني وعن رؤوف وعمي توفيق.. أخذ يحكي عن عزة والأطفال وفرحة ضياء وركضه خلف لقاء.. وبعد لحظات سمعته يقول:

- شهيرة.. أين أنت؟ هل تسمعينني؟!

أجبته وأنا لا أعلم هل أنا أم هي التي قالتها:

- زياد.. أين أنت؟!

أخبرني زياد أنه في بيته وحده، وسمعتها تقول:

- أنا آتية إليك!!

* * * * *

هل أرسل الله لي زياد في تلك اللحظات ليحادثني، أم أرسله الشيطان وأوحى له أن يخابرني؟! وهل كان بإمكاني حقًّا أن أقاوم أيا منهما؟! أم كان اتصال زياد اختبارا من السماء لي؟! وهل من العدل أن أمنح الامتحان الذي أكتبه لتلاميذ القسم عندي لضياء الصغير، وأتوقع منه أن يجتازه بنجاح؟!

كنت أخطو في الشوارع الخلفية التي تفصلنا عن بيت زياد، وكأن يدًا خفية تشدني وتقودني..

مازلت أختلف عن رؤوف.. هو خائن وأنا رسول عدل.. سأعود من هذا الطريق مرفوعة الرأس مثلجة الصدر.. سأعود كما يعود رجال الصعيد بعد أن ينالوا ثأرهم.. اليوم علمت لم يقيمون الأفراح، ويرقصون على دماء قتلاهم.. لأن الثأر فيه الكرامة.. فيه النصر.. فيه الشفاء.. لم يعلمني مدحت عبد الرحمن، ولم أصبح أستاذة جامعية لأكون كالسبايا.. سأعود مرفوعة الرأس، وقد أعود سعيدة هانئة.. «في القصاص حياة».. أما قالها العزيز؟ قتلني رؤوف، ومن حقي أن أعيدني إلى الحياة..

طرقت باب زياد وفتح المسكين، وشهق عندما رآني صائحًا:

- شهيرة.. من أين أتيت بهذه السرعة؟ هل أنت بخير؟

دخلت في صمت ورفعت رأسي، أنظر إلى دهشته الكبيرة، وأنا لا أعلم كيف يبدو وجهي لينظر زياد نحوي في ذاك الفزع الكبير، ثم قال بعد لحظات:

- سأبدل ملابسي في لحظات.. هل تريدين أن نخرج إلى مكان ما؟ شهيرة.. هل تسمعينني؟!

كنت أرقبه في ذهول.. كيف أفعلها؟! كيف تحدث «اللحظة» التي يتحدثون عنها.. كيف يغيب العقل.. كيف وعقلي حاضر يعلم ويقر ما أريد فعله ولا أستطيع أن أعلم كيف أحقق العدل والنصر..

هززت رأسي في سكون، وأنا لا أذكر إن كنت هززته بالموافقة أو الاعتراض.. لكن زياد اختفى من أمامي وهو يردد:

- لحظات.. لحظات يا شهيرة وأعود..

دخل زياد غرفة نومه ونظرت حولي في ذهول ووقفت عيناي على دراجة حنان أخت وحيدي.. أهداها إياها رؤوف، وانتفضت في غضب وابتعدت بعيني بعيدًا عنها.. ثم عادت عيني تقف على صورة، تضم فيها عزة ضياء بين ذراعيها، واشتعلت في جسدي نار أكبر..

عزة أم ضياء.. عزة الصدر الحنون.. ما ذنبها؟!

نهضت من مكاني في جنون.. ما ذنبي أنا؟! إن علمت عزة فلتأخذ هي الأخرى بثأرها.. لو أن كل امرأة خانت من خانها، لربما تردد كل رجل ألف مرة، قبل أن يرشق سكينه في صدر من لا ذنب لها..

ركضت خلف زياد وفتحت باب غرفته في صمت.. انتفض زياد الذي كان نصف عار، وشعرت بصدري يتهدج في جنون، وسمعته يصيح وهو يلتقط بقايا ملابسه:

- شهيرة.. ما الذي يحدث؟!

تقدمت نحو زياد ونظرت في عينيه، وقلتها:

- زياد.. خذني.. أريدك أن تأخذني..

لم أقلها يومًا لرؤوف.. وما ظننت أنني يومًا أعرف كيف أنطق بها.. لكني شعرت بدمعة تسقط من عيني، وشعرت بملابس زياد التي يحملها تسقط من بين أصابعه، وعاد ينظر إليّ في ذهول كبير، ومددت ذراعي أتحسس ظهره العاري، وضمني إليه وهو يردد:

- هل أنت بخير؟! شهيرة؟!

عدت أتوسل إليه أن يأخذني.. وأغلق زياد ذراعيه حول ظهري في جنون كأنه لا يصدق، وأيضًا لا يريد أن يكذّب ما يرى أو يسمع..

أبهذه البساطة؟! أبهذه البساطة حقًّا يسقط الرجال؟ زياد وضع شفتيه في طيات شعري، وهو يردد أنه يحبني!

يحبني.. مازال يحبني؟! رغم عزة والأطفال والأعوام؟! رغم رؤوف والصداقة والأعوام؟!

هل قالت لرؤوف امرأته إنها أيضًا تحبه رغم زوجها وأطفالها؟! وهل نسي أنه يحبني هو الآخر؟!

أهكذا تحدث اللحظة؟ أهكذا يسقط الرجال؟! وكيف بعدها يطلقون على أنفسهم رجالًا؟!

امتدت أصابع زياد تخلع عني قميصي الأبيض، وسقط بي على فراش عزة وبقيت مفتوحة العين.. أريد أن أبقى مفتوحة العين.. أريد أن أشهد بعيني «اللحظة».. أريد أن أشهد العدل والمتعة، التي من أجلها نغضب الله ونقتل الأبرياء..

كان زياد مغمض العينين وكنت مفتوحتهما.. شعرت بأصابعه تعتصر صدري، وشعرت به يقتحم جسدي، وأطلقت صرخة صغيرة شعرت بعدها بدمعي يسقط في جنون.. زياد كان محمومًا وهو يتجول داخل جسدي، وأنا كنت أبحث عن المتعة فلم أجد.. بحثت عن الشعور بالنصر ولم أجد.. بحثت عن رائحة العدل، فلم أجد إلا رائحة قذرة أبشع من رائحة القبور.. ورغم هذا لم أقاوم.. رغم هذا لم أحاول الهرب من جسده بقيت مفتوحة العين كأني أذبح للمرة الثانية..

بعد لحظات طويلة قضاها داخل جسدي، فتح زياد عينيه ينظر في وجهي، وقال في ألم:

- شهيرة.. شهيرة.. أنتِ..

غادرني زياد.. غادرني كما غادرني رؤوف.. يبدو أنني أنا من أصبح لا يكتمل معها لقاء، لا في الحلال ولا في الحرام..

بقيت على فراش عزة، أرقب وجه زياد بجسدي العاري وعيني المطرتين لحظات..

اللحظة لم تأت.. اللحظة لن تأتي.. مسكين رؤوف!!! الآن علمت لم يحكم الله برجم الزناة.. رجمهم ليس عقابًا.. رجمهم رحمة بهم، وتطهيرًا لهم من دناءة وقسوة «اللحظة»!

هم أبدًا لن يشعروا بالألم من تلك الحجارة الصغيرة التي تلقى عليهم.. من ذاق ألم «اللحظة» يعلم ألا ألم قبله أو بعده أو مثله!!

* * * * *

كيف ارتديت قميصي الأبيض؟ بل كيف خرجت وأنا لم أغلق جميع أزراره؟ لا أدري!

خرجت تاركة خلفي على فراش عزة القطعة الصغيرة الأخيرة التي خلعها زياد عن جسدي من خلف الجوب السوداء التي ما فارقت نصفي الأسفل..

خرجت وعدت أخطو في تلك الشوارع التي تفصل بيت عزة عن بيت أبي.

عشت اللحظة لكن رأسي ليس مرفوعًا.. رأسي يتدلى على عنقي كأنه مبتور.. عيني تهطل دمعًا، أرى من خلفه قميصًا شبه مفتوح وأصابعي لا تصل إليه لتغلقه..

أنا لست منتصرة.. لست سعيدة ولا منتشية.. أنا مذبوحة.. أنا لم أدنس رؤوف.. لم أحقق العدل.. لم أقم الحد أو القصاص.. أنا أضفت إلى جريمة رؤوف جرائم أكبر.. خانني رؤوف.. دنسني.. حمل إلى جسدي بقايا جسد امرأة فاجرة زانية..

لكن أنا قتلت.. قتلت زياد.. قتلت عزة.. فتحت قبر أبي وأمي، ورشقت في جسديهما الطاهرين سكينًا ملوثًا..

أنا قتلت شهيرة عبد الرحمن!!

* * * * *

حين دخلت بيت والدي، بحثت عن المجنونة التي بداخلي فلم أجدها.. بحثت عن حرائقها وحطبها علّني بشيء من نارها أتدفأ أو أحترق فلم أجد..

حين دخلت بيت والدي، وجدت أمي تجلس في مكانها على ذات الأريكة.. رأيتها تبكي وتطلب مني ألا أقترب منها.. شهقت باكية وأنا أستدير هربًا من دمعها، فرأيت مدحت عبد الرحمن يحمل كتاب الله بين يديه، ويدخل غرفته هربًا من رؤيتي..

أين كانا؟! أما بحثت عنهما حتى في فراشهما منذ ساعات ولم أجدهما؟!

لم حضرا الآن؟ وماذا عساي أقول لهما؟!

رأيت عزة.. رأيت حنان ولقاء.. رأيت ضياء وسقطت على ركبتي.. خلعت قميصي وكل ملابسي، وشممت رائحة زياد تنطلق من ثنايا جلدي.. رائحة كرائحة القبور.. رائحة لن تفارق أنفي أو كياني لحظة..

ركضت إلى الماء.. اغتسلت.. اغتسلت بالماء باردًا وساخنًا، اغتسلت به حتى شعرت بجلدي ينكمش، وما غابت عنه أو عني رائحة اللحظة.

ذهبت إلى غرفتي.. أمسكت قميص أمي بين أصابعي، وحاولت أن أرتديه وما استطعت.. كيف أدنس ثوب تلك الطاهرة؟!

جلست على فراشي عارية، أبكي في جنون.. ووجدتني أبكي وأنا أصيح:

- رؤوف.. كم تعذبت؟!

كنت أحترق.. من جلدي كانت رائحة حريق كبير تنبعث.. ومن قلبي كان الألم يستغيث مما أشعر به.. ونظرت من نافذتي القديمة إلى السماء.. ناجيت الله كما يناجيه كل القتلة.. لم أطلب منه الرحمة، ولم أطلب منه الصفح.. أنا أحقر من طلبها.. طلبت منه العدل.. طلبت منه الموت..

نامت أمي يومًا وماتت في فراشها.. دخل مدحت عبد الرحمن يومًا إلى فراشه في بيت المنصورية ومات.. يارب.. إلى فراشي أدخل ميتة.. كل ما بقي أن يموت الجسد الذي أحرقته أنا بيدي كما ماتت الروح التي أحرقها رؤوف..

يا رب السماء إن أغمضت عينيَّ.. إن استطعت إغماضهما فأبقهما مغلقتين إلى الأبد.. لا أطلب شيئًا سوى أن يصمت ما بقي من هذا الجسد.. العدل ما أريد..

غفوت أو هكذا ظننت أنني قضيت ساعات في فراشي.. وانتفضت في ذعر على جرس الباب في الصباح؛ حيث كانت الشمس تفرش ضوءها على فراشي وغرفتي.. ورغم هذا شعرت أنني أتحسس خطواتي..

فتحت خزانة ملابسي، وأخرجت أحد أشيائي القديمة، وشعرت بأصابعي تنتفض وأنا أرتديها.

شممت رائحة اللحظة تخرج من ثنايا جسدي، ورغم هذا خطوت نحو الباب..

لابد أنه رؤوف.. جاء بعد أن أخبره بهاء.. هل أخبره بما فعلت؟! هل أخبره أني أعلم كم يتألم وكم يتعذب ؟!

عندما فتحت الباب لم أجد رؤوف.. من كان بالباب هو عمي توفيق..

حاولت أن أمد يدي إليه.. حاولت أن أساعده على الدخول.. لكنني أشفقت على يده الطاهرة من يدي الملوثة.. تمنيت لو أسقط تحت قدميه وأصرخ ألف ألف صرخة، علّه يقتلني، وما استطعت سوى أن أفسح له الطريق؛ ليدخل مستندًا إلى عكازه، وجلس على أقرب مقعد استطاع الوصول إليه..

جلست بعيدًا عنه.. اخترت أكثر المقاعد بعدًا عن مقعده.. لا أريد لرائحة الخيانة أن تصله.. لا أريد أبدًا أن أجلس بجسدي الملوث إلى جوار جسده الطاهر.. أرخى الرجل رأسه على عكازه، وهو يلتقط أنفاسه، ثم قال في صوته المتقطع:

- بهاء جاءني بالأمس.. بهاء أخبرني بما حدث..

كنت أنظر إليه في فزع.. بالأمس كنت أنتظر بهاء أن يخبر رؤوف، وكنت أنتظر حضوره لأتشفى فيه.. ولكن بهاء اختار عمي توفيق.. هل تراه

عجز عن إخبار رؤوف، أم أشفق عليه؟ وهل تراه حقًا ذهب وأخبره؟!

أيا كان ما حدث وما كان أنا لا أريده.. أنا لم أعد أريد أحدًا.. لا أحد سوى الموت.. ولكن الموت لا يطرق الأبواب.. لم فتحت الباب إذًا؟!

وعاد عمي توفيق يقول:

- شهيرة..

أرخيت عيني في صمت.. لا أريد أن أسمع شيئًا، ولا أريد أن أقول شيئًا.. أنا في انتظار الموت.. كل لحظة أقضيها مع عمي وأمامه.. يجب أن أقضيها في التوسل والتضرع إلى الله أن يرسل لي الموت، أخذت أدور بعيني في الفراغ أحدق.. أبحث عنه بعيني وبروحي.. الموت وحده ينقذني من زيارة عمي توفيق وينقذه من الجلوس إلى جواري..

عدت أبحث عن وجه عمي توفيق، ولم أستطع أن أراه بوضوح.. لم أكن حتى أبكي كأن دمعاتي جفت.. ورغم جفاف عيني واتساعهما، فأنا لم أكن أراه بوضوح.. لكنني سمعته يتحدث في ألم عن رؤوف.. عن ضياء.. عن والدي.. سمعته يتحدث عن الصفح.. عن الحب والألم..

كان يتحدث وكنت أسمع ولا أفهم.. وعاد يصرخ كأنه يئن:

- قولي شيئًا.. أرجوكِ..

شعرت بالإشفاق عليه كثيرًا لكن ما عساني أقول.. وعاد الرجل يقول كأنه يستجديني:

- هل تظنين أني لا أفهم ما تشعرين به؟ هل تظنين حقًا أني لا أدرك كم تتألمين؟ الصمت سيقتلك. تحدثي.. قولي شيئًا.. العنيه يا شهيرة.. العنيني أنا إن شئتِ.. إياك والصمت.

كان صوته المتوسل يذبحني ويتجول فوق جثتي دون رحمة.. كان يحرقني بحديثه عن الفضائل، وأنا غارقة في الدناءة والموت.. أي رحمة يتحدث عنها؟ وأي صفح يطلبه رجل طاهر من ساقطة دنيئة، باعت نفسها وجسدها وذبحت أبرياء ونبشت في القبور لتلوثها؟ شعرت أنني حقًا أحتضر وأختنق.. شعرت حقًا أن روحي تزهق، وأشفقت عليه من رؤيتي أموت، فقلت في صوت خفيض:

- عمي.. أرجوك.. سأحادث سالم، وأطلب منه أن يصعد للنزول بك إلى السيارة.. دعني وحدي أرجوك..

كنت أشعر أنني أختنق.. كنت أتنفس وأتحدث بصعوبة بالغة.. كان صوتي يخرج محشرجًا كأنه صرخات محتضر.. هل جاء الموت حقًّا؟! لكن حتى الموت لم يأتني في الوقت المناسب.

حاول عمي النهوض من مكانه في فزع وخشيت أن يقع.. وعدت أرجوه أن يهدأ.. ألقيت رأسي بين كفيّ من جديد، وقلت كأنني أودعه:

- عمي.. أنت طاهر.. أراك في طهارة أمي وطهارة أبي.. أنت لا تعرف شيئًا عن الخيانة.. لا تعلم ماذا تفعل.. كيف تقتل.. عمي.. أستحلفك بالله اذهب واتركني..

كنت أتحدث عن خيانتي أنا.. عن سقوطي أنا وعن طهارته هو.. عن نقيضين، أصبح من المستحيل أن يقتسما لغة واحدة..

عمي توفيق يجب أن يخرج من هذا البيت الذي لوثته.. هو طاهر!!

عدت أنظر إليه من خلف دمعي، وأنا أرجوه أن يذهب.. لكن يبدو أن عمي توفيق كان يحمل في ثنايا ملابسه سكينًا أخرى يريد أن يغمدها في صدري، حتى وهو يرى الموت على وجهي..

عمي توفيق قال في صوت باكٍ:

- حاشا لله لا أنا في طهارة أبيك ولا أمي كانت في طهارتك.. يومًا..

قالها كأنه يئن.. قالها كأنه هو الآخر مثلي يختنق.. عندما سمعت حروفه فتحت عيني في ذهول؛ ليكمل هو في كلماته المتقطعة:

- ما عرف أحد الخيانة كما عرفتها.. ما تجرع سمها على الأرض أحد مثلي..

شهيرة.. لو لم أعرف الخيانة ما حضرت.. لو لم أتذوقها ما جئت..

دمعات كثيرة كانت تسقط على وجنتيه.. بدأت أنا أفهم ما يحكيه.. بدأت أستعيد بصري، وأنا أراه يحادثني، دون أن ينظر إلى عيني كأنه ما عاد يراني.. سمعته يحكي بكلماته المتقطعة، والتي رغم اهتزازها كانت واضحة.. لم أخطئ فهم حرف واحد منها..

ماذا قال عمي توفيق؟!

قال إنه كان في التاسعة من عمره عندما رأى أمه بين ذراعي صديق والده.. قال إنه رآها عارية بين ذراعيه.. قال إنه ظن في البداية أن الرجل يؤذيها، وإنه كاد يصرخ.. لكنه خاف أن يفعل فيقتلهما الرجل معًا.. قال إنه كان يبكي خلف الباب، وهو يسمعها تتأوه وتتألم.. لكنه في نهاية الأمر سمعها تخبره أنها تحبه، وأنها تتمنى لو كان هو زوجها لا والده..

قال عمي توفيق إنه رآها تنهض من بين ذراعيه، تضحك وهي ترتدي ملابسها.. قال إنه ركض إلى غرفته لا يفهم.. لكنه شعر أن غضبًا كبيرًا اجتاح عروقه.. قال إنه ما استطاع أن يدخل إلى ذراعيها أبدًا بعد تلك الليلة.. وإنها أبدًا ما عرفت لماذا أصبح لا يفعل.. أخبرني أنه عندما بدأ يفهم حقيقة ما حدث بعد أعوام، كرهها أكثر، وكره كل نساء الأرض..

سكت عمي توفيق يلتقط أنفاسه، وعاد يقول إنه عاش ممزقًا بين شوقه إلى صدرها، وخوفه من أن تلوثه إن هي ضمته حتى ماتت.. أخبرني أنها يوم ماتت تمنى لو يستطيع أن يقبلها.. أن يمرغ وجهه في قدميها.. كان يعلم أنها فرصته الأخيرة.. لكنه ما فعل وما استطاع..

كنت على مقعدي أجلس وأنا أسمعه في ذهول يتحدث كأنه لا يراني.. كأنه كان حقًّا يتحرر من سياط عاش العمر يجلد بها نفسه.. قال عمي توفيق إنه تزوج بهيجة إرضاء لأبيه، الذي كان يفعل كل ما يأمره به، أراده أم لم يرده، كأنه يعتذر بهذا عن إخفائه سر أمه.

قال إن بهيجة كانت تحبه.. قال إنها كانت تبكي كلما ضمها في لحظات لقائهما، وتسأله سر قسوته عليها.. قال إنه في كل لحظة كان يأخذها فيها، كان يتمنى ألا يتركها، وأن يخبرها بسر شقائه.. لكن عندما ينتهي لقاؤهما كان يكرهها أكثر، ويكره ضعفه أمامها وبين ذراعيها فيقسو عليها أكثر.. قال عمي توفيق إنه كان ينتظر وفاة والده ليطلقها لا كرهًا فيها فقط بل كرهًا في حبها هي له وحبه لها.. لا يريد أن يحب امرأة.. لا يريد أبدًا أن تحبه امرأة.. النساء لا تحب.. النساء تخون..

بهيجة كانت تشعر أنه سيطلقها إن مات أبوه؛ لذا رحلت قبل رحيل أبيه بعام واحد.. رحلت وهي تلد طارق..

عمي توفيق قال إنه كان يبكيها كما بقي يبكي أمه.. لكنه أبدًا ما أحب امرأة ولا استأمنها حتى رآني.. حتى عرفني.. حتى أوصاه مدحت بي..

وضع عمي توفيق وجهه بين كفيه، وبكى بعد أن سقطت عصاه على الأرض، وكنت مازلت في ذهولي أرقبه وأسمعه.. تقدمت نحوه في خطى بطيئة كأني أجرجر قدمي، وانحنيت ألتقط عكازه ليرفع وجهه إلى وجهي قائلًا:

- ما عرف الخيانة أحد كما عرفتها.. أعرف ما تشعرين به.. رؤوف مسكين وطارق أيضًا.. كلنا يا ابنتي ضحايا.. أرجوك أيتها الطاهرة برأس ضياء.. بروح مدحت.. بما بقي مني.. اغفري يا حبيبتي!! لا تقتلي نفسك.. لا تقتليني يا شهيرة.. أنا أحبك..

آه لو يعلم عمي توفيق ما صنعه بي.. لماذا جاء؟ لماذا قال كل ما قاله؟ لماذا؟!

إن كان الله أرسله ليخبرني أن هناك ألمًا أكبر من ألمي.. وهناك خيانة أعظم من خيانة رؤوف.. فلماذا لم يرسله قبل ذهابي إلى زياد؟! لأتعذب أكثر.. لأكره نفسي وأحتقرها أكثر.. لأستجدي الموت بصدق أكبر..

لا أعلم كيف نهضت وخطوت.. لكنني تحت قدميه سقطت وعلى ركبتي عمي توفيق وضعت رأسي وبكيت في جنون.. بكيت إشفاقًا عليه، وشعرت بكفه على رأسي، وبصوته الذي ما بقي فيه شيء.. قال وهو يبكي:

- أفهم ما تشعرين به لكن أرجوك أن تفيقي.. عديني.. عديني يا أطهر النساء..

تمنيت لو أخبره أني أكثر النساء وضاعة ودناءة.. تمنيت أن أخبره أن أمه رغم كل شيء أكثر مني طهرًا ونقاء، فهي وغيرها من النساء إن سقطن أو قمن بالخيانة فهن يفعلنها دون تفكير أو إعداد.. أنا الوحيدة التي بكل إرادتها إلى الخيانة ذهبت.. وإلى من لا تحب استسلمت!!

أشفقت عليه.. يموت الرجل لو علم أنني كغيري من النساء.. كل ما استطعت قوله من بين دموعي، ودون حتى أن أشعر أو أختار هو أنني قلت:

- أخبر رؤوف أنني أحبه كثيرًا!!

خرج عمي توفيق وبقيت ساعات أستعيد كل حرف سمعته منه..

مسكين رؤوف.. ظلمته أمه بظلم توفيق لها.. وظلمه طارق بظلمها لهما معًا.. ويوم سقط.. يوم أخطأ مرة واحدة لم أرحمه..

مسكين عمي توفيق.. حرم نفسه حنان أمه وسقى زوجته سُمًّا لا ذنب لها فيه..

دنيئة أنا.. نصبت نفسي قاضيًا وجلادًا، فما ثأرت إلا من حبيبي وما قتلت إلا طهارتي..

كرهت نفسي أكثر وكرهت فعلتي أكثر.. شعرت أنني أختنق.. أحاول أن أتنفس.. فأعجز، وأتمنى أن أموت ويلوح لي الموت في ازدراء، كأنه يترفع عن الاقتراب مني..

منذ خروج عمي توفيق.. لا أنا أموت، ولا أنا أقوى على احتمال بقائي على قيد الحياة يومًا آخر..

* * * * *

بقيتُ كالمجنونة أكتوي بجلدي ورائحتي.. كالمذبوحة أتلوى بصورة زياد، وهو يتحسس صدري ويقتحم جسدي.. كالمصلوبة مرشوقة بوجه عزة، وهي ترضع ضياء.. وبدمع رؤوف وهو يستجديني ألا أتركه..

رأيت بين الصور وجهكِ.. سمعت بين الأصوات صوتكِ في ذاك اللقاء وأنت تهمسين في حنان قائلة: «حبك ثروة»..

أسرعت إلى غرفتي في جنون.. وجلست أمام شرفتي، أكتب كل ما كتبته إليك..

تكتبين دومًا عن الحياة.. أخبريني ما الذي فعله بي الحب؟!

تكتبين عن الرحمة.. أخبريني أين طريقها؟!

تكتبين عن العدل.. كيف أحصل عليه؟!

منذ غادر عمي توفيق البيت، وأنا أكتب.. وكلما أنهكتني الكتابة، نظرت إلى السماء أرجو الله الموت ولا شيء سواه..

رؤوف رجل والرجال لا تموت.. سينهض.. سيعود إلى الشركة.. إلى والده.. إلى ضياء..

لكن أنا.. أنا مت.. ذبحت نفسي.. قتلت ابني وقتلت زياد وزوجته التي أرضعت وحيدي.. أنا تنبعث من روحي رائحة القبور وأشعر بها تناديني.. أطلب الموت.. الموت.

المساء جاء والشمس غابت، وأنا انتهيت.. انتهيت سيدتي من قصتي.. سأحملها إليك.. سأضعها بين يديك وأعود..

إلى جوار الشرفة في هذا المنزل الطاهر، سأمطر دمعًا ودعاء..

عندما تأتي شمس الغد.. عندما تتسلل خيوط الفجر قد تكون رحمة الله غمرت روحي الميتة، وأسكتت بقايا جسدي إلى الأبد.

أما إن قرأتِ ما كتبت وعرفتِ كيفأستطيع أن أتطهر.. كيف أغتسل؟ وكيف تختفي رائحة الخيانة من جسدي؟!

لو علمتِ كيف أضم عمي توفيق من جديد بذراعيّ الملوثة.. لو علمتِ كيف أضم ضياء إلى صدري، الذياعتصرته أصابع زياد؟!

لو علمتِ كيف أنظر في وجه عزةمن جديد؟! وكيف أضم رؤوف وأقبله من جديد؟!

إن كنت تعلمين شيئًا من هذا لا تتركيني.. خذيني إلى الحياة.. خذيني إليهم من جديد..

أنا لا أعلم شيئًا عن كل هذا.. كل ما أعلمه أني إلى جوار الشرفة أنتظر..

أيكما يرسل الله أولًا.. أيكما يأتينيأنا أرحب به وفي انتظاره سأكون..

أنتِ أو الموت!!



ما تمت بعد ...

وكانت لرؤوف قصة أخرى «أنا الخائن»...

إصدارات أخرى:

1 - ديوان «وعادت سندريلا حافية القدمين».

2 - رواية «الحرمان الكبير».. الدار العربية للعلوم.

3 - رواية «نساء ولكن».. الدار العربية للعلوم.

4 - رواية «رغم الفراق».. مكتبة الدار العربية للكتاب.

5 - رواية «أريد رجلًا».. دار الساقي.

6 - رواية «أحلام ممنوعة».. مكتبة الدار العربية للكتاب .

7- رواية «أنا الخائن» الدار المصرية اللبنانية.

للتواصل:

website:www.noorabdulmajeed.com
Facebook page: Noor-Abdulmajeed
Twitter: @noorabdulmajeed
E.mail: noor4corners@yahoo.com